

# عبد الرحمن الكواكبي

عباس مكيهد العفاد

دار نهضة مصر للطبع والنشر  
القاهرة - القاهرة



عباس بن محمود العقاد

# تَحِيَّاتُ الْحَمَلِ الْكَوَاكِبِي

الزَّجَالَةُ " ك "

دارُ نُحُوضَةِ رُشْدِ الطَّبِيعِ وَالنَّشْرِ

مكتبة المجمع

مكتبة المجمع

## سيرة مؤسدة

بدأت بحثي في سيرة الكواكبي فرأيت أن أعود إلى تاريخ « حلب » لأعرف الكواكبي من المدينة التي نمته وأنشأته ، وأعرف من تواريخها وأحوالها أين تقع المزية التي كان لها الفضل في نشأته وتفكيره والانجاء به إلى وجهة حياته .

ويعلم قراء التريية أن مدينة حلب إحدى المدن « المخدمومة » من الناحية التاريخية بين مدن الشرق العربي القريب ، ونعني « بالمخدمومة » معناه في اصطلاح العرف الحديث ، ومعناها في هذا الاصطلاح أنها مدينة لقيت من يخدمون تاريخها من أبناءها والتأريين بها من العرب وغير العرب . فكتبوا عن حوادثها وعهودها ومعالمها وأعلامها وطبيعة إقليمها ونخيرات أرضها ما لم يثقف نظيره لغير القليل من مدن العالم القديم . فلم يفتهم من تسجيلاتها شيء توافر لمدينة غيرها ، وما فاتها في هذا الباب فهو الذي فات المؤرخين الأقدمين أن ينظروا إليه على عادتهم في تسجيلاتهم ومحموظاتهم عن كل مدينة وكل زمن ، لا حيلة فيه للمؤرخ الحديث غير إتمام الرواية والخبر بالتفسير والتقدير .

إلا أنني رجعت إلى تاريخها في هذه المرة لأعرف « الكواكبي » غاية المعرفة التي تستطيع من العلم بموطنه وماضيه . فلم أفرغ من مرجع واحد حتى تمثلت لي المزية التي بحثت عنها وبلا لي أنها كافية وحدها ولو لم تشفعها مزية أخرى ! .

حلب مدينة حل وترحال غير منقطعة عن العالم ، ولم تنفصل قط عن حوادثه وأطواره ، كأنها المرقب الذي تنعكس فيه الأرضاء فلا تخفى عليه خافية ، ولا ينهزل بينها عن دانية ولا نائية .

ولم أرني أنحوض بعيداً من الضفة في هذا البحر الزاخر بالأخبار  
والأنساب لأعلم من أمر أسرك وبلدك أن أسوان لم تنفصل في عصر  
الكواكبي خاصة عن حلب ، على ما بين البلدين من بعد المسافة بحساب  
القواسم والأميال .

إن أجدادي — لوالدي — سلالة كردية تفرعت أصولها زمنياً بين  
ديار بكر وأورفة ومرعش ، ورأيت آخر من لقيتهم منهم يلبس العمامة  
الخضراء كما يلبس الطربوش العثماني والقلنسوة الكردية . ولم يزل بيت  
أنحواي في البلدة يعرف ببيت الشريف ويسجل في مكاتب البريد ههنا  
العنوان .

وكنيت أسأل كبار السن منهم مازحاً : من أين لكم هذا الشرف  
وأنتم سلالة أكراد ؟ فكانوا يذكرون لي قصة طويلة عن اتصالهم بالمصاهرة  
مع جاورهم من آل البيت في مدن الإيالة . ويذكرون جيداً كل صلة  
لهذه المدن بعواصم الإيالات مع ارتباطك العلاقة يومئذ بين الديار الكردية  
وعواصم الإيالات العثمانية ، تارة إلى حلب وتارة إلى العراق .

وأقرأ في الكتب الأوروبية على الخصوص أحاديث شتى عن « الرؤوس  
الخضراء » في حلب . أولئك الذين يلبسون العمامة الخضراء ممن ينسبون  
إلى آل البيت من جانب الآباء أو جانب الأمهات ، ومن هؤلاء أكراد  
أمهاتهم عربيات .

وتنسب إلى هذه الطائفة من لا يسي العمامة الخضراء أسرة أسوانية  
أخرى مضى على وفود كبيرها من موطنه أكثر من مائة سنة وأذكره  
في أخبار أيامه بعمامته الخضراء وموكبه من أتباع الطرق الصوفية  
التي تشعب فروعها في البلاد العربية والتركية ، وهو مع اشتغاله بالتصوف  
تاجر ناجح ورأس أسرة ناجحة ينتمي إليها اليوم الطبيب والحامي والموظف  
والتاجر ومالك العقار .

وقد وفد العسكريون والمدنيون من أصحاب هذه العمام إلى الصعيد بعد ثورات دامية في ولاية حلب على ولايتهم الترك الذين أجلاهم جيش إبراهيم باشا عن الولاية بعد قليل ، فلما أعيدت هذه الولاية إلى الدولة التركية تعذر مقامهم فيها فعادوا مع الجيوش المصرية وأقيم بعضهم في الصعيد وبعضهم في السودان .

ولعل « عبد الرحمن الكواكبي » الذي ولد بعد هذه الحوادث بسنوات قليل كان يتحدث في صباه بحديث واحد عن نقابة الأشراف التي ادعاهم غير أهلها في القسطنطينية ، وعن حكام الترك الذين انتزعوا مناصب أبناء الوطن في الديار الكردية ، وهو الحديث الذي رده هؤلاء المهاجرون الحريصون على شاراتهم وشارة أهلهم في بلادهم . وظلوا يرددونه على وتيرته حتى سمعناه منهم مرارة !

ولو أن إنساناً يختار لنفسه رسالته ومولده لما اختار عبد الرحمن مولداً أصلح للرسالة التي نهض بها من مدينة حلب : مدينة تتصل بالحوادث وتتصل بالحوادث بها ، هذا الاتصال .

• • •

لئن علمت من تجربتي في قراءة التراجم وكتابتها أن النوابع من أصحاب الرسائل فشان :

فئة تظهر في أرائها لأن أسباب نجاحها تمهدت وتم لها النجاح قبل فوات ذلك الأوان .

وفئة أخرى تظهر لأن الحاجة إليها قد بلغت غايتها ، وهي التي تظهر لتحقق تلك الحاجة التي تبحث عن صاحبها ، وله منها معين يذلل صعابها ويهتدي إلى طريقها .

والكواكبي نموذج عزيز المثال لأولئك النوابع أصحاب الرسائل الذين اتفقت لهم أسباب زمانهم ومكانهم وأسباب نشأتهم ودعوتهم ، تكاد

سيرته أن تفرى بالكتابة فيها لأنها « تطبيق » محكم لتراجم هذه القصة من نواحي الدعاء .

تهيات له البيئة وتهيا له الزمن ، وتهيات له الرسالة ، فلا حاجة يكاتب السيرة إلى غير الإشارة القريبة والدلالة العابرة ، وهناك فأنظر . . . ها هو ذا صاحب الدعوة قائماً حيث يرى من حيث نظرت إليه .

ولو لم تكن للسيرة من موجباتها غير هذا الإغراء لكان ذلك حسبها من وجوب عند كاتبها وقارئها ، ولكنها سيرة يوجبها الفن للفن ويوجبها التاريخ للتاريخ ويوجبها علينا أنها حق لصاحبها وقدوة صالحة لمن يقتدى به في دعوته الباقية . . .

وإن لما لبقية متجددة بين أبناء اللسان العربي في كل جيل .

عباس محمود العقاد



# الكتاب الأول

فناء كتابنا

## مدينة

### (١) مدينة عربية عريقة :

ولد عبد الرحمن الكواكبي ونشأ في مدينة عربية عريقة ، هي حلب الشهباء .

وقد عرفت المدينة باسمها هذا - مع بعض التصحييف - منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد . فورد اسمها في أحجار رمسيس الأكبر ، وورد بين أنحمار حمورابي في القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وورد في أنحمار شمنصر ( ٨٥٨ - ٨٢٤ ) . وورد خلال هذه القرون في كثير من الحفريات والآثار التي تنص لتواريخ عيشين والعمالة من الشمال إلى الجنوب .

ولا يعرف على التحقيق مبدأ نشأ وإطلاق هذا الاسم عليها ، ولكنها كيفما كانت لتواريخ المروية تقدم ولاشك من كل عهد وردت أحماره في تلك الروايات ، لأن قيام مدينة في موقعها ضرورة أحق بالتصديق من أساطير مؤرخين وأساطير الرواة لأنها في مكان توامر فيه كل شرط من شروط المدينة العامرة من خصب لربة وسعة لمكان واتصال لطريق بين مراع البحران وقواهل التجارة ومالك الفالحين أو معقل المتحصنين المداهمين ولا عني عن مدينة في مكانها للانتفاع بموارد الزرع والبيع والشراء ، وتنظيم لإدارة الحكومية في حوارها . وتبادل معاملات فيما حوها ، وتأمين المواصلات بينها على تعدد الحكومات أو وحدتها

فالمدينة التي ينبغي أن تقوم في هذا المكان حقيقة تاريخية عمية عن سجلات التاريخ وقد يخطيء بعض مؤرخين في بيانها أو الفترة التي بنيت فيها . لأنه يخلط بين نشأ الأعمار بالنسبة إليه ونشأ الأول قبل ذلك مقرون ، إذ كانت موقعا مرمصا فيما مضى للزلازل معرضا للغارات

واسارعات . بنى وهدم آونة بعد أخرى ولكنه يسرع إلى اعمار ولا يطول عليه لإهمال . وقد فطر بعض المؤرخين إلى ذلك فيما يقبه ابن شداد حيث يقول « وهذا يدل على أن سلوقوس بن حلب مرة ثانية وكانت خرجت بعد بناء بلوكرش مجدد بناء سلوقوس فإن بين استين ما يريد على ألف ومائتي سنة » (١) .

وما يدعو إلى اللبس في تصحيح أقوال المؤرخين عما أسماها سحيب بأسماء أخرى أو ذكرت باسم « قيسرين » على سبيل التعميم والمحاورة للتعيم بدل التحصيل ومن أسماها عند اليونان سم « برية » التي أطلقوها عليها كعادتهم في إطلاق أسماء بلادهم على المدن التي يدخلونها . ولكن اسم « حلب » أقدم من هذه الأسماء جميعاً ، أقرب إلى طبيعة المكان وإلى اللون الذي سميت من أجله « الشهباء » وهو لون أرضها ولون الحوار التي تغطي به مياها

فان ياقوت الحموي في معجم البلدان :

« حلب مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة هواء صحيحة الأديم والماء ، وهي قصة جند قيسرين في أيام هذه والحلب في اللغة ، مصير قوت . حيث أحب حلباً .. فان الزحاحي : سميت حلب لأن إبراهيم عليه السلام كان يحب فيها عمه في الجمعات ويتصدق به فيقول الفقراء : حلب حلب : فسمى به » .

فان ياقوت . « وهذا فيه نظر ، لأن إبراهيم عليه السلام وأهل الشام في أيامه لم يكونوا عرباً . ثم العربية في ولد إسماعيل عليه السلام وقحطان على أن إبراهيم في قنعه حب مقدمين يزادان إلى الآن فرب كان لهذه اللفظة أصل في العبرية أو السريانية لحاز ذلك لأن كثيراً من كلامهم يشبه كلام العرب لا يعرفه إلا بمجمة يسيرة كقولهم . ( كهنم ) في جهنم ... »

(١) الدر المنثور في تاريخ تلكه حلب

إلى أن قال - « وذكر آخرون في سدب عمرة حلب أن انعمانيق لما استولوا على لبلاد الشام وتفاشوا فيهم استوطن ملوكهم مدينة عماد ومدينة أريحا القور ودعاهم الناس بلجاريين ، وكانت قنسرين مدينة عمرة ولم يكن يومئذ اسمها قنسرين وإنما كان سجه صوداً »

وقد أصاب ما قوت في ملاحظته لأولى ، غير أن لغة يبرهم عليه السلام لم تكن عربية ، ولم تكن لعربه كما تكلمها أهل بعد ذلك معروفة في عصره ، ولكنه أصاب كذلك في ملاحظته لثانية إذ حط له لثباته بين ألسنة لغات وللهجات التي شاع استعمالها في طحاء حلب قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون إلى الأرامية ، عربية ذلك العصر قرية لجميع لهجاتها إلى العربية الحديثة وتفيد كلمة « حب » هي بمعنى لبياض ، ومنه لون اللبن الحبيب ، بل يرجح الكثيرون أن اسم « حب » الذي ذكر ما قوت أنه كان يطلق على قنسرين ، كما يسمى « البصبة » التي تقرب من الشبهة في لفظها ومعناها ، وكانت حلب توصف بالشبه ونشهر بالبصبة أحياناً فيكتفى بها من يذكرها دون تسميتها وورد اسم مدينة صود غير مرة في أسفار العهد القديم فرجح أناس من معسريه أنها حلب ورجح الآخرون أن قنسرين ، ولا بعد إطلاق الاسم أحياناً على المكانين .

على أن الأمر الذي من وقائع التاريخ أن لأراميين سكنوا هذه البصع قبل عهد إبراهيم عليه السلام ، وأن المدينة وما حاورها كانت عربية بالمعنى الذي بحث فيه عن أصل العربية القديمة ولا نقف فيه عند تاريخها الأخير ، وقد ثبت أن أسلاف الآراميين عذبوا عن هذه البصع في عهد الملك سرجوان قبل الميلاد بأكثر من عشرين قرناً ، ولم تكن هناك لغة أخرى بعيدة عن حلب معنى سياض غير الأصول لعربية الأولى

## (٢) ومدينة عامرة :

و المدينة توفعها وقدم عهدها مدرسة حل وتوجد ، يقيم فيها من يقيم ويتردد عليها من يتصرفون في شئون معاشهم من أبناء وعبر أبناء .  
تعددت فيها أسباب المعاش من زراعة وصناعة وتجارة ثم تحضر في مورد واحد من مهنه الموارد ، ويكتب رسل Russia - وهو ممن أقاموا فيها حقبة من ثمان عشرين مجداً صحيحاً عن تاريخها الطبيعي فأدعى فيها ما يبدو أن يجمع في مدينة واحدة من تحصيل البساتين والفاكهة والخضر والأبارير والرياحين ، ومن أنواع البواب والمناشيه والظير والسحك . ومن محلات الصناعة للدباس والأقمشة ومراق المعيشة . فصح فيها ما يوجزه الكائن العرب حيز يحمل الوصف من أمثاتها فيقول إنها مدينة تحيرات

وتكلم عنها المصريون صاحب الجغرافيه العالميه في ترجمها زراعة المصنوع في عين عصر الكواكب فقد بأسويه الذي نقيه حرمه :  
« ولنبعث الآن عن أشهر الأماكن - مقديش - القسم الذي يحور المرات وهو دالة حسب عقول اب مدينة بسماة هذا الاسم هي كما في كتاب «بورطيا» برة القديسة ، وهي أعظم جميع مدن العثمانيه في آسيا ، سواء بتأديت أهديا أو بعضي وكثرة أموال وعاد ، وحس بعضهم أن أهديا لا يريسون عن مائة وخمسين ألف نفس ، و«ببها» من الحجر السحت كما أن طرفها السطانية مبلطة ، أيضاً . ومطرها عجيب لما فيها من أشجار السرو المقلية الأوراق لمباية بالكتابة مدرسا البيضاء ، كما أحسن حنلاط كل من الجسرين بصاحبه ! رها فدرجقات القطن والحرير على حالة راحية ، وإليها تأتي القوافل العتيقة من بغداد وبصرة فتحسن إليها بضائع بلاد العجم والهند . وبأحمدية مدينة حب الشهاء - يسميه المتأخر ( تيمر ) ورباصها عزروعة بلعب والزيتون كثيرة الخطه »

والمصريون يقيمون بالتقدير «ببها» سكانها لا يريسون على

مائة وخمسين ألف نسمة . ولكن الرحلين والحدادين من الأوربيين الذين أقاموا بها بين القرن السابع عشر والثامن عشر يبلغون تعدادها نحو أربع مائة ألف نسمة . ويقول داريو D'Arvieux الذي كان قنصلاً لفرنسا في المدينة بين سنة ١٦٧٢ وسنة ١٦٨٦ إن الطاعون أهلك من أهلها نحو مائة ألف ولم يبق سوى الأسوق وفيه ينقص سكانها . وكان بعض المؤرخين هاجمين في نقد سكانها على إحصاء ملوك في الكنائس المسيحية أو على مغادير لأطعمة اليوم التي تستعمل فيها . لاضطرارهم إلى لظن مع قلة إحصاءات الرسمية . فراحوا في حسابهم بين ثلثائة ألف وأربعمائة ألف في عامة التقديرات إلى نهاية القرن الثامن عشر . ثم تبين من الإحصاءات الأخيرة أنهم لم يحطوا بالتقدير .

• • •

### (٣) ومدينة اجتماعية :

وهي مدينة يقوم عمرائها على مجتمع «صح» على خلاف المدن عامرة التي يقوم عمرائها على كثرة السكان بغير اختلاف يذكر في كيانها الاجتماعي أو تركيب الصونف التي تتألف منها لخصمات السياسية .

فالسكان فيها كثيرون . ولكنهم أصحاب مرافق وأعمال لا تستأثر بها صناعة واحدة . ولا تنفرد الصناعة الواحدة بينهم بسط واحد على وتيرة وحيدة . سرء اشتغال بالتجارة التي يعمل فيها التاجر المحي وتاجر لقوافل وتاجر التصدير والتوريد . أو اشتغالوا بالزراعة التي يعمل فيها راح الحقل وراعي البستان وراعي الحضر والأغشب . أو اشتغالوا بالحرف اليدوية التي يعمل فيها النساخون والتجارون والحادون والمختصون بفنون البناء وتعمير البيوت .

وفيما عدا هذا التركيب الاقتصادي يندرج المجتمع في المدينة بتتلاف اندماجات والأحاديث من أقدم لأزمنة قبل الإسلام وبعد الإسلام . وقلم يعرف مذهب من مذاهب الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو مذهب

الديانات لأسبوبة لا تقوم له بيعه في حلب أو مزار مشهود مقدس عند أتباعه . وهي تنسج لأصحاب هذه المذاهب من العرب والترك والكرد والأرمن والأوربيين . يتكلمون أحياى بلغة واحدة مشتركة أو يتكلمون بصيغ هذه اللغات كلما تيسر لأحدهم منهم لغة أخرى غير لغته التي ولد عليها .

ولم تزل المدينة منذ القدم عرصة للمنازعات الدوية بين الفرس والإغريق . أو بين العرب والروم . أو بين المسلمين والصليبيين . أو بين أصحاب العقائد في الديانة الواحدة واللسان الواحد وهي حالة لا تتكرر طويلا إلا تركت لها أثرين لا يحصى مهم ولا مفر من التوفيق بينهما . فمن أثرها أن تزيد شعور الإنسان بعنيدته وحرصه على شعائره ومعام دينه . ومن أثرها في الوقت نفسه أن تروصه على حسن المعاملة بينه وبين أهل حوارته من مخالفين له في شعوره أو تفكيره . وهي رخصة عالية تعتد فتبصر على أحسن في الساحة المدنية ورحابة الصدر ودمائه الخلق وكياسة العشرة والمخيلة . وقد يجمع بها الغلو إلى مثال من الحلف بين العقائد والشعائر لا يعهد في بيته لم يتعرض لتلك التجارب التاريخية . فقد روى دارهيو المتحضر ذكره أنه وجد في عين طاب « عيلتاب » صائفة تسمى « ( كير وكير ) » أي النصف والنصف ، يصرون في المساجد ويحفظون القرآن ويعلمون المصاحف الصغار في أعماق أطلالهم ويوحسون تعميد هؤلاء الأطفال وتعمير التمرين في المعابد المسيحية والمذاهب إلى كرمي الاعتراف وإقامة الصلوات في عيد الميلاد وعيد القيامة

• • •

ومن نتائج الالتلاف في المجتمع أن تتأصل في العادات حصول التعاون الاجتماعي . فتصبح المدينة العامرة معمورة قادرة على التعمير ويكسب أساؤها قدرة على تجديد عمرها بعد الكوارث التي تنشاها كك تلتاب أمدها من المبدع على أيلى الفاتحين أو جعل لزلزال والأوبئة التي كانت تنتشر في الشرق والغرب فلا تسلم منها مدينة كثيرة برراد والطراق يخرجون منها وشيون إليهم بغير رقابة صحية على القواعد العلمية . وقد تمكنت حب



من تجديد عمرانها واستئناف علاقاتها ومعاملاتها مرات في مدى التاريخ المعروف منذ ثلاثة آلاف سنة ، واستطاعت ذلك أربع مرات منذ القرون الوسطى إلى اليوم . ويشير ياقوت الحموي إلى حصنة الصمير والتأثيل في أهلها فيقول : « ولأهلها عناية بإصلاح أنفسهم وتشمير الأموال ، فقل ما ترى من بشا من لم يتقصر أخلاق آبائه في مثل ذلك . فذلك فيها بيوتات قديمة معروفة بالثروة ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف ما أثر البلبال »

• • •

#### (٤) ومدينة سياسية :

والمدينة الاجتماعية على هذه الصفة مدينة سياسية باحتيرها بما هو متساق إليه من ضرورت تسييرها وإصلاحها ، فلا يسع إنساناً يقيم فيها أن يعمل عن السياسة التي تديرها رلاً عن أحوالها التي تستقيم عليها شئونها اشتبكة أو يعزبها الخلل من جانبها . وربما حالت السيطرة المستمرة دون إصلاح لأتس والأفلام في أحداث هذه سياسة ، ولكن المجلس التي تدور فيها لأحداث بين أهلها لا نبث أن تخلق لها منادح من القرون المبح في باب النقد الاجتماعي ولو قصرته على نقد الأحوال العامة وآداب العرف الشائعة ولم ترد فيه على الخنث إلى الأيام التي كانت تحبو من عيوب هذه الأمم أو على البناء والذكرى لمن كانوا يسوسون الأمور سياسة لا يلمركها لملام .

قد أرسل في تاريخه لطبيعي لمدينة حلب ، وهو يسمى المسلمين بالترك على عادة الأوروبيين في رسمه : « أنهم على حتمجلهم في مسائل السياسة لا يقدان عهم لهم سكوت صاهنون فانهم يفيضون حديث عن مسائل الدسة ولآداب ومساوىء الملح والترف ، وشيوخ ارشوة في السواوين ، وربما تحفظوا في الكلام على أخطاء الحكومة الحاصرة ولكهم ححوو على لأخطاء الماضية بعبر مرادة ، وسواء كان يجري الحديث

على هذه المسائل أو على أشدها من المسائل الخلاقية تراهم يختصون في مساجلاتهم ولا يطول الحوار بينهم دون أن يتطرق إليه النصب حتى يفصل فيه صاحب الدار برأيه ، إن كان من دوى الصدارة ، فيحيل الأكثرون إلى الرأي الذي أبدته . . .

وإذا قيل هذا عن أواخر القرن الثامن عشر فالحالة السياسية في غير هذه الحفنة المظلمة لا تحتاج إلى بيان .

. . .

### (٥) مدينة متصلة :

ومن تحصيل خلاص أن يقال إن المدينة التي هي هذه الصدارة وهذه العلاقات الاجتماعية على المتقى الطرق المعبودة في لغارات ثلاث من تنقطع عن العلم في عهد من عهودها ، ولن يشطح العالم عنها .

إلا أن المعلومات المخدوسة أوصح من الأحوال المعهودة في الدلالة على تمكن هذه الصفة وشدة الحاجة إليها فمن هذه المعلومات أن بعض الأخبار بالمشاعل وانصايح كان معروفاً في حلب قبل سنة وثلاثين قرناً كما يرى من أروع « دوى » الأثرية التي كشفت عوارها . أما في العصور الأخيرة فلم نحل حبل حب فقط من وسائل السرعة للانتقال أو نقل الأخبار ، وحيثما وجدت وسيلة أسرع من غيرها في قطر من الأقطار المائية لم تبت ، تحصن في حلب بعد قليل وأن يمتد الخيول في استخدامها ، وحدها زيادة السرعة في هذه الفترة بالتحصيل بسرعة التي يعرفها في وادي النيل باسم الهجين ، وحتي أصحاب القوافل بها في توليدها بين عربية والتركمانية لتوريثها ألحسن الصفات من فصائلها المخترة . وامتدح فيها بريد الحمام أثر حسن وهو أسرع بريد عرفه الناس على المسافات البعيدة قبل استخدام ليرق والمحرك

ولكنهم في الخطوط التي تمتد من حلب وإليها يحاطون لعوائق الطريق فيصرون أقدام الحمام في أصل ليثعر بالرهطونة في الجوف فلا يستدرجه

الشعور بالمعطش إلى الماء حيث قطع عن السفر أو يمسك بين أيدي امر صديق له في الطريق .

• • •

## (٦) ومدينة حساسة :

وهذه النوع من المتأصلة جميعاً قد بقى إلى العصر حتى شيئاً فيه الكواكبي و عشرين فيه بين منتصف القرن التاسع عشر و أو ثل القرن العشرين . بل كانت كلها على حافة من نشاط و لتحصن توصف « بالحساسية » الصرطة التي تضعف انده لتبين إليها على غير المعتاد في سائر العصور .

كانت مدينة حلب قبل مولده بسنوات حراً من العلم العربي حتى كان مجمع الشام وفسطاط وطرقاً من العراق وحريره العربية في نطاق واحد . وظلت كذلك بضع سنوات حتى أعيدت إلى الدولة العثمانية في سنة ١٨٤١ بعد تدخل الدول الأوروبية في حروب برهم باشا والسلطان عبد الحميد .

وكانت هذه الأرض واحة لسال و غارات الحدود بين العرب والترك في العراق شعلاً شغلاً لأبناء حلب على الخصوص ، لأنها مدينة التي يصيبها كل عطل و يرقد إليها كل اضطراب

و كانت مسائل لامتدات الأحياء يمر كل يوم في أوردية وفي شرق أمان مع ما يتبعها من مسائل التشريع والإدارة التي تصرف بين لطوائف والأحاديث في كل بقعة من بقاع الدولة التركية

و كانت هذه الدولة تتقدم خطوة وتكس على أعقابها خطوات في طريق الحكم الإداري والإدارة العصرية واستمداد العلم الحديثة بالقصد البالية التي جمعت عليها منذ قرون .

و كانت قناة السويس تفتح ، ومراكز الشركات تتحول من حلب

شيئاً فشيئاً إلى القدرة الأوربية أو إلى إشواطىء الهند وإيراب وموانئ  
البحرين الأحمر والأبيض على طرف الطريق .

كان كل عامل من أعوام الحجة الاجتماعية إلى أحسب يتحرك  
ويتنه ويبلغ به الانتباه حد احساسية ، بل حد الإغراط في الحساسية  
حين تشأ الكوكبي في هذه الحنية المتوزة ، وركن إليه القمر أن  
يكون لها لسان حال ، مستجاب لها في بيثته من حيث يستجيب أمثاله  
من الرجال .

## العصر

كيف نشأ الكواكب في هذا العصر ؟

كيف لم ينشأ الكواكب في هذا العصر ؟

سؤالان لا يتردد مؤرخ بينهما . بعد ما تقدم . أيها الحق بالتوجيه  
وأيها أدمي إلى الاستغراب . فإن حوادث العصر وحوادث السمرة  
الكواكبية تشير . كلتاهما إلى الأخرى متقابلين كما يتقاسم جلال  
المتلازمان .

ولد الكوكبي حول منتصف القرن التاسع عشر ، وتوفي بعد  
ختمه بسنين ، فحياته على وجه التقريب هي نصف ثان من عمر  
التاسع عشر في ملتقى بطلان القرن العشرين . وهذه حصة من حب  
التاريخ الحديث يوح عبها كأما شطت من عقل فكل شيء فيها  
يعبر من الحسود والركود وينحصر بالحركة والوثوب إلى التعبير

كان هذا النصف الأخير من القرن التاسع عشر . في القارة  
الأوربية . مبداءً لعصر الكشوف العلمية والبرعة الفكرية إلى التمدد  
على القديم . وكما حققه عامره بأسباب يقى والاندفاع إلى ظهور  
حيثما وجد الطريق . تمحضت عن أحط مذهب الفكر والأخلاق  
وأدعاهما إلى ثورة والانقلاب . ولا يطعن في شرح المذهب الحصة  
بتلك حقة أو تبي تعد من ولائدها ونتاجها . فإلى بطوى الكف على  
خسة مبه فلا يستكثر بعدها أن يحدث في بدء القرن التاسع عشر كل  
ما حدث مبه من عظام الأمور وعوامل الحركة والانقلاب .

في بقية القرن التاسع عشر شاع مذهب داروين عن التطور وتنازع  
انقضاء . ومذهب كارل ماركس عن رأس مال . ومذهب بيشه عن

« السورغال » أو الإنسان الأعشى . ومذهب المدرسة لطبيعية عن حرية  
الفن والأدب . ومذهب الذي يترط عليه عن الحكومة الشعبية . وكل مذهب  
منها لا يستقر حيث ظهر على حال من أحوال المجهود والرضى عن التقسيم  
والاستسلام .

ووصلت فتوح العلم إلى السوق والطريق . بل وصلت إلى المهلاء  
لألميس أهول وأصحح من صورتها التي وصلت . إلى علماء الدرس .  
سمعوا لجر موفود ، حاكى ، فقالوا أن الإنسان يخلق الخلد

وسمعوا عن البرق بأسلاكه وعبر أسلاكه فجدد لهم خبر المردة  
مبحرين في نقل الأسرار بين السماء والأرض . وبين المشرق والمغرب  
ومجدد الصور طافت بعد أن شهدت الصورة التي يرسمها لهم شعاع  
من فكادوا يلحقونها بالخيول والهجرات

وكتب في أيامهم مختراعات الأسس . فأصبحوا يطعمون والمناحره  
والسوقية أمثالاً تطاير مبرده بعد أن كانت في الخفية المغارة الأعيان  
أصداً أو أظلالاً تتعثر بين المجهود والمجهول

كنيتك كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ميدان الفكر  
والبناء .

فما ميدان العلم والحياة العامة فحجس ما بقا فيه أنه يتلخص في  
كلمتين ترتدون بينا المقاب أو لسان الحمار في كل كلمة عالية أو  
منخفضة . ومتقدمة أو متأخرة . وحررة باهضة أو متأخرة للحرية والبهضة ،  
وهما : الحرية وحتى الأمل .

في البلاد الإنجليزية كان سلطان مدون يتقيد ويحكم سلطان  
السادة ابتلاء إلى القيد . ولم تبدأ فيها صيحة الخطبة « مشاركة في  
الحكومة من أصحاب الأمور وجماعات العمال . فكان العهد الذي  
بعد منتصف القرن عاكس العهد الذي برز منه الأحرار وتجهلت فيه  
السبيل لطوائف العمال .

وفي البلاد الفرنسية قصص حرب السبعين على الامبراطورية وتحولت  
بالحكم إلى النظام الجمهوري على أساس المساواة التي أعنتها الثورة  
وتحولت إلى أصواء عالم وهي مساواة الحرية والإخاء والمساواة

وفي البلاد الألمانية ظهرت عومية مشتقة بالوحدة التي كانت  
تشددها وجمعت بولايات في كانت موطى عبرين من الشمال  
وجنوب . ومن شرق وغرب . فأصبحت هذه الأمة التي يحشد  
انغمروا !

وفي البلاد الإيطالية تحدثت تلك المعارك من قصايا العصر كله .  
ومنها قصة الاستقلال ، وقصة الوحدة ، وقصة السلطة الدينية ،  
وقصة الحكومة الشعبية فكانت وهي تصطبغ جميع هذه لقضايا  
كأنها الحلقة الوسطى بين العرب والشرق . وبين الأمة العالة  
وقد أتت تشكوا اعية عليها ، فثار إيطاليها قبل منتصف القرن  
تستمر الحروب من الأول ثلاث في تنازعها وهي النجا وقرضا  
وأشب .

وعند منتصف القرن ثارت على أمرائها الذين تنازعوها وفارقوا  
أرضها وأنشأها وحديث شملها في ظل ريتها بالوحدة على أرضها  
وقصص الوطنية الإيطالية في قصة سلطة الديانة كما قصص في قضية  
ملك والدولة . ثم قصص في قضية حكم وأقامتها على قواعدا الحياة  
الشعبية . ولم تنقص العرب حتى دحمت في سباق الاستعمار طامعة في  
تسلاط غيرها بعد أن كانت مطمئناً للمساكين على من العرب عنها  
ومن أنشأها

وقد توحدت إيطاليا ، بعد مجرودها - كثير د تحرق مساعدها وانقصت  
مشتها في النهاية . فكان الوطنيون يخاضعون جميعاً على توحيدها  
وسببها في مصاف الدول اعظمى ويأمنون أن يكون بين حرائرها  
أقل مهم شأنها وأصغر منها تدور في مجال العلاقات الدولية . وهي

أعرق منى ماصياً وأقسم ثقافة وموطن اللغات التى بقيت منه لغد  
اللاتين واقتبست منه سائر اللغات فى أهم الحصاره . بلا أنهم . مع  
هذا الاتفاق فى الغاية . تفرقوا فى الوسائل وهاير سياسية فأر دحا  
فريق منهم : جمهورية حرة . مثال حربها وتنفير مبادئ الحرية بعدد  
وعى رأس هؤلاء المخلصين حكم إيطاليا . رائدهم الأول يوسف ماسيني .  
مؤسس « لإيطاليا الفتية » ثم مؤسس « أوردية الفتية » . ثم تأتى الحرية  
فى القدرة الأوروبية شرط لا غنى عنه لدوام الحرية فى بلاده

فريق آخرون يؤيدون بقاء الملكية على عرشى واحد . أو  
بمحدود مقبلاً على حسن ربحاً تنبياً « الفرصة لإقامة الجمهورية . وعلى  
رأس هؤلاء كهنود الرجم الورى . الذى كره يخالف الفريق الأول فى  
سياسة الاختلاف . لدوية ويسرح لرسس الخيوش فى خرم لحرارة  
روسيب ومعدونه تركيا و بجلترا . وفربس أهلاً فى تأييد الدولتين  
الأخيرتين له فى مساعيه لدوية . وأساساً من تأييد روسيا لصيغة تقصيه  
من قصديا الاستقلال والثورة على التنظيم للدولة العتيقة

ويتوسط بين الفريقين فريق غاريبالدى الذى كان يستعين بالكتائب  
المتطوعة كد كان يستعين بالمدافع . سره من قبل جندعه المصاحمين  
« الكرنواري » ولا يرفض التعاون . مع « إيطاليين فتاة » كلما اتفقت  
الخدمة على خصم واحد من خصومه وخصومها . ولكنه يوجب من  
المطالبات الدولية ولا يؤمن بجلوها . ويكاد ينطع بحريتها خوفاً من  
مفارم « الغاية » التى تجرر على حقوق الدوية . ناشئة كد تجرر على  
أقسامها وموادها . ولا تعرف وسيلة من وسائل لأهم فى جهدها  
بتوصل بها فريق من هؤلاء المجهدين ولم يتصل خبرهم بطلاب الحرية  
فى البلاد الشرقية . لانتشار لإيطاليين على شواطئ « البحريين الأبيض  
والأحمر » وإقامتهم على طريق التجارة القديمة بين الهند والناحية  
وجنوه . واشتراكهم من قبل الباسمة ورمعهم معاً فى حروب الدولة  
العثمانية .



ولابد من الانذار مسبق إلى دوائر السياسة لردوحة التي أملاها  
على الدولة الإيطالية وضعها الحديدي بعد لاتفاق على توحيدها . فهي  
من جهة - دولة أوربية طامحة إلى مساواة الدول التي سبقها في حلة لفتح  
والسيادة . وهي من الجهة الأخرى أمة نشبه الأمم الشرقية في جهودها  
لدول الصدارة وتنطق مع بعضها في مقاومة النفوذ العثماني وتشجيع الثورة  
عليه . ومن آثار هذه السياسة أن بينها سالك كان على مودة « شخصية »  
ودولية تربط بينه وبين بيوت الحكم والرياسة في أكثر الأقطار التي  
حصصت للسيادة العثمانية . فلما عزل الخديو إسماعيل جعل مقره الأول  
في البلاد الإيطالية . وقد هجر الأمراء الإيطاليون من بلادهم في الحرب  
العالمية الأولى وبعد الحرب العالمية الثانية كان اختيارهم لمصر مقديماً  
على اختيارهم للرحلة إلى قطر من الأقطار لأوربية ، وكان ملك إيطاليا  
يرصد أحياناً في الأزمات المستحكة بين الأمم المغرب ودولتي فرنسا  
واسبانيا . كما يرى أن هذه الأمم تطمش إليه وتتفلس فيه ، لم تنفله  
من الحكومات الأوربية . وقد تطوع الإيطاليون بعد احتلالهم « أترتيا »  
لحمل بعونه ومنزل سلاح إلى سواحل جزيرة العرب لمقاومة أساسين  
لنفوذها من الأوربيين وغير الأوربيين ، وكانت لهم جالية قوية في  
الحد السورية تعرب عن تأييدها للأحرار والشائرين تودداً لهم أو نشراً  
للدعوة التي نقلها من بلادها في باب نهضة التوحيد والحرية

• • •

هذه بيئة عجالة عن حركات العرب في نصف الأخير من القرن  
التاسع عشر أو جزء من القرون من أهم أربع من أهمها التي سرب  
أخبارها وأخبار قضائها إلى الشرق العربي وبلاد الدولة العثمانية . وهي  
عن تماوتها في كل ظاهرة من ظواهر السياسة والتمامة تشترك في خصمة  
لا تعيب عن واحدة منها في صبر من أخصارها وهي المطالبة بالحقوق  
والحرمان

هكذا كانت قارة الاستعمار قد حشرت حطبها حبل خرق في

سياسة و حجة تريدنا ونعتمدنا لتفهره وتغيب عليه فهناك سياسة أخرى لم نرددها ولم نعتمدنا تلقاها الشرق منها فهي «قاوت» وتيقظ لظامعها وازن معها في ميدان الذي استهزته به باختيارها وبغير اختيارها .

• • •

وقد جاء رد العمل منتظر بعد برهة من السبات والمدهول من أثر الصدمة التي كانت تثقل وتشدد كلما تنفتحت بين أقطار شرقين اجيد والغرب من «الرب» في أقصى شرق الآسوى في مراكش في أقصى الشرق الإفريقي . وقد أصبحت هذه « شرقاً » في حساب الاستعمار . وإن كانت تناوح في موقع الجغرافي حارسها دولة عربية .

وبقصر الكلام هذا على الشرق العربي كما كان في أو سط القرن التاسع عشر إلى ما بعد مولده بمبيل : في تلك الفترة كانت مصر قد ظهرت حصه كبيرة من الحكومة الذاتية . وكانت ليدون فقد خرجت بعد متى ولأزمات مصيبة المصير من لامتيازات الداخلية . وكانت جزيرة العرب تنهز بالعبوة الوهابية وتوشك أن تحتد معها إلى قلب العراق . وكانت العراق في صراعها مع حكم المماليك تتقدم في خطى سراع إلى خلاص من ذلك الحكم المضطرب بين الكساد والوواء وعلمت الدولة العثمانية أنها محتاج لاستثنائه وإعادة الأمن فيه في نظام من الحكومة الدستورية غير نظام الولايات مهمة أو لولايات المسخرة لسلطانها على غير «إدب» فأرسلت إليهم أكبر وزيرها في عصره « أحمد مدحت باشا » ليقتب بأبي الدستور فأقدم هذا نظام الحكم على أسس الحرية وعصاها العامة على خير ما يستطيع في تلك الآونة ، وافتتح فيها عهد الحياة المعصرية التي وصفت بها ومن أهم المحصرة .

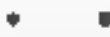
وكانت ولاية حلب - مع مائل بولايات السورنة - قد فصلت بمصر زهاء سبع سنوات . ثم ثارت على حكم إبراهيم بن محمد سنة ١٨٤٠ فأعيدت إلى الدولة العثمانية على رعد الإصلاح وتنظيم الإدارة على أساس

جديد ، وكان لشروع في الإصلاح وتنظيم الإدارة حقيقة وافعة ، قد  
 قيم سلطان محمود الثاني ( بين سنتي ١٨٠٨ و ١٨٣٩ ) لاضطرار الدولة  
 أولا إلى إصلاح جيشه و اضطراره بعد ذلك إلى تسوية مشكلات  
 الفاتحة بين رعاياه المتخلص في المجلس والدين واللغة ، من الهراثم  
 المتوالية أقنع أولياء الأمر في «المصطنعية» بالحاجة الملحة إلى تنظيم  
 جيش جديد يستخدم فيه الأسلحة الحديثة وأساليب التعبئة في الدول  
 الأوروبية ، ثم تبين لهم أن تعديل أنظمة المصنوع وباشريع وإداره  
 مساووين ضرورة لا يحصى عنها لسياسة رعايهم ومدفعية الدول  
 الأوروبية التي كانت تتعمل بفساد الحكم في الدول التركية للتدخل في  
 شؤونها بسعوى الإنسانية تدرج ودموى لامتبارات لأخنية تارة أخرى .  
 فتحدث ناس بوعود لإصلاح وأعماله ومشروعاته وحقوق الرعية  
 وواجبات الرعايا قبل مولد الكواكي كأنهم يتخشون بين بيوتهم المدين  
 بين السدد والمطل .

ولعل مترك حقيقة حل وعدم أن وعود الإصلاح كانت ضرورة  
 لازمة ولم تكن إجماعاً ولا إحصاءاً من أولياء الأمور بما يظروا إلى بقاع  
 العالم العربي فلم يجد فيه بقعة واحدة رصيت في هي فيه وم بهض أهلها  
 للسلطة بوع من الإصلاح على نحو من الأنحاء . فتعرك لسودان  
 وتحركت الصحراء ، وتحركت قائل بالعرب في ثورتها ، بل في ثورتها  
 التي تكررت ولا تزال تتكرر إلى اليوم . وحديق على العالم العربي  
 من أطرافه انتزاعة قول القائلين في الغرب إنه مارد خرج من نفقهم  
 ولئن يعود إليه .

وكان في الحق مardاً هائلاً يتمثل في الأمر ليخرج من قفمه لمظلم  
 محصور . ولكنه لم يكن مardاً معصوب العينين كما صور أولئك  
 رصود للمقحم أو كما أرجوا أن يتصوروه ، إذ كان للمرد رمامه  
 في أيدي هذه من القادة السهميين ومن رواد الصفافة الأولين . وكان فيه

الهداية بين المسلمين وغير المسلمين طابع الشرق لحالده منذ لأزل .  
طابع العقيدة والإيمان .



لن نغادر الأوربييه حكم التاريخ حكمه بعد النزاع الدائم بين السلطة  
الدينية والسلطة السياسية ، هوهم العلماء في مطلع الثقافة الحديثة أن  
هذه الثقافة حرب بين العلم والدين . فلما انتقلت ثقافة الغرب إلى  
الشرق انتقدوا المسيحية في مدارس من رجال دينه ، وتلقاها المسلم  
مستجيباً بشدة « العودة إلى الدين » على كل لسان يسمع منه الوعظ  
ويصل منه الإرشاد . فقد وقر في الأخلاق أن المسلمين هجروا دينهم  
فحاق بهم بلاء الذل والضياع . وتفق الجامدون منهم على القديم  
وامتثلوا إلى الجديد على هذا النداء . فلا خلاف بينهم إلا على الرجوع  
إلى الدين كيف يكون .

وربما قال الجامدون قبل المجددين إن لأوربيين عملوا بأدب الإسلام  
فأعدوا العدة ونظروا إلى حكمة الله في حقيقته فتقدموا وتأخر  
المسلمون

وتعدت الشقة بين المحافظين أنصار النص واخرف وبين المجددين  
أنصار المعنى والقياس فاختلوا على « أكثر » ، ولكنهم مع اختلافهم هل  
لم يتفقوا على شيء كما تنموا على حرب الخرافة وعقائد الجاهل والشعوذة  
التي خيلت على الدين ، فحاربها المخفون المحرقون لأنهم بدع مستعارة من  
مقاييد الوثنية . وحاربها المجددون لأنها مخدعات وأباصيل ينقص العلم  
الحديث وتراجعت إهدم لسخافات والأباطيل إلى أغبياء الجاهل  
لا تجريء على التقدم إلى صفوف عقيدة المسموعة بين أنصار القديم  
ولا أنصار الجديد .

كانت هذه انطاعة السائرة إحدى حركات القوميق في صدر الدعوة  
إلى الإصلاح . وتلك ولا ريب إحدى العوامل القوية التي جعلت دعوة

الإصلاح مهمة روحية ثقافية وجعلت رجلاً كاسياً جمال أسير الأفغان دعياً موحاً حثاً حل في قطر من أقصر الشرق بين المسلمين العرب والفرس والهنود ، وبين العرب المسلمين وغير المسلمين ، وماهيك يوم من الأفغان تصد له عصبة مصر ، ويحورهم تسميده ، أدب إسحق ، وهو مسيحي الكاثوليكي من الأرمن النساطريين

تلك سمة العصر انسى قدما نكلام عنه جنين السؤالين

كيف شأ الكواكي في هذا عصر ؟ كيف لم ينشأ الكواكي في هذا عصر ؟ ولماذا لم ينشأ ؟ لأن لا يتردد مؤرخ بينهما أسما أحق بالتوجيه وأيهما أدعى إلى الاستعراب .

في الكواكي في أسرته ومبته ورمسه لوفى الشرط الذي تنطليه رسالته منتظرة في هذا الشرق بين سلال الهريية - رجل مرشح للرئاسة الروحية - مضطهد في سره ودماره ، ينشأ في بد عرق عريق يرتبط بعلاقات لشرق والمغرب وتلتقي لديه تيارات الحوادث عمانية - ويفتح عليه على العالم وهو يصحح أو يمسح على قضية حق أو فسوف بحرية - من وضعه فقد سماه ، وكاد يصمد إليه ولا يتخطاه إلى سواه .

## أسيرة المكواكي

كتب كواكي من توبه بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه  
وقد روى صاحب «إعلام سلاء» ربيع حب الشبه «بأسيرة»  
فلا عن كتاب «الفتح» الموضح من «الفتح» في المباح «الذي ألقاه»  
سيرة حسن من «أبي» أبي معروف «كواكي» فيه أن سيد أسير هو

«بن أبي معروف بن أحمد بن محمد بن حسن بن أحمد بن محمد»  
بن أحمد بن يحيى بن محمد بن أبي يحيى المعروف «المكواكي» قدس سره  
بن شيخ المشايخ والدرهين صدر الدين موسى الأردبيلي قدس سره .  
ابن الشيخ الريفي المملوك الصمداني صفى الدين «محقق الأردبيلي» بن الشيخ  
الزاهد أمين الدين ابن الشيخ المالك جبريل بن الشيخ المقتدى صالح بن  
الشيخ قطب الدين أبي بكر بن الشيخ صلاح الدين رشيد بن الشيخ  
المرشد الزاهد محمد الحافظ بن الشيخ نصير الدين التماسك عوف بن خواص ابن  
سلطان شيخ فرور شاه البخاري بن مهدي بن بدر الدين حسن بن  
أبي القاسم محمد بن ثابت بن حسين بن أحمد بن الأمير داود بن علي ابن  
الإمام موسى الثاني ابن الإمام إبراهيم الرضوي ابن الإمام موسى الكاظم  
ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام علي بن الحسين ابن الإمام الحسين  
السلطان الشهيد ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

قال صاحب «إعلام سلاء» بعد اسم صدر الدين موسى الأردبيلي  
«الذي رأته في عمود نسبه» المحفوظ في بيت الموقر بعد محمد أبي يحيى  
ابن صدر الدين «برهيم» الأردبيلي المنتقل إلى حب اس سلطان حوجه  
علاء لدين علي بن صدر الدين موسى الصفوي «فيكون قد سقط»  
هناك شخصان ابن السلطان صفى الدين أمين الدين جبريل ، وهناك  
قد جعلهم شخصين . وناقى النسب كما هنا ، والله أعلم .

وروى في هذا المصدر نسبة لوادته المتصل ببنى . هره هره فيه  
أول وائلة المرجوم إلى السعود الشريفة عفيفة بنت هره الدين بن  
إبراهيم بن بهاء الدين بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن شمس الدين  
شمس بن علي بن أبي الحسن بن الحسين شمس الدين بن زهرة أبي الخواسن  
بن الحسن بن زهرة أبي الخواسن بن علي أبي الخواسن بن محمد بن إبراهيم  
بن محمد بن أحمد بن الحسين بن إسحاق المؤمن بن الصادق بن محمد بن أحمد  
ابن علي زين العابدين بن الإمام السبط الشهيد الحسين ...

ويرى في عمود النسب لأبيه اسم صفي الدين لأرحم . ومن  
درية إسماعيل الصموي المدي حس علي عرش فارس وأسس بها الأسرة  
الصموية . ومن « علي صباه بوش » المدي رحل في بلاد الروم وتزوج  
سيدة من حب ثم قفل إلى بلاده ، وحلف بها أحدا لأسرة الكواكبي

ومن أعرق عماء حب من أسرة الكواكبي الشيخ « محمد بن حسن بن  
أحمد الكواكبي » المدي تولى منصب الإفتاء بها . وكان مولده بها سنة  
ثماني عشرة وألف هجرية ( ١٦٠٩ م ) وتوفي بها سنة ست وتسعين  
وألف هجرية ( ١٦٨٥ م ) وله مؤلفات في علوم الفقه والأصول  
والكلام ، اسطق ، منها . شرح بقوائد السنية ، و نظم الوافية ، ونظم  
لشار ، وإرشاد الطالب . وشرح كتاب لمواقف ، وحاشية على تفسير  
البيضاوي ، ورسالة في اسطق ، وتعليقات على تفسير سورة الأنعام

وأول من اشتهر من الأسرة باسم الكواكبي فيما يقال محمد  
أبو يحيى بن صدر الدين قال صاحب كتاب « نهر الذهب » في كلامه  
عن جامع أبي يحيى الكواكبي :

« يظهر أنه جامع قديم وأنه اشتهر باسمه المحلي نسبة إلى محمد بن  
إبراهيم بن يحيى الكواكبي ، لأبيه وسماه وأقام فيه أذكاءه ، فلما  
مات دفن فيه ، وبني عليه « سيدي بن عبد الله الحركمي » قبلة من  
ماله وهو جامع فسيح له قبة متوسطة تقام فيه الصلوات والجمعة ،

وهو مدرسة فوق بابها ، وفي عريضة قبة أبي يحيى المذكور ، مكتوب في  
جدار الكنائس فوق رأس الضريح :

ريوس عجيباً أب بيسر أمرو  
رلى نولاه الإله باطرسه  
وما دت حتى صدر قطناً مقرأ  
ما يد إلى هذا المقام بطيبه  
حصرة هذا القبط حاوي المناقب  
روى فأولاه صوف الموابه  
وبل من العيران أعلى المراتب  
كم مثلي الخاوي بدر الكواكب

وفي صحن المسجد في جهته الغربية عدة قبور لبني الكواكي ، وفي  
شرقيه حوص بحري إليه المد من قبة حلب . ولها مسجده وقف قديم  
هو الآن ثلاثة حرايت في سويقة على . وله محضات من وقى حسن  
أفندي ابن أحمد أفندي الكواكي ووالده المذكور ، ويوجد على يسرة  
الساكن للجامع حجرة لتعليم الأطفال وفي جانبها صهريج سبيل بحري  
إليه الماء من قناة حلب عمره مائة سنة بنت حسن أفندي المذكور ،  
وهي أم حسن بك ابن مصطفى بك . وفي جانب المسجد من شرقيه  
مدرسة تعرف بمدرسة الكواكي يصعد إليها بدرجات وهي عبارة بيرة  
مستوية على قبلة وحجرتين (١) .

وقال إن السيد أبا يحيى عرف باسم الكواكي لأنه كان يعمل في  
الحداثة ويتقن صنع المسابير التي تسمى الكواكب لاستدانتها وعبادتها ،  
فسمي إليها ثم سلك سلك التصوفة فنهى بها شأنه وتوأمده عليه  
التلاميذ وأبريدوا ومهم أمراء ورؤساء . كثير يفسدون إليه وهو في  
دسكه أو في ذكره ، فلا يحسرون على التحدث إليه حتى بأذن لهم .  
حيثه وودعه . سميت طريقة آل الكواكي بالطريقة الأدبيلية نسبة  
إلى أدبيل من أذربيجان ، وهي البسطة التي يسمي إليها صدر الدين وصفي  
الدين المتقدمات

ومن أعلام الأسرة ابن نرحمهم في كتاب « إعلام النبلاء » الشيخ

(١) من التعبدات تدعى حلب لورده الشيخ باغري



« حسن الهندى بن أحمد الهلى الكواكبى المتوفى سنة ١٢١٩ هجرية » ترجمه العلامة عبد الرزاق البيطار الدمشقى فى تاريخه « حلية البشر » فقال فى وصفه : « هو كعبة الأدباء ونخبة العلماء من اشتهر بالمصانف وشهد له السادة الأفاضل تولى منصب الإفتاء فى مدينة حلب ، وكان حسن الأخلاق كريم الطاع . وكان العلامة المرادى مفتى دمشق . كان فى حلب - يتردد عليه كثيراً وامتدحه بعدة قصائد .. وترجمه الشيخ عبد الله اعطى فى رسالته المهمة انقضية لدرجة تمامها فى ترجمته .. ومن آثاره كتب سماه - المنافع والفوائد فى غرر المصانف والمناجى - جمع فيه نظم ولده وما مدح به من شعراء عصره وما مدح به أسلافه ، وعقد لكل واحد من هؤلاء الشعراء ترجمة . »

ومن هؤلاء الأعلام الشيخ أحمد الكواكبى الذى ولد سنة خمس وأربعين ومائتين وألف وتوفى سنة ثمانمائة وألف ، وجاء فى ترجمته انه « تلقى العلوم النقية والعقلية على أشياخ عصره فى اشبهاء وأخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ بكرى السامى وكان شديد المصحبة للشيخ أبى بكر الخلالى ينفى معظم أوقات فراغه معه فى الزاوية هلالية ، وأقرأ فى المدرسة الكواكبى والمدرسة الشريفة وفى الجامع الأموى منذ وجهت إليه وجهة التدريس فيه سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، واشتهر بعلم الفرائض وتحرير الصكوك ، واشتغل بأمانة الفتوى ، وعين عضواً فى مجسدى إدارة الولاية وكان ربيعة أمر اللزج نحيف الجسم أسود العينين ، وخطه شيب فى أواخر عمره ، وكان رقيق الحاشية ظريف المحاضرة لا يحمل معه جليسه حسن الخلق جداً . وربما أوقفه ذو سؤال زمناً غير يسير وهو يستمع له ولا يصرف حتى يكون السائل هو المصروف ، وكان وقوراً مهيباً قنوعاً متصلياً فى دينه وقادراً عند الحق ، وكان يعرف للعبة الزكية إذ كان يندر من يعرفها بحسب خصوصاً من العلماء ، وحدث مرة أن اجتمعت ثيابة القصماء فى حلب وتأخر قدوم نائب فأراد ابوالى إذ ذاك ألا تتراكم الأشغال فى المحكمة الشرعية .

فكلف رئيس الكتاب أن يتولى القصص وكأله فقال له : لا يجوز توكيل  
الوالى ولا ينه قصص من يوكله . فقال له : أن وكن حليفة لى أن  
أوكل . فأبى عليه القوم ، فتكرر منه وأخرجته من عنده ، ثم إنه  
أراد أن يذهب مقصده فكلف المترجم إلى لوكاله . فأجابه إلى ذلك فسر  
حداً وكتب له فى حال منشوراً بتوكيله براه فى القصص ، فذهب إلى  
الحكمة الشرعية . وصار الناس يتطعمون إلى صبيحة كلف بوفق بين  
أمر الوالى والمحكم لشرعى فكان يسدح للحصين ويصط مقلد ،  
ثم يشير عبيداً ، أصبح ويربهم أحسن وجد الاتفاق ولا يزال يعطهما  
بالوعظ الحسنة حتى يتصلحا . يكتب بينهما صكاً . وقد حصل  
المطلوب من القصص . وإذا أبى عليه خصم عن المصلحة فاب هذا .  
أحكامه بيني وبينكم . يحكمه . يكتب صكاً بتحكيمهما ثم يحكم بينهما .  
ويؤخر تسليم صك الحكم إلى حضور النائب ثم لما حضر النائب انتهى  
كل . ثم من قبل المترجم وختم صكوكه وقد كتبت شهرة عطيحة  
بها انصديق . فكان من بعد ذلك وفقاً على الإصلاح بين الناس . ورب  
حضر مجلساً للإصلاح بين خصمين . فوجد الهدى دعاه عيسى بن  
وكان لا يألو جهداً فى نصحه ودرجائه إلى طريق الحق . وبعد كان  
موفقاً فى ذلك لأنه إنما كان يقصد وجه الله تعالى ، وكتب متولياً على  
جامع جده أن يحى وحظياً وإماماً فيه <sup>١١</sup> .

والشيخ أحمد الكواكى هنا هو والد المترجم ومعلمه ومريسه  
ومورثه جملة صفاته وسجاياه ، كما يرى من تفصيل سيرته فى مواضعها  
وقد نشأ المترجم فى هذه الجبل من أجيال الأسرة وهى على عهد  
منازل الشرف والعلم . أبوه أهل للقصص فى التخصومات فصله ومهته  
وأهل للتدريس فى أكبر المعاهد بعينه وصلاحه وأخوه الأصغر  
« مسعود أفدى » يشترك فى مع هذه العلم عموماً بالجمع العلمى فى  
دمشق . ويشترك فى معاهد الحكم عضواً بمحكمة الفيز . وفى مجلس

(١) إعلام السلا بتاريخ حلب الشهيرة ، تأليف محمد رجب بن محمود بن هاشم الطبخ الحلبي .

للبصيرة عصبوا بمجلس الميعوثي ، ويقول عنه رئيس المجمع العلمي  
الأستاذ محمد كرد علي في الجزء الثاني من مؤلفاته بعد كلامه عن أحسن  
عيد الرحمن صاحب الرحمة : « وكان هذا يقول في : إن شقيقه  
معهوداً أعلم منه » وقد كتب لي الخط لأوفي أن زعمته سين في  
المجمع العلمي العربي ، رأيت فيها ورصفاً مثال العلماء النعمانيين الذين  
ذكرت كتب الرجال تراجمهم لمعيه وكانوا ممن اعتز بهم العلم  
وارتقى الفكر الإسلامي . كانت روح هذين الحيديين الشقيقين والمحبين  
انكسرت في سقوت علي عيب من عيوب الآدميين جل لصنيع .  
ومسحت أسهما تقدم جيهته في كل معنى الفصل والس ، وما أسما في  
أن يعيشا كأكثر أمة الدنيا غيش التوكل والخير يأكلون  
ويشربون ويتسلون ويجمعون من حنن - يا ما وصل إلى أيديهم .  
علم الظاهر يتم من صدق كيمتة تقبيل في الأحوال ، ولا يحتاج إلى  
من يدل عليه . . »

ولس تصح إلى أكثر من تقدم في روء برواة والمعاصرون من  
أسرة الكواكبي للتعريف بأوائل نسبه ومساب أحواله وشتمه في  
صحة الكتب وأقوال المحدثين أخبار متشرة من قبل ، أجسده  
تعبه أحياناً في مختلف أوقات أو تزيد خلسه ، ليس يزيد في مغزاه  
ولكنما تجرى ما يسير منه لأن أحواله متسنة تتم بعضها بعضاً ،  
ويقتطم من تاريخ متصل لمع ب ما عرف من الأسرة في موطنها  
في مولده وأيام حياته ، وكتبها - سرء منها لحر الروي والخبر الذي  
تدور عنه علم المدينة وآثارها ينتهي إلى نتيجة واضحة تكفي  
للتعريف بخبره وماضيه الذي كان له الأثر الواضح في حياته وعمله ،  
فإن هذه المعزم والأخبار تعلم أن « عبد الرحمن » قد وعى دنياه وهو  
ينلي من دكرينات قومه قدوة النبل والمعرفة ، وتتم به الذكرى  
بعائرة إلى عهود الأسلاف الذين نهضوا برعامة أسين وزعامة الدولة ،  
وتحزوا للعرش من صوامع العدة وساجد النريس والطابية . وقد  
( الكواكبي )

بتأني المؤرخ حين يبحث عن الأسايد القضاطة فيما يتجره عامة المؤرخين ورواة الأخبار عن القديم ، ولكنه لا حاجة به إلى الأداة فيما وعته ذاكرة الأحياء من أبناء الأسرة وألبنوا به إيمانهم بما كتب لهم من سابقة وما ينبغي لهم من حيلة حاضرة . ولا خلاف على هذه لذكريات بين أبناء الأسرة وأبناء المدينة التي تأصل فيها الأبناء بعد الإباء والأجداد على مدى أجيالها المذكورة . ولا خلاف بين الرواة المعاصرين في عرافة الأسرة الكواكبية في مدينة حلب وإقليمها من حوض ، وإنما يختلفون فيمن تسمى باسمها لأول مرة من أجداد عبد الرحمن لأبيه أو لأمه . ويقول إن أبا يحيى أحد أجداده . كتب يسمى « البهرى » نسبة إلى « البيرة » على القرب من حلب . ويقول صديقه ومؤرخه الأستاذ كامل العزى في مجلة الحديث الحلبية « إنه عرف بالكواكبي لاتصال أحد أسلافه بآل الكوكبي من جهة النساء المعروودات بعراقة النسب » ولا يذكر على أية حال ذو نسب كوكبي بالمسنة غير آل عبد الرحمن في حياته وحياة أبيه وجده

وقد سجلت في حياة عبد الرحمن حادث ذو بال في تاريخ الأسرة وتاريخه بل تاريخ دعوته وتفكيره وتسلت نقابة الأشراف من بيت الكواكبي إلى بيت « الصياد » شيخ الطريقة الرفاعية وشيخ مشايخ الطرق بعد ذلك في أحد الدولة التركية ولكنهم لم تنقل للشك في نسب الأسرة الكواكبية أو لتبوت نسب الأسرة الأخرى أسرة محمد ابن حسن ودي المشهور بأبي الهادي الصيادي وقد انتقلت برضى مولاة عن رعم هذه الأسرة وقرروهم من الأسرة الكوكبية ، وهذا هو المثل القريب الذي ليس فيه عبد الرحمن عيوب يحكم في الدولة وأدرك به مواطن الحاجة إلى الإصلاح ، قبل أن يدركه بالبحث والاطلاع .

وأحسب أن صاحب قبل ختتم هذا الفصل إلى كفة موجزه عن الأسرة الصموية التي يجمعها عمود النسب بالأسرة الكوكبية ، كما نجدها

الطريقة « الأرمنية » منذ أيام مؤسسها صفي الدين المشهور فيلاد  
لاتصل بين المسلمين وقد يقسم لت «عبر بالخاص» . ويقسم لت ميراث  
الشعور عند القدم بين الأسرة والدولة العثمانية . أر دولة المصطفى سليم  
على التخصيص

من الثابت أن إنشاء إسماعيل الحموي قد بدأ كـ بقول مؤرخو  
الإفريج من « أسرة دروش » ينتمون إلى بلدة أربيل بأذربيجان  
ويروى عنهم العمود القصب إلى الإمام علي والسيدة الزهراء .

ومن الثابت أن لأسرة الحموية من عهد مؤسسها كانت على قيادة  
بعض الجماعات السرية وعلى أمانة لتجميع الخدوع والتحالف والعصبة .

ومن الثابت أن المسلك من دعاء الطريقة الأرمينية كانوا يرددون  
دمشق وبيت المقدس ويزيدون على هذا في الطريق بين شمال فارس  
وبلاد الروم .

ويقول المؤرخ اللبناني أندسي - شهاب الدين مكاريموس - في كتابه  
« عن وضعه عن تاريخ إيران يلحق الشاه ناصر الدين : « لها عائلة علماء  
أعلام وأئمة كرام وأصحاب تقوى يوفرونهم الأمان »

ثم يروي قصة قيام الدولة بهم فيقول بعد الإشارة إلى شيخ صفي  
الدين : « وكان هذا الشيخ الفاضل أعوان بصدعون بأمره » وهو  
لا يأمر بعير الطيب والإحسان . وخلفه به صدر الدين وعقده من  
الأولاد مشهور مثل خواجه علي وحسين وحيدر ، ممن اشتهروا بالفضل  
والعلم والتقوى . وكان صدر الدين في أيام تيمور . وقد أهد له مقراً  
في مدينة أربيل من أعمال أذربيجان مثل أبيه ، فزاره يوماً هناك اسفل  
العظم وسأله أن «مر» ي تريد أقصه في الحال . قال : أريد منك  
أن تصدق سبيل الأسرى الذين أتت بهم من بلاد الأتراك . فعلى تيمور  
بإمراته : وحفظ الأتراك بطلبه الخليل بصدر الدين وعائلته وكانوا بعد ذلك  
هم سب في توليتها بذلك كما سيحيى . وليس في التاريخ ذكر أمر يدل

على الإقرار بالجميل بعد مرور الأجيال مثل هذا الأمر وأشهر من يذكر عن شواجه على أنه حج إلى القدس الشريف ومات فيه وخلفه حفيده جليل ، واجتمع لديه خلق كثير حتى شاع الأثر كثره ، وحارب أحد رؤسائهم فاضطره إلى الفرار إلى ديار بكر حيث قاضه حاكمها الأمير حسن بالإكرام وزوجه أخته ، وقصد حينئذ بعد ذلك بلاد شروان فحاربه هناكها وقتله ، فخطبه السلطان حيدر ، وكان أمير أورو ، حسن حفيده فتقرى بتصرفه على أعداء وصر بالتسريح حاكماً على كل بلاد إيران في مدة السلطان أبي سعيد الذي مر ذكره ومات فدفن في أردبيل . فخطبه ابنه السلطان على ولكن الفلاقل كثرت في أيامه وظلت عائلة صفى الدين في خطر دائم . يوماً تصعد إلى الأرج و يوماً تنحط إلى الخصيص ، حتى قام السلطان إسماعيل ابن السلطان على ، وملك البلاد وهو في أعصار المورخين أول ملوك الدولة الصفوية ، ولا يعرف عن شه إسماعيل في أيام صغره غير قليل . إلا أنه ستم قيادة الأعوان في أربعة عشرة من عمره فحارب عدو عائلته حاكم شروان وقتله . ثم هجم عليه الأتراك والتركمان من ناحية الأناضول فغرق منهم وانتصر على كل أعائنه ، فودى به سلطاناً على مملكة إيران وما يتبعها وهو في الخامسة عشرة من عمره وكان إسماعيل صوفياً مثل أفراد عائلته وليس به أعداء وأعوان كثير فرأى بعد الإمام أن يدخل مذهب الشيعة لاثني عشر الحنبلية إلى إيران ويجعلها مذهب السلطة . فعص ذلك وفاز عمره ولم يلق معارضة تذكر لأن الإيرانيين عدو هذا الانعص استقلالاً لهم وفصلوا مذهب الثقلين بتكريم الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ومن ذلك اليوم صارت بلاد إيران مقر الشيعة بين المسلمين ، وصفت حرمان ونجح وغيرها من الولايات أمر السلطان إسماعيل في بدء حكمه على عاداتها فحارب كلها وانتصر عليهم وتمدعوه هذا السلطان امتداد عظيم حتى ردى عدواً كبيراً لم يقدر عليه هو أصوات سبع العثماني لشير ، قصد بلاد إيران بخيله ورجله ليبلغ عندها مائة وخمسين ألفاً ومائتي مدفع .

وفلك بعثة دون مخايرات دولية لدى الحكومات ، وقام إسماعيل لمحاوخته بكل ما لديه من القوة وهو يومئذ بهمنان يطلب الصيد والقنص ودافع عن بلاده في جندران خمسة عشر ألف نفس مأخوذين . فتقهقر أمامه وكسر شر كسرة مع أنه أظهر في الحرب بسالة غريبة . وكان الأتراك يحاربون بالمدمع والإيرانيون بالسلاح القديم غير أن مصار الأتراك لم يؤثر في دوران لأنهم صطروا إلى الرجوع في أثناء لشدة الرد وقلة الزاد . ولكن إسماعيل ظل حزيناً من بعد تلك الكسرة إلى آخر أيامه . ويروى أنه لم يصحك من بعد ذلك يوم ولم يترك لبس لسود أصماً . وبما مات السلطان سليم تقدم إسماعيل على بلاد الأتراك بالأخذ بالشار فأخضع بلاد الجركس وهي يومئذ تابعة للأتراك . وعدد عنها فخرج على أردبيل لينزور قبور أجداده فقصى بحسه هناك ودفن فيها مأسوفاً عليه .

• • •

تري هل يرى في تاريخ هذه الشعة من أردبيل ما نأى أن تلحق به تبة الأئمة من تاريخ الشعة الكواكية ؟ إن تاريخ الأسلاف ليسبق في الزمن كالمقدمة التي تنتظر البقية من أعمال الخفاء والأبناء . وها أخرى عبد الرحمن أن يكون البقية المطبوعة لمقدمة صادر الذين ! وما أخرى لأمرتين أن يتسأل فيهما روح واحد من النجدة والروع والهمة والصلابة والسمامة تشاء عرس عرسه من بعد حتى لا يلب على نوع الموضع والمبشرين .

شيء واحد يستوقف المؤرخ من اختلاف الشعة الصفوية والشعة الكواكية ، ولكيه اختلاف متوقع بين كل ما فيه من العروة بالنظر وقوعه على الوجه الذي صار إليه .

والشعة الصفوية أحدث بمذهب شيعة الإمامية حين قام منها لأئمة على عرش إيران ، والشعة الكواكية تدعى بمذهب أبي حنيفة من أئمة سنة لأئمة المذهب الذي غلب على المدينة حيث دجوا وتعلموا وأنجوا

الآنسة المتعلمين و لأمة ذمة المعصنين ، وربما كان من أتباع حيدر الدين  
أحذاف كثيرون كما يعلم من كثرة مريديه من الترك المنتقلين إلى إيران  
في أسير السلطان بيحور .

وقد كان اتساع الكواكبي للمذهب الحنفى لا يجمعه أن يسعوا إلى  
وحدة المذاهب وقيمة الإمامة على غير قواعد الخلافة و لدولة العثمانية .  
فربما كان هذا التصرف بين الشعبين على المنهج المتتظر من كليهما قرينة  
باطنية تمحو ما يتراءى للنظر من ظواهر الاختلاف .

• • •



## النشأة

### الطفل أبو الرجل .

صدق من قالها في عده من نفعها ومعاضد ، فإن الرجل الكبير يتولد من اطفال الصغير فهو وليه وسيله على هذا التعبير

وقد كان عبد الرحمن الصغير أباً مبكراً للرحالة المجاهد والمفكر الحكيم صاحب « أم القرى » و « طلائع الاستعداد » ورائد النهضة العربية في طليعة الرواد

من أقسى ما يصاب به نطف في شأته أن يفقد الأم ويعزب عن الأب وعن الجيرة التي فتح عنها عينيه من دنياه

وقد أصيب الطفل عبد الرحمن بهذه نحن جميعاً . فصب لها عوده اللد وهو دون العشرة . وتم على معدن الجهاد في طبيعته قبل أوان الجهاد في عصوان شبابه ، من هذا أفضل المآرج من لهذا شأ ذلك نكسر ابنى أقدم على محاصر الهجرة ورحلة الصويبة على غير أمل في العودة إلى الوطن وعلى غير أمل من لعيلة وضل وانشقة . وهو رب أسرة وأبو آتاء وفرع أرومة تأصبت في مهنتها - ابنى قطع نفسه عنه - منة ثبات سمين .

تقول الأوراق الرسمية إن صاحب الترجمة ولد حوالي سنة ١٨٤٨م ( ١٢٦٥ هجرية ) ويقول ابنه الدكتور أسعد به ولد بعد ذلك بسنوات . وصوب تصحيح تاريخ المولد لسحول الانتحابات ، ولما كان مولده ثابت من سجلات الأسرة في سنة ١٨٥٤م ( ١٢٧١ هجرية ) ، وتوفيت وبنه سنة ( ١٢٧٢ هجرية ) وهو في نحو السادسة من عمره . أو هو قد ناهز العشرة إذا أخذنا بالروية الرسمية .

والمرجح أنه كان أصغر من ستة في لأور في الرسمية عند وفاة  
والده . قبل أنه قد أودعه حصصه بخانسه لسيدة صهيبة بأطركية فأقدم  
بها إلى سنة ١٣٨٢ هجرية ثم عاد إلى حلب لدخول المدرسة الكرواكية .  
ولو كان قد بلغ العاشرة عند وفاة أمه لاستعفى عن الحصانة في هذه  
السنة وصح بدخول المدرسة الكرواكية بحسب تأجيل ولو صح تاريخ  
الأوراق الرسمية لكان نحو السابعة عشرة حين عاد من أطركية لدخول  
المدرسة وهي من متأخرة من يتسوى بالدراسة في مثل أمرته

وقد تعلم الكرواكي في أمكنة أطركية أو مدرسة حيث كل ما  
يتلقاه التلميذ فيهما من العلوم مدرسية ، وتعلم اللغتين التركية ولفسية  
ومبادئ الرياضيات على الأسانيد المخصوصين من أصدقاء أبيه وتلقى  
من أبيه صغرة العلوم الدينية والأدبية التي كان يتسبب ، وهو كما تقدم  
من معلمي الجامع الأموي وأصحاب المذاهب الشرعية

قال صاحب المذكرة : إن لفقيده درس قوانين الدولة درساً دقيقاً  
وكان محيطاً بما يكاد يكون حافظاً له . وله انتقاد عظيم بلال على دقة  
نظرة في علم الحقوق والشرائع . ولهذا عينته الحكومة في لجنة المسحاح  
الخامس ، ولا أعلم أنه برز في فن أو علم مخصوص عاقب فيه الأقران ،  
ولكنه تلقى ما تلقاه من كل من يفهم وعمل بحيث إذا أراد الاشتغال  
عملاً أو تأليفاً أو تعليمياً ينسني له أن يتسبب به لا ينتظر من الدين  
صرفوا فيه أعمارهم . على أن الفقيه لم يتعلم شيئاً من علوم النسخ  
والأحلاق والسياسة وطبائع المدن والفلسفة في مدرسة ، وإنما عملته في  
هذه العلوم ، طالعه منها من المؤلفات والخرائد التركية والعربية .

ولا يخفى أن طلاب العلوم الصلبة لا يحتاج في عصر الكرواكي  
أو في العصر الحاضر إلى غير اللغة العربية للدراسة فيها غريب ما يفشده من  
توسيع المتخصصين أو المستعملين . أما المعارف العصرية فقد يستلزم  
لندش « العصرية » مما كان يتيسر منها للفقراء الذي يجهل اللغات  
الأوربية قبل عدة سنة ، ولكنه في الحقيقة محمول و لا يستلزم به في

زمانه ، إذ كان في وسع المعارف بالعربية أو التركية أن يطبع مئات من الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية في العلوم والآداب ، وأن يضاعف معها المجلات ويصحف التي تكتب في هذه العلوم والآداب أو تنقلها عن ثقافت وأعلامها ، وهذا يحدث الزهاوى عن نفسه فقد لم يتزود من المعرفة المصرية براه غير مطالعته في المجلات العربية والتركية وبعض الكتب المترجمة التي وصلت إلى يديه في بعض الأحيان ، ولا ريب أنه عليه أصبح في مقدمه الباحثين المعاصرين إلى أوائل القرن العشرين .

فقد لا عن مكانه الشعرية وعنه في مجالس الشووب

ولا نخل أن كركي هاته يرجع هام بعينه أن يطلع عليه في موضوعات حشيه وتفكيره ، بل لا نخل أنه ضيع فرصة يستفيد منها عمماً أو حراً ، فعلاً من روار حليم الدين مجتمعوا . يتشبه في مركزه ووحده من قومه ، وكانت حليم لا تزال في عهد نشأته مثابة الزثرين وحقيمين من فضلاء الشرق والعرب . وبينهم وكلاء الشركات التي كانت تتأسس في المدينة على طريق التجارة ختانية الشرقية قبل افتتاح قناة السويس . وبينهم فئة من لايطالين في ذات ثورتهم القومية . وفئة من لهم سبب في إبدان ثورتهم الدستورية ، وكثير منهم مثقفون يتمنون إلى حرب من الأحزاب الثورية في بلادهم ويفلوا . معهم آراء غلاسقهم ورمائهم وأبساء طوائفهم وخدماتهم . ومن هؤلاء ولا شك عرف الكواكبي ما عرف عن « ألفيري » صاحب كتاب الاستبداد الذي أشار إليه في كتابه . ولا يبعد أن يكون قد اعلم معه في محفل من محافل « الكرموري » التي ألقها ثوار يصدوا لنافسة الممرد الإنجليز أو العربيين وجمعوا برحون فيها بمصلا الأهم لأخرى لنشر مبادئهم وتأييد دعوتهم إلى الحرية ، وهي قريب يومئذ من دعوة النثر العربي إلى الوحدة القومية والاستقلال عن السيادة التركية

واصدر من سيرة الكواكبي ومن كتابته معاً أنه أصاب من الثقافة القديمة والحديثة ما يرشح لأعماله في المدينة وورسته في العالم العربي

والعلم الإسلامى على عمومه ، فلم يوكل إليه عمل من أعمال الحكومة أو المطالب الاجتماعية إلا أثبت فيها كفاية الإدارة الحسنة والنشاط المنجز والتصرف المبتكر الذى يبرح به على الأثر من جمود الوثيرة المشهور فى عرف المرييين بالروتين . وعصى به إلى نتيجة المقصود التى عطلها التقليد وحوله الإهمال .

عن وهو يناهز الثانية والعشرين فى صحيفة « فرات » العربية التركية التى أنشأها مؤرخ التركى « كبير أحمد جودت باشا قل عمل الكواكى فيها بنحو عشر سوت . ثم أنشأ فى حزب أول صحيفة عربية باسم « الشهب » مع زميله هاشم العطار . ثم أنشأ صحيفة « الاعتدل » بعد تعطيل الشهب لصراحها فى نقد الإدارة وتتميمها . إلى وسواس السلطان عبد الحميد . فأصاب « أصداب الشهب » بعد قليل .

وينس الكواكى من أدبه رسالته لإصلاح المكتبة لمحجود عليها فى لصحافة مهددة بالتعطيل . فصل العمل فى وظائف حكومة ونولى فى هذه الوظائف فحروبا متنوعة من أعمال الإدارة والتقصاء والتعميم . ومنها وظائف فى اتصال بالتجارة كادارة حصر «بحان» وخدمة البيع والأفراح التى تستد ارض الحكومة ، ووثاسة غرفة التجارة ، وغيرها من الوظائف التى دى مع إحصاءه وسكنى فى هذا المقام بدالاتها جميعا على كفاية الرجل لكل عمل تولاه . وعنى تلك القدرة المهمة التى أعانتة على حبس كل وظيفة عهدت إليه من موات الوثيرة أو « روتين » وشاحه فى تنطيفها وتطهيره بعد بعض «عصار» عنها ، واستصلاحه بالإنتاح والتعمير .

من استكرته فى مجلس اللدى أنه جعل للسادة طرقا غير « حريق » لإس والمواب ، وأقام فى صوحنى المسببة سلاسل من الحديد للفصل بين معالم الطرق وتيسير السير للمشاة .

ومها أنه رد أحجور العمال سدا للزئج «رشوة» والاحتلاس .

وأنه رتب أوقات العمل وموضوعاته وخصص الأماكن لكل منها معاً للرحم والانتظار ، وأنه تمنع المهربين للشدب وأجرى عليهم الرواتب والوظائف التي تنفيهم عن التهرب ، وأنه خصص أعمال الخرفة التجارية بالإحصاءات وعظمها على مثال العرف التجارية في عواصم حضارة

ومن مشروعاته إعداد العملة لإزالة المديونية وهو حينذاك كهرماء . وساء مرفأً للسويدية وجلب الماء إلى حلب من نهر الساجور ، وتحصيف المستنقعات التي كانت فيما مضى مبعأً للأوثانة وحميات المورية

وقد أقام في حلب معظم أيامه لم يمدرفها قبل سفره منها إلى القاهرة عبر مرات فيه في رحلات قصيرة ، (حدها أجد فيها انرحبه إلى الأمانة حيث علم أبو هدى بمقدمه فعله إلى داره وحاول اجتذابه إلى حظيرة ومثبه تحت نظره ، فاطله الكواكبي ، لوعده حتى يمكن من العودة إلى مله بغير اختيار» .

وفي خلال هذه الأعمال والوظائف جرت صيه راحته وصر حته عدوة أعداء العمل الزره واقول الصريح ، فتنس في ماله وورقه . وتحمل لولة معادير نوهية لصدارة أرصه وإتلاف مرفقه ، وأقاموه برصد التهم والوشايت كلما شئت فتة أو وقعت حرة لصقت به العرية العاحنة وصنعت خموسية صبيها في تنقيق الأسويد وتنقيق الشهود وتدبير المحاكمات ، ويتقضى بوقت في شغل شاغل من هذه التهم ومن جهوده ، جهود أنصاره في دفع شره ورد كيدها ، ومنها ما يبلغ به الخطر مبلغ لا ينام بالحيانة وعقوبة الإعدام ..

بلى حجر على تقصص الإيطالي فيهم الكواكبي لأن «تقصص أصيب في حوار داره ويطلق الرصاص على الوالي فيهم الكواكبي لأن الكواكبي شتكاه وأبغى عليه ، ويشتجر جماعة من أبناء المحاييات فيهم الكواكبي لأنه حس العلاقة محوب بين أسماء الجاليات .

ومن مل هند الراحل الكريم ، الوالي الذي أتته تدبير الجريمة

لأغنيائه جميل باشا . وقع في خصومة عنيفة بينه وبين القنصل  
الإنجليزي في المدينة ، فلجأ القنصل إلى إخمود دولته في المساعدة ، وبأمر  
العمامة إلى التحقيق على غير عادتها ، فقدم مدوب الوزارة المحقق إلى  
حلب وهو يعلم بزمه الكواكبي وصدقه ويعلم أنه مطالب على الحقيقة  
من شهادته وتوجيهاته . فأتت مرزومة الرجل أن يؤيد وكيله للدولة  
أجنبية تغم التأييد في البلدة من وراء فورده في هذه الخصومة وانتصروا  
على أكبر ولانها ، وشرح موقف مدوب التحقيق من هذه الوجهة .  
فسم الوالي من عاقبة هذه الأزمة . ولم يسم الكواكبي من أده

وأحضر ما إخموده به أن يتواطأ مع دولة أجنبية لتسلم سلاح  
إليها . وهي جريمة عقوبتها الموت إذا ثبتت ، وثبتت بإشبهه لقوية  
عند ساسة العصر إذا تعلرت للأسناد القاطعة ، وأوشكت قرائن الترييف  
والتهديد أن تطبق على المتهم البريء لولا أنه نجح في نقل المحاكمة من قضاء  
حلب إلى قضاء بيروت . فكأنه استعد المحاكمة عن مقر التزييف  
والتهديد سديلا إلى جلاء أشبه رثوت البراءة ، بعد أن صاع الرجاء  
فيها لو كاد .

في سيرة هذا البريء المظلوم مادة دراسة للمظالم والأباطيل ، وإن  
أعداده في بلدة أعوان همته وعزمه ، فلولا هم لجر أن يسكن إلى مقام  
يستطاع ويختص . ولكنهم أحسوا عبر عذائين ولا مشكورين فجاوزوا  
به حد الاحتيا .

## ثقافة الكواكبي

كان الكواكبي « بن عصره » .

وحده الإنسان من ثقافة أن يعيش في عصره لا يتحلف عن شأوه  
في علمه ولا في عمله . فليس للثقافة من حسنة ألزم لها من هذه الحسنة  
في مجال المعيشة ولا في مجال الدعوة إلى التجديد والإصلاح

فالرجعي الجامد يعيش في الأيام الماضية .

والطوفي<sup>١</sup> السحالم يعيش في الأيام المقبلة

ولكن الرجل المثقف يؤدي للثقافة كل حقها إذا استفاد من معارف  
زمنه ولم يتقيد ببقايا الزمن السابق وحقايله ، فحصل كما ينبغي أن يعمل  
كل من تحرر من قيود التقليد التي يربط بها العقل وهو لا يفقه معناها .  
والذين أصابو من ثقافة القرن التاسع عشر كما أصاب الكواكبي كثيرون  
يعادون بالمشات ، ولكن الذين لهم من ثقافتهم فصل كفضله آحاد يصلون  
على أصابع اليدين

إن فصل المثقف في عصر الكواكبي أنهم تعلموا كما فرضت عليهم  
سنة أن يتعلموا ، وسبقوا إلى العلم مع الزمن كله ، غير محيرين .

أما فصل الكواكبي في ثقافته فهو أكبر من فصل واحد :

إنه فصل المثقف الذي تلقى ثقافته من ثمره اجتهاده ومشيبته .

وبه فصل المثقف الذي بلغ بوسيلته ما لم يبلغه أبداه بأضعاف تلك  
وسيلة .

ولأن فصل المثقف الذي تنفع بثقافته ويصعق قومه ، وجعله  
عملا مستحجا ، ولم يتركها كما تلقاها أمكأوا وكلمات .

تلقى الكواكبي في مكاتب واما درسه ، يلقاه الأطباء الصغار ،  
هكل ما يتعمده انتهى الشيء أو راحل له صرح هو كل ما تنقده في بيته  
واستعمده من مصادراته .

وتعلم من اللغات : عبرية ، لغتين شرقيتين هما تركية والفارسية ،  
وكلتاها تأخذ الثقافة العصرية منقولة من اللغات لأوربية . متفرقة بين  
أشتات من الكتب ولصحات . فتح بهذه الوسيلة في مضيه ندى غناه  
شأوا لم يسبقه فيه رواد الثقافة من مثله في لغاتها ، وبين أيدي الأساتذة  
واعلمين من أديها

وعرف ما عرفه بهذه الوسيلة فعمل به كل ما في الوسع أن يعمل  
في زمنه ، وأبقى أسسه من بعده صالحاً للبناء عليه

وذلك فصل السمع وفصل الزعامة ، لا يستوعبه أن يصل إليه عمل  
رجل من المثقفين ، حتى يصل بل رجل من المثقفين الساعين العلمين  
ولا يطلب من المثقف العمل أن يحيط بمعارف عصره ويتنصى كل  
جديد من بدائع جيله . فليس ذلك محسور ولا هو الا لزم للمثقف العمل ،  
ونما يعنيه أن يعرف ما يعنيه في عمله . وأن عمله على لشح الذي جددته  
معارف الزمن ولم يكن محسوراً من يتكون تقدم على قدمه

وكان الكواكبي يعمل في إصلاح المجتمع الإسلامي وإصلاح  
الحكومة المستبدة ، فلم يدع باباً من أبواب المعرفة التي تعينه على قصده  
لم يأخذ منه ما يكفيه ويعينه . ولم يرهق في أصل من أصول هذه المعرفة  
إلا ما كان من قبيل المنصور في تحقيق غايته القريبة وجهوده المرجوة

فليس من رده هذه المنعوه أن يملأ ذهنه أو يملأ صحائفه ببطولات  
أو لموسوعات في شروح لتواريخ وتفاصيل المذاهب الاجتماعية والسياسية  
الحكومات والدول بين قديم منها وحديث .

وليس من زادها أن يسبح في عام من فتاوى الفقهاء وفروص المفسرين  
وعشق التأويل والتخريج



بل يكفيه من الزاد - ويرى على الكفة - أن يعلم من أحكام دينه ما يميز به الصحيح وغير الصحيح ويهتدى به إلى القويم من رأى والاعتقاد وغير القويم . ويكفيه أن يعلم من أحوال عصره علاقات الدول والأوطان ، ومجمل الوقائع الثالثة من دعوات الحرية والإصلاح - وذلك هو الزاد الذى يعلم المظهر على كتيبه أنه كان موقوراً لديه

« من صفحات « أم القرى » و « مباحث الاستبصار » يعلم أنه كان على اطلاع حسن في مسائل الدين ، وكان على دراية عميقة بتاريخ الأمم الإسلامية ، وكان من المؤمنين أولاً فأولاً بالفتوح العلمية في العصر الحديث يفهم منها ما لم يكن يفهمه غير القليلين في أوربة بمسما يومئذ من آراء الرواد السابقين فيها . فكان ملماً بذهب النشوء والارتقاء ، ملماً بآراء العلماء في أحوال المادة وحركات الأضلاك وتشكوين الكرة الأرضية والمنظومة الشمسية . وكان في مشاغل الاجتماع والسياسة يعلم بأخبار ثورة الفرنسية وأخبار الرعماء والعاملين على استقلال الشعوب وتوحيد الأقوام ، ويتشبع قواعد الحكم ومواضع التمرقة بينها ، وينظر في الأخلاق والمعادن التي تقرر ، والموارد بين أمة منها وأمة وبين حكومة منها وحكومة ، ويخص مشاغل الحمية بعديته الأولى عبر معرض عن جوانب الأدبية ، فلا يخفى عليه اسم الشاعر الذى أسدع الأندلس أو الخطيب الذى أثار المخوة . ولكنه يقع من ذلك ما لخط الذى سلكه عنده « شيلر » في سلك حسن والكهيت ، فلا يثابه كتاب نفسه الاطلاع على أناشيد المرشدين وخطب الخطباء . بل لا فطنه كان يترجها في لغة من اللغات التي يحسنها لو أنه سأل عن ، ولكنه لم يعلم بالأسماء إلا لعممه بالدهشات التي أبرزتها في صفحات روايته ومؤرخيه .

• • •

ولا اختلاف في مذهب الثقافة الدينية . على اعتقاد الكوركي ، بين التمسيد والحفاظ على تراث أسلاف الصالح في صدر الإسلام لأن نهضة المسلمين إنما تقوم على تطهير الديانة الإسلامية من مبادئ

محرقة ، وحوشى الدخلى اصبحت ٣ فى عضود الجمود والتقيد .  
والحفاظة فى عقوده مرادفة للتجديد . من أقوم سله . واعتبر انكواكي  
من صميم الحفاظ فى الذين لا يخرجهم من زمرة المحدثين المتشددين فى  
طلب الإصلاح . و هو على قدر غنوه فى الحفاظة على تراث مسلم  
يقدر فى دعوة الأتباع إلى التحرر والتمديد .

وقد كان يشهد في المحافظة أيضاً فتخرج من تعبير اصادات و  
غير جرج ، كه بري في مقدمه الذي أحيى به على السلطان محمود لأنه  
اقتبس عن الإفرنج كسوتهم وألزم رجان دوايه روح شقيقه نابينا حتى  
عمب أو كادد ، ولم يشأ لأثرات أن يعبروا من الأكرام وعداية للدين  
لأنها مائة من أو عود أو عود له .

وإن هذا الاستناد لإفراط في المحافظة يحميه زمرة محافظين العجلة  
في حرصهم على سمع السلف وريه في الأساس به جوهر العقيدة :  
وقد رأينا من معاصريه أنه روع إليه إفراطاً منه في سخط على  
سلطان الدولة وأنه اليهم في التفرقة بين الشرق والغرب والتسليم  
والحديث ، ولكنه - كما يرى من محافظته على ربه في وصيه وبعد  
المجرة منه إلى الحسد والدير المصرية - لم يكن يعمل غير ما يقول ، ولم  
يكن يفتقد بكلامه ما يترخص فيه نفسه ، فإنه بقي على سنة أسلافه  
قبل عهد السلطان محمود - قسم ينادي ربه إلا أنيس جماعة وعتاب

وربما جنح في أواخر أيامه إلى آراء بعض المتصوفة في تفسير الكائنات الغيبية بالمعاني الفانية ورموز الروحية . وأبعد ما ذهب إليه من ذلك قوله في فصله في بيان الاستعداد : « إن يشاء الله يصلح به إلى ما عوى حوته » . لأنك إن كان هناك « الأتكة » غير حواضر تلعب . وإن شاء تأس بارذئ حتى يكون أحط من الشياطين . إن كان هناك شياطين غير وسوس للنفس بالشر . » .

ورد هذا في الطحمة التي ظهرت بعد وفاته ولم يرد في طحمة من الطحيمات التي أصدرها في حياته وعلمه من هذا تدخل بعد اطلاعه

على التفسيرات الحديثة عن أطراف من كلام الصوفية المتأخرين .  
ولا يخالفه قد غفل في مطالعته الدينية عن تفسير كتفسير السيد محمد الأكرسي  
المتوفى سنة ١٢٧٠ هجرية . فإنه يشير إلى أمثال هذه الحوطة كما فعل  
بعد تفسير الآية من زال آدم وحواء إذ كلاً من الشجرة فقال : « ويبدأ  
هما يتفرجان في الجنة إذ رعهما حوروس تحلى هما على سدور الجنة ولدت  
حواء منه . وتبعها آدم فوسوس لهما من وراء الجناح . ومشهور حكاية  
الحية يشير أولهما عند سددتهما الصوفية إلى توسل من قبل الشهوة  
جارج الجنة . وثانيهما إلى توسل بالعصب وتصور جذور الجنة عندهم  
إشارته إلى أن العصب أقرب إلى الأفق الروحي والحر لقلبي من  
الشهوة وقيل إن توسل إلى توسل إليه إذ ذلك مثل توسل اليوم في  
زالال من شيء الله تعالى وإصالة . ولا يعرف من ذلك إلا الحواش  
والحواطر التي تغشى إلى « تعصى » ولا حزم عند كثير من دعوى  
الشیطان في قلب بل لا يعقوبه . والله قالوا : إن خير ( إن الشيطان  
يجري من اس آدم مجرى المم ) محمول على الكسبية عن مريد صلواته  
عليهم وبقياهم له . وكأنني بك تحت هذا القول . وقد أبو منصور  
يعلن لنا المبحث عن كيسة ذلك ولا يقطع لقول بلا دليل . . .

وقد تقدم من كان يقول - كاجبني وأبي بكر الرادي - إن أثر  
الشیطان في دم الإنسان كآثر النفس فيه . فليس للشیطان وجود جسدی  
في دحل البنية الإنسانية ، وليس له من سلطان عليه غير « يتجلب به  
على هواه » .

إن الكم اكی قد لاحت له هذه للمحة المبررة في عما بها تلك  
لحوط الصوفية ولا تلك الحواطر الطيبة التي أوردتها موارد الأسماء .  
ولم يقطع بالمول - على حد عبارة السيد الأكرسي - بغير دليل

ولا تزال مهمة الثقافة لعصرية أغلب السمات على هذا الفعل استير ،  
 تجديده المحافظة على سنة السلف أحياناً ، بل تجلبه كثيراً ، ولكنها لا تجلبه  
 إلى جانبها إلا من جانب التجديد ، لأن التجديد عندنا هو نحو الفضول  
 عن العقيدة الإسلامية والعودة بها إلى بساطة الحرية والاستقامة والاجتهاد  
 الفضول عن العقيدة الإسلامية والعودة بها إلى بساطة الحرية والاستقامة  
 هو الاجتهاد في الفهم المنزه عن قيود التقليد .

## أسلوب الكواكبي

كانت أساليب الكتابة في أواخر القرن الثامن عشر لا تتعدى أساليب الرسائل و « الخطابات » أو « الإفادات » من عامة وخاصة وكانت الرسائل العامة وهي رسائل ثانوين معرفة في قرائنها تنفيذية تتكرر على صورة واحدة في مناسباتها فلا يستريح الكاتب أن يصرف في ألفاظها ولا في ترتيب عباراتها وصيغة أساليبها وختامها . أو « ديبجها ومقيلها » اصطلاحهم « بنى حائطوا عليه » قرن كامل بعد هذه القفرة .

وجرى الاصطلاح على المعردات المتفرقة كما جرى على الجنس والعبارات في تلك الرسائل الرسمية ، فأصبحت لغة «سواوين» لغة خاصة « بين المصليحة والدارجة تتخللها الكلمات التركبية أو الكلمات «مركبة» بأوزانها التركبية ، وتتميز بملاحظة قواعد الإعراب وصلا عن قواعد الصرف على أصولها العربية

وم تكن هناك « كتابة » بمعناها المهورم في أعراس الأدب والجماعة . فلم يكن في القرن الثامن عشر من يكتب يعبر عن فكرة أدبية أو عن حالة نفسية ، أو يصور للفناني معنى مبتكراً من عبده أو معنى مفهوم من معنى العلم والمعرفة ، وإنما الكاتب يومئذ من كان يستظهر أنماطاً من الصيغ يتساوون جميع الكتاب على صورة واحدة في مسامهم . ولا يستطيعون إعادتها بمعناها على صورة أخرى غير التي حنطوها وتداولوها .

أما كتابة « التعبير » فقد تعطلت في عصور الجمود والتقييد ولم يشعر أحد بالحاجة إليها للتأليف والتصنيف أو للإفشاء عما عبده من

الخواطر والآراء . إذ لم يكن ثمة من يؤلف ويصنف ولم تكن ثمة خواطر وآراء يتبادر الكتاب والقراء . بل لم يكن ثمة من يقرأ القديم ويرغب في نسخه وحفظه ، وفي تعلمه وتعليمه . لقلة العداية بالعلم في عصر عصره المتوتر التي يكتفون به بالحفظ والنقل والحاكاة .

وظلت الكتابة للتعبير معطلة في أوائل القرن التاسع عشر الذي انتهت فيه بهلاد عربية توقيها من أهم الخصارة ، فاحتجت إلى تنعيم منها كما احتجت إلى إحياء علومها وآدابها التي بقيت طر بقية من الفجر بها والحين إليها . فاستعنت الكتابة العربية الحديثة مع حركة الترجمة وحركة الطاعة . وولدت « أساليب الكتابة » في مولدها الجديد يوم احتاج المترجم إلى فهم شيء مفصل مشروح بين يديه يؤدبه من عنده بعرة عربية تطابقه في معناه ، ويوم شعر بالضرورة التي نهضته إلى مراجعة كتب اسلف ليتعمق فيها أساليب الأداء ويستوعب منها محصول من لهرقات ولتراكيب

وبأت الكتابة العربية - مع ابتداء حركة الترجمة والطباعة - صعبة متعثرة تشبه كتابة الصواوين وتفتتت إليها . ثم منطت من عجزها قليلا فبه حتى استقامت على قدمي في شيء من الاستقلال والشفقة . وبعضى جيل من المترجمين والكتاب أو جيلان قل أن تظهر في عالم الكتابة العربية أقلام يتميز بينها قلم من قلم ، وأسلوب من أسلوب ، ويشدث القراء عن أسلوب هذا الكاتب وأسلوب ذاك

وترعت الأساليب على حسب القراءات والمطالعات ، والذين أكثر من قراءة كتب الأدب أو قراءة كتب التفسير والأحداث النبوية ظهرت في أسلوبهم حذلة اللفظ وسلامة التركيب وقلت فيه أخطاء البحر وانصره ومآخذ اللغة على لإجمال . والذين أكثر من قراءة كتب تناديج والدرر والاحتمالية ومرجع الختوق والأحكام ظهرت في أسلوبهم سلاسة التعبير ، سهولة الأداء ودقة المعنى على مسج أصوب دعلوم أو أصواب الأحكام . ولكم م يسموا من بعض الخطائق

قواعد الإعراب والتعريف على قيسية أمثالهم ونظرائهم بين الكتاب  
الأقدمين .

وربما انضج الفسوق بين الأسويين نسمية الأعلام من كتاب كل  
مدرسة متبعة في ثقافتنا العربية ، فهما مدرستان : أدبية ينضوي إليها  
أمثال ابن المقفع والسيدي والجرجاني وابن عسيرة وابن زيدون ، وعلمية  
ينضوي إليها أمثال الفراء وابن خلدون وابن جبير وابن بطوطة وسائر  
كتاب التواريخ ورحلات ومباحث الأخلاق والاجتماع

• • •

ونكوا كى قد بدأ حياته بصحفية بعد منتصف القرن التاسع  
عشر . وأخذ يشاور في فن الكتابة حلال تلك الفترة بتوسطة بين  
ابتداء حركة الترجمة والطبعة ونشر المطبوعات من كتب المؤلف .  
وهو استلهم من شروح الفصاحة والاستئلال بالتعريف

ولا أدن من أصله طبعه من أسلوب كذبه ، من أسلوبه يتم على  
مطالعة ، ومطالعة تتم على ترجمة حتى نجه إليها بغيره واستعد له  
نريته ، وهي وجهة العمل على محاربة الاستبداد وسعيه في الحرية

وكان كوكبي كثير المطالعة فيما يبعده في هذا المطب ويستحدث  
حظاه إلى هذه الترجمة . فليل لمطالعه في سببه من كتب العلم الذي  
سميه علم اللغة أو علم التوكل بشرط الإعداد للعمل عن شئ ذي حيلة ،  
وفي هذا يشير في كتابه « طبائع الاستبداد » حيث يقول « إن الاستبداد  
لا يخشى علوم اللغة . تلك العلوم التي بعضها يقوم للسان وأكثرها  
فراء وهسيين . هم لا يخاف علم اللغة إذ لم يكن ور - اللسان حكمة  
حماس تعقل الألوية أو سحر بين نحل عقيد الجيوش » .

ثم يقول « كذلك لا يخاف العقيد من علوم الديانة المتعلقة بعباد  
المختصة بما بين الإنسان وربه . لا اعتقاده أنها لا تروم عبادة ولا تبريل  
عشاة ، وإنما يتلهم بها المتهوسون » .

إلى أن يقول . « نرتد مرئس مستبة من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العنسية وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع والسياسة المدنية والتاريخ المقصود والخطابة الأدبية . وحو ذلك من العلوم التي يكبر النفوس وتوسع العقول وتعرف الإنسان ما هي حقوقه »

ومن المؤيدين لدين ذكرهم في مقدمة طبائع الاستبداد أوئيك دين أمرو في علم السياسة ممنوجاً بالأخلاق كاللارري والطورسي والفرازي والعلائي ، وهي طريقة الفرس . وممنوجاً بالأدب كالمعري والمستقى ، وهي طريقة العرب . وممنوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة . وهي طريقة المغاربة .

• • •

ولا يرى من مطالعته في الشعر أنه كذب يحف إلى قراءه شيء من استلوم على غير ذلك المثلان الذي كان يستشهد به في بعض فصول « أم الفري » أو « طبائع الاستبداد » كقول المتنبي :

ولما الناسُ بأسوكِ وما كُفيلحُ عُربُ ملوكها تعجم

أو قوله الذي استشهد به على صفة المستبد :

إذا ماءً فعل المرءُ ساءتُ طنونه وصنق ما يعتده من ذواتهم

أو قوله في وصف الجاهلاء المسخرين :

يأرض ما استهيت رأيت فيها فليس يفسوها إلا كرام

أو قول أبي العلاء :

إذا لم تقم بالمرء فيست حكومته محض على تغييرها فخره

ولم يذكر من شعر الجاهلية غير كلام لعمر بن أبي سلمة ينمى فيه على الجاهليين عادات الكذبة وإيماهم بالخرافة :

أرباً وحباً أم ألف رباً أدين بد تفتت لأمر

تركمت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل أرحل الخبير



فهو قد رىء تقوده فطرتة إلى مطالعته ، وكانت تسرى إلى نفسه  
أساليب الموضوعات التي يظالمها ولا تصحح لأسلوب غيرها ، وبخاصة  
حين يجري بها القلم في الصحف السيرة حيث كتب الكواكي مقالاته  
لأولى ومقلاته الأخيرة التي اجتمع بها كتب طبائع الاستبداد ، وما  
كتبه أثناء ذلك في عصر الصحف كأم القرى - فأنتم هو فصول  
متتابعة تصلح للنشر في الصحف السورية على النحو الذي ظهرت به  
في الكتاب .

وكان الكواكي رحالة موضوعاً على السياحة في الآفاق ولم يكن  
مصاراه أنه رحالة على صفحات الأوراق ، وقد طالع كتب المؤرخين  
والرحالين قبل أن يخرج من بلده للطواف في الأرض والكتابة للتاريخ .  
وباشر الرحلة في صفحات الكتب قبل أن يباشرها على متن الإبل  
واسفن في الصحاري وليحار . من قرأ من خلدون وابن جرير وابن  
بطوطة ثم قرأ مقالات الكواكي خيل إليه أنهم قد يعنو من مراقبتهم  
في رحلة من رحلات العصور يكتبون ويسجلون ما شهدهم وكتبوه  
لأبناء العصر الحديث

وقد اتسم أسلوبه بسمة الأسلوب الذي تكتب به لتواريخ  
ورحلات ، وسلست عبارته في سبق مرسل واضح يقرر الواقع ويتبع  
المشاهدة ويتوسط في وصف ما يره بالفكر كما يتوسط في وصف ما  
يراه بالعيان .

ولا يخفى أن هؤلاء الكتاب كما قدمنا - قد تخصصوا لتسجيل  
مشاهدات الاجتماعية والتاريخية ولم يتخصصوا بالمباحث لثة والبيان  
ليس من الغريب أن تسرب إلى أقلامهم أحقاد الفلاسفة في زمانهم .  
وأن يتردد في عباراتهم بعض الصور التي يحرر منه اللعويون وكتاب  
الأدب ، في مدرسة ابن تقيع والديبع والملاحظ وعند الحميد وشأن  
الكواكي في ذلك غريب من شأن ابن خلدون وابن جرير ، بل من

شأن الغزالي وإن لم يسكنه وساير أصحاب الأقلام التي لم تتفرع للأدب واللغة وشعبتها دقة التعبير عن دقة الإعراب .

نقرأ له - مثلاً - في تعريف الاستعداد : إن ماظر في أحوال الأمم يرى أن الأمراء يعيشون متلاصقون متركون . أما العشار والاعمى الحرمة ... فيعيشون متفرقون » .

أو نقرأ مثل قوله : « لأرواح الحمقاء » . « ولا يخرج قط » . « وقوايس لكافه الشوب » . « وحياة السائم شرعوي » . « الأعلام » (١) . « وعلى هذا أنفق يوصح كتاباً للمهيات » . « وإن هؤلاء لأئمة الأقدمين لا يقدروا أن يطلعوا على ما لا يقدر المتأخرون أن يطلعوا عليه » . « ولا تتحقق في الإنسان إلا في من واحد فقط يتولع فيه قيتقه » (٢) . إلى أشبه هذه المآخذ التي كانت تفتيح في صحفة عصره ولم يكن يسم من كتب الأدب والبيان ، وقد عبر بكوكبي من أقل زلائه ونظره تعرضاً لهذه المآخذ وانتهى .

• • •

ولا نفسي أن « الكواكبي » كد يتحري فيما يكتب ويعمل شيئاً واحداً لا يتحول عنه تفكره ولا يقوه - وهو محاربة الاستبداد .

ولا نفسي أن معيار القول اسطح عنده أن يخشاه المستبد ولا يطمئن إليه ، والمستبد لا يخشى علوم اللغة التي أكثرها هزل وهدايات ولكنه يخشى من الكلام حماسة الخطابة ، لأنها تعفد الألوية وتحمل عقدة الحيوش كما قال

ولهذا كان هذا الأسلوب الخطابي من الأساليب شبيهة في الكوكبي في كتابه ، وكان يحيل إليه أحياناً أنه ينبغي دلفظ جاساً ليحكم إلى إفساء كلام الخطيب عن المسير من يصغون إليه بالاجتماع ، أو يصغون إليه دلفظ بهل الاجتماع ،

وكأنما نرى بهم بذلك وعو يحتم كلامه على الاستعداد والترقي بهم  
الكلمات .

« على ذكر لازم لإرشادي لأحلى أن أصور أرق والاعطاط في  
نفس وكيف ينبغي للإنسان تعادل أن يعنى إيقاظ قومه وكيف يرشدهم  
في أهم خلقهم يعبر ما هم عليه من الضيق على الله والسهولة ، فيذكرهم  
ويحرك قلوبهم ويأجدهم ويتأثرهم ، سحر الخطبات الآتية »  
ثم يقول :

« يا قوم ! يدرسى والله شعور كل موقفي هذا في جميع حتى فأحييه  
بالسلام . أم أ ، أحاطت أهل الصور فأحيهم بالرحمة

« يا هؤلاء ! لستم بأحياء عاقلين ولا أموات مستريحين بل أنتم  
بين بين في برزخ يسمى للسهوة ، ويصح تشبيه بالدموم .

« يا رباد ! في أرى أشباح أناس يشبهون ذوي الحياة وهم في الحقيقة  
موتى لا يشعرون ، بل هم موتى لأنهم لا يشعرون .

« يا قوم ! هداكم الله إلى متى هذا الشقاء المديد والناس في نعم  
مقيم ، وحر كريم ، أفلا تنظرون ؟ »

وفي مثل هذا المقام يلتفت بعد ذلك بصفتها ليخاطب الشرق  
والغرب بهذا الخطاب : « يا شرق والشرق . أولاً : قالوا :

« عاك الله يا شرق ! ماذا أصبحت فأحل نظامك ، والهدى ذلك  
الهدى ، ما غير وضعك ولا يدل شرعه عليك » .

« عاك الله يا شرق ! ماذا عراك ، سكن منك الحراك ، أم تزل  
أرضك واسعة خصبة ومعدتك وافية غنية . وحيراتك ردياً متدسلاً ،  
وعمرتك قائماً مواجداً وشوكاً على ما ربيتهم - أقرب للحير من  
الشر ، أليس عندهم العلم يسمى عند غيرهم ضعفاً في القلب وعناهم  
الحياة يسمى بالحياة ، وعندهم الكرم يسمى بالإتلاف ، وعندهم الشاعة

المسماة بالعجر . وعدم المسماة بالبلاهة . وعندهم المسماة بالملامة المسماة بالذن ؟ .. نعم ما هم بالساكنين من النظم ولكن فيما بينهم . ولا من الخداع ولكن لا يفتخرون به . ولا من الإصرار ولكن مع الخوف من الله .

ثم ينعت من حضاب الشرق إلى العرب ليخاطبه على هذا النحو قائلا :  
« وعاك الله يا غرب وحيك وبياك . قد عرقت لأخيك سابق فضله عليك : قويت وكفيت . وأحصلت الوصاية وهديت : وقد أشددت ساعد بعض أولاد أخيك . ههلا يتدب بعض شيوع أحرارك لإمادة النجيب أخيك على هدم ذلك السور . سور الشوم والسرور . ليخرجوا بأخوتهم إلى أرض الحياة : أرض الأنبياء الهداة .

« يا غرب ! لا يحفظ الدين غير الشرق إن دامت حياته تحريته وفقد الدين يهدك بالخراب القريب .. » .

ولم يكن أسلوب المنبر ليسعد في جميع الأحوال لأنه أسلوب لم يخلق له ولم يضع عليه ، ولكنه كتب أحياناً ويحس أنه يشور ثورة الخطيب فيعمد ناره إلى أسلوب التوكيد والتثنية ، ويعمد ناره أخرى إلى أسلوب التصوير وتحريض الحيل ، ولا يحطه التوفيق أحياناً في هذا الأسلوب .

ومن ذلك قوله : « استبد عذر الحق . عمو الحرية . وخلق أبو البشر والحرية أهم » والعوام ضيقة أيدى م : قيام »

أو قوله : « لو كان مستبد طيراً كان حطاشاً يهبطاد هوام العوام في ظلام الجهل ، ولو كان وحشاً لكان أسوأى يتمفد دواجن الخواصر في ظلام الليل .

أو قوله : « لاستبدد لو كان رجلاً يحسب ويتسب لقال أنا الشر ، وأبى العظم : وأبى لإساعة ، وأخى خسر . وأخى المسكنة وعمى الضر ، وخلقى الذن . وأبى العفر ، وبأبى البطالة . وعشيرته

للمحالة ، ووطني خراب . أما ديني وشرقي وحيتي فبالإمال المال ...  
أو كقوليه . « إنه المعترف الذي . قبل في البشر من لا يجوز فيه  
على قبل من المكر . أو على جسد من الخيل . أو على فرس من الفراسة .  
أو على حمار من الحق ، حتى جاء الزمن الأخير فجال فيه إسان العرب  
حولة الفوار الممتطي في التدقيق مراكب البخار » .

ومن توكيداته الخطيئة ما يجري فيه على مثل قوله . « لاستعداد  
أشد وطأة من النوع . أعظم تحريماً من الميل . أدل للتفوس من السؤال .  
داء إذ نزل بالتفوس سمعت أرواحهم هتف أساء بادي نقصه القصة ،  
والأرض تناجي زجها بكشف البلاء » .

ومما ما يجري فيه على التوكيد بالتكرار كقوله عن النعول . « ما  
قيام كل شيء ما عدا الله وحده . به قيم الأجرام السماوية . به قوام كل  
حياة به قيام أساليب . به قيام الأحاسيس والأنواع . به قيام الأمم  
والقبائل . به قيام العائلات . به تعود الأعصاة . نعم ، الاشتراك فيه  
سر تضاعف القوة بدسه ديموس الترييح . به سر لاستمرار على الأعمال  
التي لا تنفيها أعمار الأفراد » .

ومما ما يجري فيه على التوكيد مثل هذا التكرار . « يجددون انهم في  
لدين نظر من لا يحمل بخير الحق الصريح . نظر من لا يضيح النتائج بتشويش  
المقدمات . نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة . نظر من يريه  
وجه ربه لاستمالة الناس إليه » .

وتأتي عند قوله . إن لمصحح ينبغي أن ينظر في الأمور « نظر من يقصد  
إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة . ونظر من يريه وجه ربه لاستمالة الناس  
إليه » . فربما قد أودع هذه الكلمة روح هذا الأسلوب المفصيح المقصده  
اليس وصمود صحبه على هذا المقصد صلب حياته . بل أودعه في الحق روح  
كل أسلوب يؤدي للتدري من وراء الحمل والمفردات فوق ما تؤديه ألفاظه  
ومعانيه ، فلو يحول الكواكب الميسر عاشروه وألغوا الاستماع إليه وقراءته

معاً يقولون : إنهم كانوا يؤمنون بشيء واسطه من حديثك لعانه كما يؤمنون  
به من حديث قلبه . كانوا يؤمنون بكل شيء بإيمان المتكلم بفكرته  
وشعوره ببداهه دعوته وصدق رغبته في إقناع غيره بما هو مفتتح بصروده  
لعامة حومه ، وأسلوبه في الحديث وأسلوبه في إكثابه متقارب متعادلان  
لا يقع بينهما من الاختلاف إلا أن يكون اختلاف لقائل ، المترسل بين الناس  
والقائل المختل على هيئة بينه وبين نفسه ، وعلى هذا الوجه يصح أن يعتد  
أسلوب الكواكبي نمطاً من أنماط الحديث الخطابي أو الخطبة المكتوبة .  
على الطريقة التي تنسب للمتحدث المنوع وإن لم يكن في الحافل من الخطباء  
المطبوعين .

ولا شك أن الكواكبي قد حاول كل وسيلة من وسائل التعبير للإبلاغ  
دعوته « إظهاراً للحقيقة لا إظهاراً للمصداقة » . فإياه قد عالج نظم الشعر  
وأثوت في أم القرى بعض منظوماته في شتايه . فافتتح الكتاب بإحدى  
القصائد يقول منها .

دراك إلك الدين قد رل عزه	وكان عريراً قد ذا عير من
فكان له أهل يومون حقه	ساي وتلفين وحسن تلقن
هلوا لى بدل المعبود له	بإمهله إثم على كل مؤمن
هلوا لى « أم القرى » وتمودو	ولا تقنصو من روح رب مهيم
هأن النى شدته لأسيف قبلكم	هو اليوم لا يحتاج إلا لألس

واختتم الكتاب بقصيدة أخرى يقول منها :

غيرتمو يا حيرى ما بأفكم	عتر لله عكم سمع نعم
الله لا يهدك القرى إذا كمرت	وأملها مصحوب في مشوهم
يا قومنا مصحوا توحيد بارتكم	بدون إشرارك أحياء ولا دم
وتفحوا الشرع من حشو ومترع	رجعى إلى دين أسلاف ذوى همم
هسى وسينكم لا غيرها أبدأ	هاسمو لهصنكم يا خيرة الأئم
سماسة الدين أولى ما نسس به	شنى الخلائق من عرب ومن عجم
فيها الحسة وجهيا حفظ رايكم	نصبراه سوداء تنون لركن والحرم

ولم تقرأ له نضماً غير هاتين القصيدتين . وهم . . كما يرى القارئ -  
من شعر الذي يوصف بأنه شعر العباء ، لعله حاوله زمناً ولم يجد فيه معيته  
من شعر الدعوة وثنية النفوس والأدهان : فعدت هذه وارثتي لدستورته أو فقه  
الأساليب . وهو أسلوب المواجهة الخطائية على منبر الصحافة كما صرح  
في كتابه « طبائع الاستبداد » ، ومثل أسلوب العصور التي يكتب كآثارها  
لحطب القصد ، المتكلمون وتغالبوا على إلقائها واحتوار فيها كما يتعاقب  
المتفاوضون في مؤتمر المباشرة .

إن الكواكبي لغير على أن يجد نفسه حيث يريد . كما يقول  
الغريبيون في تعبيراتهم - لم يبحث طويلاً حتى وجد : ولم يبحث طويلاً  
بعد أن وجد دعوته حتى وجد أسلوبه ، وهو أسلوب الكاتب الذي يواجه  
القرء كما يواجه المستمعين .

## المؤلف

توفر لـ كوي على قصصتين ثنتين لم يشتغل رسماً طويلاً بقضية غيرهم ،  
 وهم ، قضية لبحث في أسباب تأخر الأمم - ولا سيما أمة العالم الإسلامي ،  
 وقصة البحث في عوامل الاستبداد في حكم الدول ، ولا سيما الدول العثمانية  
 وأودع رسده آرائه عن هذه الأمة الإسلامية في كتابه «جمعية أم القرى» .  
 وأودع ردة آرائه عن الحكم والاستبداد في كتابه «طبائع الاستبداد  
 ومضروع الاستعداد» .

فهو قد استوفى رسالة التأليف في كتابتي القصصتين اللتين تجرد لها طوال  
 حياته فلا بقية من هذه الرسالة إلا أن تكون بقية الشرح والتفصيل . . .  
 أما لباب الرسالة وظيفتها فقد شرفاها السكتاني .

ونعلم من أقوال مترجيه أنه قد وضع كتاباً سماه «صحائف  
 قریش» وكتباً آخر سماه «معظمة لله» وتردد ديواناً من الشعر لم تبق منه غير  
 كدشة من لقصائد في الحكمة والنسب وأعرض في المدح والزلزل والمجاء تزيد  
 أبياتاً على ثلاثة آلاف

أما «صحائف قریش» فهو تدبيل لكتابه الأول «أم القرى» تضمن  
 على ما يظهر نسخة من قصود الصحيفة الدورية التي أشار في كتابه إلى  
 تماق الجمعية على إصداره . وقد أوصى المؤلف قرعه أن ينتظروها  
 ويحفظوها : «فإن يظفر بنسخة من هذا السجل فليحرص على إشاعته بين  
 الموحدين» . ويحفظ نسخة منه ليصير إليه ما سيتلو من نشریات الجمعية  
 باسم صحائف قریش التي سيكون لها شأن في شأن الله في النهضة الإسلامية  
 العلمية والأخلاقية .



ولم يطلع أحد من زملائه في القاهرة على هذه « انشريات » ولا ورد  
من أخبار فيها أنه طبع صحيفة منها حيث كان يطبع كتبه ورسائله ، ولكن  
ابنه الدكتور محمد أسعد يقول في مجلة الحديث : إن الكتاب كان معبأ  
للتبضع ، ولكن حال دول ذلك سياحته الطويلة المدكورة في غير هذا المكان ،  
ثم وقوع الوفاة المفجائية ، فصور مع الأوراق لمصدرة وأرسل هديه إلى  
السلطان فلم أعثر له على أثر .

أما كتاب « العظمة لله » فهو كتاب سياسى « كسائر ما حطته يمينه »  
على قول الأستاذ محمد كرد على في الجزء الثانى من مذكراته ، وهو يقول  
قبل ذلك في هذه المذكرات : « لعالم أن السلطان اعتبط عورت السكواكى  
وأراد القضاء على أمكده المفضرة فأرسل مدير معارف بيروت - عبد القادر  
القباني يأخذ أوراقه ويرضى أسرته مبلغ من المال ، فما حل إلا عدداً  
معيناً من كتب السكواكى لمطبوعة أما المخطوطة فأخذها أحد ليلتين  
الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية وبعض كتبه التى بدأ  
وصحها ، ومنها ما قرأ فى مقدمته واسمه : العظمة لله . »

والذى يرجحه ونستدل من عيون الكتاب عليه أنه إضافة إلى  
« طبائع الاستبداد » ينكر فيها على المستبدين تطاولهم إلى مشاركة الله فى  
عظمته وينكر فيها على الخاضعين من رعاياهم خضوعهم لتلك العظمة ، ولا تخله  
قد ذهب فيها شوطاً بعيداً وراء المقدمة التى أطلع عيب صديقه كرد على .  
لأنه لم يطلع على شيء بعدها مع ملازمته إياه إلى يوم وفاته

أما الديوان فى أمثله ما أشربا إليه فى الكلام على أسنونه وهو بعيد  
فيه - نظماً - بعض ما كتبه نثرأ فى « أم القوي » ، وطريقته فيه طريقة  
العلماء فى مضموماتهم التى يحاطبون بها نظراءهم على طلبة المعارف للعرف ،  
ولا تراد لخطاب قراء الشعر عامة ، لأنها « مفهومات » لا تبع قراءها من  
جانب التحيل واستحشاء الشعر .

ويحظر لنا أنه فى مدحجه وهجانه أراد أن يستعين بالنظم على استمالة أمره  
لجزيرة العربية الذين رزهم فى رحلته إلى المشرق ، وأنه وقف هجاءه على

دين استحدثوا بقدح في كتابه ثم استحقوا في صفتهم لشخصية بحدأ غير  
تقد إلهادى والآراء .

وإن صياح هذه الأوراق منشورة ومطوية تخسارة تاريخية  
يأسف لها قراؤه ومترجموه . ولكن تخسارة فيها قدر أهون من قدر كتابنا  
يقال في مقام السلوى لكل مصيبة لا حيلة لها فيها من الحسائر التي يعوض  
على كرامتها . وعوضها أن يسلم الكتبان اللذان أودعهما صفوة التجارب  
والبراهين من بواكير شيء من قبل وفاته ، وبأذن على نشرهما بعد ترداد  
منه في نسخهما إليه . وما كنا لنبسأ من مصير كمصير تلك الأوراق المفقودة  
لو لم يأتوا إلى طبعهما قبل أن ينقضى عليه عام في القامرة ، وقبل أن تشعبه  
عنها رحلته التي لا يملك فيها موعد دهر ولا موعد إياب .

## الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية

فمن أن يلتفت من الكلام على المؤلف إلى الكلام على مؤلفاته يبدأ القول ببيان الموقف الذي أوحى إليه اختيار موضوعه في تلك المؤلفات ، بل أوحى إليه اختيار رسالة في الحياة ، وهو موقفه بين قضية الاستقلال وقضية الجامعة الإسلامية ، وكيف اتفق له الإيمان بالإصلاح الديني ، والإصلاح الوطني في وقت واحد .

لقد فتح عينيه على لمسائل العامة في بيان مشكلة الشرقية بين حوادث جبل بسند وحوادث أرمينية ، وأوى على الكهولة في إيد حركة الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية التي انتعش لسلطان عبد الحميد الثاني

وكلنا الحركتين - الجامعة والخلافة - كثيرة الشعب مترامية الأطراف ، يبلغ من تشعبها أن يرى فيها الرأيد المتناقصين وكلاهما من وحى الإخلاص والغيرة على الوطن وعلى الدين .

فكان من دعاة الإصلاح من يرى أن الجامعة الإسلامية برعامة النولة الإسلامية الكبرى هي القوة التي بقيت لأهم الإسلام في عصر الاصمحلل ، وقد أعوزتها قوة المال والعدد وقوة العلم والصناعة وقوة سياسة ولسيطرة السولية ، فلا أقل من قوة التصامن والائحاد .

وكان في تلك الوجود المتشعبة أن الجامعة الإسلامية برعامة النولة العثمانية تحمل هذه الدولة تبعات المشكل والأزمات التي تتعرض لها شعوب الإسلام في الشرق والغرب ، ويخشى عليها في صمفها واضطراب أحوالها أن تنوء بها ، هي تنع شعوب الإسلام تعجزوها ولا هي تنجو بنفسها من حواقب ذلك العجز .

(الكواحبي)

ومن وجوه هذه القضية المتشعبة أن الإطباب في لقب الخلافة يصرف  
عن صاحب ذلك اللقب قداسة تحميه من نقد التقدين وماحد طلاب الإصلاح  
وتؤخر أعمال الإصلاح التي يرجى منها الخير للدولة العثمانية ، وقد تؤخرها  
على عيول الفسوة في سائر بلاد المسلمين .

ومن وجوهها المتشعبة أنها تخرج الشعوب التي تطلب بحقوقها في حل  
الحكم التركي ، فلا تدري كيف تقدم أو تتحجم بين رعاية حقوقها وبين  
العمل على تفتضيه علاقتها بالخلافة والجامعة الإسلامية .

وليس من وجوهها الضعيفة أن إعلان الجامعة الإسلامية في انعام يعزز  
نشاط حزب المتعصب وأحزاب التبشير بين العربيين ويفوق حجتهم في  
مذهبة الأحزاب السياسية التي تتردى إلى فصل السياسة عن الدين ، بل يقوى  
حجة مستعمرين الذين يتلمسوا المرائع لغزو البلاد الشرقية ويتفقون هذه  
الرياسة لترويج مطاعمهم كلما أعورتهم فرائع السياسة

هذه طائفة من تلك الوجوه المتشعبة التي يتجه عن ألبصار الجامعة ،  
وخصومها ، ومصدر هذا الشعب أن مسألة وحدة تجمع في طيها ثلاث  
مسائل كبرى ، كل مردهم مكظوظ بالحنان والسفائض والعراقل

فهى في الواقع مسألة الدولة العثمانية ومسألة الخلافة ومسألة الجامعة ،  
وكل منها مسائل شتى تنفر في كل وجهة ، ولا يجمع بينها غير العنوان

فمسألة الدولة العثمانية هي مسألة اسفند الذى سمي بحق « محزون سرود »  
وهي المسألة الأرمنية والمسألة الطورانية ، ومسألة الشرع التي يحاكمها الترك  
ولا تتكلم التركية ولا تلتصق في سلاطهم بين عناصر الأجساد .

ومسألة الخلافة هي مسألة الإمامة عند الشيعة وأهل السنة ، ومسألة  
الولاية الشرعية بحق الإرث ولعصية أو بحق اشوكة والساطر القائم ، حيث  
قام من بلاد المسلمين .

ومسألة الجامعة تمنح أبواب الجامعة السياسية والجامعة لروحية وما إليها  
من جامعات التعاهد والإتفاق على شؤون الثقافة والمعاملات

ولا ينتج انقسام المثلث حتى يخرج منه ، الرصد المسائل مستشراً من محبته يضيق به الفضاء . ورنح حطر حيد الحميد إلى فتح القسقم لأنه حيلة من لا حيلة له سواء .

كان يسبح بأذنيه كما يسبح العام كنه اسم دولته الدائمة عند أعدائه المقربصين بها في القارة الأوروبية بلا اختلاف بين قانو منهم وعاجز وبين مستعمر منهم ومستدى في صناعة الاستعمار . يتعلق بتصيب له يفرضه من ذلك الملك المباح .

كان اسم « التركية » أو تركة الرجل المريض حواتا على البلاد العثمانية ، أياً كان ساكنوها من مسلمين أو غير مسلمين ، ومن ترك أو عرب ، ومن - أوروبيين أو آسيويين أو إفريقيين .

كانت « جامعة » في الحق لجميع الطمع من أشد الطامعين ، وليس فيها من وحدة قط في رأى أولئك الطامعين ، أو أهد تماصك إلى حين ، في طريق التفريق والتروال .

وكان لابد له من جامعة باقية لا يزيلها عمل إنسانى ، ولكها قد تنشط بعض إنسان يؤيده الله . وتلك هى جامعة الإسلام ، ولانة خطبة المسلمين

وليس عبد الحميد أول من تلقب بالخلافة من صلاحين أو عثمان ، ولكنه كان أول من وصدها ، أو وضع الحاسم في معترك السياسة العالمية والسياسة الداخلية ، وأول من جعلها مسألة حياة أو موت في تاريخ الدولة التركية .

أما قبل عصر عبد الحميد فقد كان للترك عامة موقف من مسألة الخلافة غير هذا الموقف ، سواء منهم الترك العثمانيون والترك السلجوقيون ، والشعوب التي غلب عليها اسم الترك في الدولة الإسلامية وبيت منهم ، كالديلم والشراكسة .

فقد تمكن رؤساء الترك من ردم الخلافة في عهود كثيرة ولكنهم تسيروها ولم يتقدموا لادعائها ولعدهم لم يجدوا السبيل إلى ادعاء حقها التي

كانت مقصورة على الأمة العربية ، انتهى بها أناس إلى أهل البيت النبوي ويتوسع أناس آخرون فيجعلونها عربية قرشية ، ومن الشعوب الإسلامية غير العربية من كان يحصرها بين أهل البيت في أبناء علي وفاطمة ورضا الله عليهم فلا يجوزها لغير العباس ولا يعترف لهم بحقوقها إلا جتاً للفتنة ورعاية للضرورة والتقبة .

وجرى العرف نحو ثلاثة قرون على وحدة الخلافة في العالم الإسلامي ، من نازع فيها فلم يضرع فيها لأنه أحق ، على دعواه حسب شروط التي يشترطها في مدعاه لصحة الإمامة . فذهب حليمة ويأتي بعده حليمة ، ولا تستقر الخلافة في وقت واحد لأثنين بحجة واحدة . وقد حدث أن الأمويين أقاموا لهم دولة بالأساس فلم يعدوا خلافتهم على الأمم الإسلامية مع خلافة بني العباس ببغداد ، ولم يخطر لعدد الزعماء الماصر أن يتلقب بنفس أمير المؤمنين عام ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ) إلا بعد قيام الدولة العباسية سى مقربة منه في اقرب وعنادة أمرائها لأنفسهم بالخلافة ولم يعارضهم الأمويون يومئذ إلا بتكذيب سريهم إلى لدى عمية اتصاله والسلام . بل تصدى لهم من أمراء الموحيين من ينتسب إلى البيت النبوي ليدفعهم الحق في إمارة المؤمنين

وبعد قيام الدولة العباسية أصبح في العلم الإسلامي ثلاثة عهود . بين منتسب إلى النبي ومنتسب إلى قرشي . وكلهم في شئهم العامة عرب قرشيون .

فما كثر الجدل من أترك في عاصمة الخلافة العباسية ملك قادهم زمام الدولة وفسطرو نفوذهم في قصر الخلافة ، وصار كل من في القصر تعال لهم مطيعاً لأمرهم ، بين حراس وعميلك وجواز وخدم وعيوب وأرصاد ، وافرد الحليمة وحده بمقام الخلافة وليس له بها غير الاسم والخاتم وحطبة الجمعة في المساجد ، ونهيات القادة من أترك فرصة امتداد لأنفسهم بالخلافة في بغداد لولا أنهم عمدوا أنهم يقيمون على غير أساس من الدعوى الشرعية ، وأنهم لا يطعنون إلى ولاء رعاياهم من أترك أنفسهم إذا عتصموه بغير حجة من الشرع والسنن لماثورة . فتسمى أوتنتك القباة بأسم السلاطين

وحموا يتقلدون من منصبهم في الدولة بتمويض من الخليفة صاحب الحق الشرعي في التصيب والعزل والتعويض ، وكان بعضهم يستريح ضرب السكة باسمه كما فعل طغرل بك السجوق وزير القائم بأمر الله العباسي ، لأنه تولى أمور المعاش و « لإدارة » بتمويض من صاحب الصفة لذئبة ، وهي الأمور التي يتولاها صاحب الشوكة و « السلطان » .

وتم بدل على رسوخ لإيمان بشروط الخلافة بين أهم المشرق الإسلامية أن رؤساء الدول التي قامت فيه تجنبوا لقب الخليفة أو أمير المؤمنين واكتفوا بلقب السلطان أو الأمير أو النظام أو الشاه ، ولم يشذ عن هذه القاعدة مذكور إير ، من الشيعة لأنهم يدينون بالإمامة لغير الملك صاحب عرش ، وإنما يكون الملك نائباً عن الإمام محمد ، مستطرد في موعد أو يند في آخر الزمان .

وحلى هذا اتفق العرف في المشرق على حساب لقب الخلافة بغير شروطها وحري العرف على ذلك في مصر بعد زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، فلما ولأه الأمر من الأيوبيين - ومنهم صلاح الدين العظيم - كانوا يتفقون باللقاب المذكور والسياسين ويحفظون شارة الخلافة بوريها من الفاطميين إلى أن بايعوا بها خليفة بعدد على مذهب أهل السنة الذي يدين به فنوأيوب ، وحدثت الخلافة وطبيعة موحدة في العالم الإسلامي بعد زوال الدولتين الفاطمية والأندلسية ، فانفرد بها خليفة بعدد ، وإن لم يبق له منها كما تقدم . غير الخاتم والصوال

ثم قضى « هلاكو » عن آخر بني عباس وقامت في مصر دولة الهالك الشراكسة فلم يقدم أحد منهم على ادعاء الخلافة ، بل عمد أقربهم وأشجعهم الظاهر بينهم إلى الخيلة لإحياء لقب الخلافة وإساده إلى صاحب صفة شرعية من المنسبين إلى بيوتها العريقة ، فجاء برجل مجهول رعم أنه من ذرية بني العباس وأشهد على ذلك شاهدين مجهولين في قصبة عسيرة محاصر كبير القضاة ، ثم بويج هذا الرجل المجهول بالخلافة وتوارثها منه تنوء إلى عهد السلطان سليم العثماني الذي تلقى البيعة من آخرهم بالخلافة وعزوز هذه البيعة بلقب « خدام الحرمين » .

وقد كان سلاطين المماليك في مصر يستفيدون من إقامة « الخليفة العباسي »  
بينهم حجة يقابلون بها خصومهم أصحاب الإمداد والمواليد الإسلامية  
الأجري فيقومون بهم أو يعبرون عليهم موهبين يفتنون من صاحب الصفة  
الشرعية . وكان أقوى أولئك الخصوم سلاطين آل عثمان في بلاد الروم  
وما حاوره على شدة من حدود البلاد المصرية . وهم السلاطين الذين تلقبوا  
بتقرب « لفرقة » وحملوه بسبلا من تقرب الخليفة الذي لا يقدر على عبه . فما  
فتح السلطان سليم مصر وقضى فيها على دولة المماليك لم يكن بعينه على ما يظهر  
من بيعة « الخليفة العباسي » إلا أن يبقى تفويضه لأحد غيره من أمراء  
المسلمين بحجة شرعية نقله ، فانزع منه صفة الخلافة ليسقط كل حجة تجبر  
عصيانه أو إعلان الحرب عليه ، وهو «سلطان المعترف له بمقام « الغزى  
أمير المؤمنين » .

على أنه سواء كان هذا كل قصده من بيعة الخليفة العباسي أو كان له  
مطمع آخر من تأسيس الخلافة العثمانية - لقد وقفت لمسألة عند هذا الحد  
في عهده وعهود خلفائه ، فلم يحاول أن يقر صوابها فريضة جديدة في صفة  
الإمام أو شروط الإمامة ، ولم يتحلى منها مذهباً جديداً لتقرير حقوق الملك  
وحقوق الخليفة الشرعية للتفسير بين هذه الحقوق أو لتوحيدها والتوفيق  
بينها . وسكت شيوخ الإسلام في القسطنطينية عن بحث هذه المسألة من الوجهة  
الفقهية حتى لامهم الكاتب التركي المستعرب « حسن حسنى الطويراني »  
عام ( ١٨٥٠ - ١٨٩٧ م ) على إغفلها وقال في رسالته عن إجمال الكلام  
على مسألة الخلافة بين أهل الإسلام : « إن رأى الجمهور الحاررى على لسان  
عباء المسلمين أهل السنة والجماعة في كتب المعتقدات التي تدرس في النواصم  
كنعس لقسطنطينية العظمى ومصر ومكة وأشام وبعداد وغيرها أن الأئمة  
من قریش ، حتى إن حضرة صاحب لدولة والفضيلة عمر لطفى أفندى شيخ  
الإسلام السابق لما كتب حاشيته على العقائد النفسية لم يكتب شيئاً بالسب  
أو لإيجاب على مسألة الأئمة من قریش واختار الله وقف . . . » .

وكل ما ذكره هذا الباحث المطلع من استخدام سلاطين العثمانيين لصفة



الخليفة « أن المرحوم مصطفى باشا العليدار الشهير بما رأى أن المملكة العثمانية قد أخذت تتكاثش من أطرافها على النقيض من مساعد قوة أوروبا وتقدمها وتبين أن القوة قد ابتدأت تخدعها في مقاصدها ، غتم فرصة إيقاع البيعة للمرحوم الغازي السلطان محمود خان سنة ١٢٢٣ هجرية مباع له واشترط شروطاً بين الخليفة وبين أمراء الأطراف في أوروبا ، فكان على مقام السلطنة أن يعمل بالشرعية وألا يقتل أحداً أو يصادر مال أحد إلا بوجه شرعي وعلى الأمراء السمع والطاعة وأن كلهم تحت التكافل ، وأشهد على ذلك لعهد شيخ الإسلام وعموم لرجال وتم الوفاق على تأييد الأمن العمومي ولشرح العادات وعادات وفود الأمراء إلى بلادهم . . . »

قال « ولما رأى رشيد باشا الكبير أن لا سبيل للإصلاح إلا بعهد يتناسب الزمان اغتم فرصة حرم السلطان الغازي عبد الحميد خان وأصدر منه الخط الشريف المعروف بخط كل خانة ، وفيه قرر ذات الخليفة رفع قوانين امصادره وأوجب العمل بالشرع وعدم سفك الدماء إلا بحق ورأى تنظيم المظلمات والقوانين المطبقة لأحوال الشريعة ولكن هم رشيد باشا أن هذا العهد لا يزيد على العهد الذي استحصل عليه مصطفى باشا العليدار الشهيد من قبل ولم تكن عنه الخدمة العثمانية ، فأحب أن يأمن على مشروحه فحصل على قيد في ذلك الخط الشريف ألا وهو إلهاد الدول على هذا المشروع وصرح بذلك في خط الشريف فهدت الدول بهذا العمل مبادئ مسوغات لتدخل الأجبي بدعوى التأمين على الحقوق والأرواح . فتبع من جهة وأضر من جهة أخرى . »

وبفهم من كلام الطويراني بعد ذلك أن سياسة السلطان العثماني كانت تراوح في عصره بين وجهتين . وجهة الخلافة ووجهة الملك على نظامه الحديث في انبلاذ الأوروبية ، لعله يدفع عنه عائلة التعصب الأوروبي بمجراة لعصر في نظمه السياسية .

قال المؤلف الذي يبدو من سيرته ومن أقواله أنه كان على معرفة بمجري السياسة العليا في زمانه : « ثم رأى العثمانيون رأياً آخر بعد ثمانين وعشرين سنة وحتجوا بأن احتياجات الدولة تضطرها إلى مدناً مدني يكون لمقتلة التواحم

السياسي ، وهناك صدر القانون الأساسي مصداقاً عليه من جلالة مولانا السلطان الأعظم ، وقد تنقضت بمجلس الأمة مدة ثم رُئي أنه غير مناسب للحال فلم يجتمع بعده ، أما أعضاء مجلس الأعليّ فلا يزالون موظفين وإن لم يجتمعوا . لكن لما كان إعدادها مخالفاً للقانون الأساسي العثماني لم يلجأ بالكتابة ولم تزل القوانين موقوفة يصدر الحكم عليها بالدوام إلى ما بعد عرضها على المجلسين لأن مقتضى الحكمة إعادتها .»

وظلت حالة التردد بين وجهه ، خلافة روجه ، تلك على هذا النحو استتس حتى نشطت دعوة الخلافة ونشطت معها دعوة الجامعة الإسلامية في وقت واحد بعد ولاية عبد الحميد بسنوات قليلة وعلى أثر انعقاد مؤتمر برلين واقتضاح مؤامرات التقسيم التي اتفقت عليها الدول الكبرى لانتزع بلاد السولة العثمانية من سيادتها بغير فرق بين الإسلامية منها وغير الإسلامية .

ولا يخفاء بمقصد السلطان عبد الحميد من دعوته إلى الجامعة الإسلامية باسم الخلافة العثمانية ، فقد كان مثله في حصفاته ودهشته أن يطمع في سيادة فعلية على بلاد المسلمين باسم جامعة الإسلام ، فإن أهوا ما في هذا الطمع من اضطراب اجسام يوقعه في حروب لا عدالة لها مع عصبة المستعمرين التي يملك كثيراً من بلاد لإسلام أو تنصع إلى ممتلكها ، وقد يوقعه هذا الطمع في حروب مع الأمم الإسلامية التي لا تزال على شيء من الاستقلال ولو كانت في ظل سيادته العامة ، وهي السيادة « الاسمية » التي كانت تربط بعض الأمم بدولة آل عثمان منذ فتوحها الأولى .

فدعية الأمر فيما قصد إليه السلطان عبد الحميد من دعوته إلى الجامعة الإسلامية باسم خلافة أن يحتمى بعطف العالم الإسلامي في وجه التعصب الأوروبي المصنق عليه من كل جانب ، وأن يستمع العالم الإسلامي إليه حين يباديه بتلك الصفة لأنه أكثر ولاية الأمر فيه وأعظمهم مركزاً في مراسم السياسة الدولية ، ولم يكن يخفى عليه أن العالم الإسلامي لا يقارع المسلمين سلاحاً بسلاح ولا ثروة بثروة ولا نفوذاً بنفوذ ، ولكنه كان يتفجع منه بما يستطيعه في كنفح الاستعمار ويعلم أنه يستطيع الكثير مما يجتاه المستعمرون

وبعض هذه الكثرة الخشني أن يخلق حكوماتهم وشركائهم ويقاطع متاجرهم  
ويدخل بينهم بالتأييد والخلل في حصوماتهم ويشير عليهم وعيائهم المنسردين  
من يستادرون باسم الحرية والعدوى الديمقراطية ويجدون في عمل على لتعرقه  
بين شئون المدن وشئون السياسة ، وقد كان لاساطون عبد الحميد خيرة جهنا  
ألمس من فنون السعدية شهد به الغربيون والشرقيون ، وبلغ من خبرته به أنه  
كان يستخدمه لتأليب فريق من دعائه على فريق وتغيير صلات الإصلاح  
أنفهم من يخرجونه بطلب الإصلاح على غير هواه .

وعرف دعاة الجامعة الإسلامية جميعاً غاية ما يراود من هذه الدعوة باسم  
الخلافة العثمانية أو باسم الإسلام على التعميم .

عالمية حال الدين الأعاني أكبر دعاة الجامعة في عصره بصرح  
بغاية الجامعة التي يدعو إليها فيقول من وعدة عن الوحدة الإسلامية :

« لا أنس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في لجميع شعصاً واحداً ،  
بل أن هذا ربما كان أمراً صعباً ، وليكني أرجو أن يكون سبطان جميعهم  
القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين . وكل ذي ملك على ملكه يسمى بمجده  
لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته ويقامه ببقائه . إلا أن هذا بعد  
كونه أساساً له بينهم تعصى به الضرورة وبحكم به الحاجة في هذه لأوقات » .  
« هذا أو ان الاتفاق . ألا إن الزمان يؤاتيك بالمرص وهي لكم عتائم .  
فلا تفرطوا . . إن البكاء لا يحجب البيت . إن الأسم لا يرد القاتل . إن  
الحزن لا يدفع مصيبة . إن لعمل مفتاح النجاح . »

ولما ضرب المش بمولك لإسلام الدين يفتدى بهم في حفظ حورته ودفع  
عدته لم يقصر كلامه على الخفاء منهم ، بل عدد من ملوكهم طائفة من  
أمثال « محمود العزتوي وملكشاه السلجوقي وإصلاح الدين الأيوبي » .  
« عدا السلاطين العثمانيين الدين م يتلقوا بنقب خلافة . »

وربما كان الأمير شكيب أرسلان أشهر الدعاة إلى الجامعة الإسلامية  
باسم خلافة العثمانية . فإنه عاش بين «تسطنطينية وعو صم العرب زمناً في  
خدمة هذه الجامعة ، وهو مع ذلك يقول في تعقيب عن فصل الجامعة للإسلامة

من كتاب حُضُر العالم الإسلامي ، إن الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فـالخلافة لم تكن إلا تمكناً عضوياً قد يوجد فيه المستند الماهل والمستند العاشم . وما انقادت الأمة إلى هذا ملك العصوص اختلف لشروط الخلافة سواء كان من العرب أو من الترك ، إلا حشبة العفنة في الداخل والاعتداء على الحرة من الخارج .

وكان الأمير شكيب يستوجب هذه الدعوة وهو لا يحفل أحوا بسلطان عبد الحميد . بل يقول عنه من تعبهقاته على الترك في تاريخ ابن خلدون : « وفي زمن سلطان عبد الحميد سادت الأحوال في مقبوبة ، لأن سلطان كان أكثر منه في عافطة على شعبه ، وكان شديد الخيل إلى درجة الوصا لا يستكثر من الجواسيس وصار بأيديهم تقريباً الخ والعقد »

ثم يقول : « وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمى أكثره ولا يصدق ما فيها ، ولكن اهتمامه بقضية أنحر الجواسيس التي الخوف في قلوب الرعية وصارت في قلق دائم وأصبح الناس يبالعون في لروايات عن الجواسيس صامت سمعة الحكومة وسخط الرأي العام على هذه الحالة . »

• • •

على أن جماعة الإسلامية تعيبها إلى أحدها فيما تقدم - ليست من المسائل التي تسمح بالخلاف بين أحد من المسلمين في أراء العالم على حقها ، وعلى صوابها في شرعة دين أو خلق وإنما يعرض هذا الخلاف بل يشتد حين ترتبط بمسألة الخلافة العثمانية وحين تنطوي هذه الخلافة على معنى السيادة والتبعية في حكومة .

فالخلافة على هذه لصغة يرفضها القائلون بإمامة فريلس ويرفضها القائلون بـ استقلال العرب سيادة الحكيم فيضطرون مضطراً إلى الأخذ بمبدأ الخلافة العربية لقرشية ، لأنهم إذا سلموا مبدأ الخلافة للشركة لم يتيسر لهم ترشيح دولة إسلامية لها من المركز الدولي يومئذ ما كان دولة العثمانية

ويعتمد القائلون إلى انعمية العربية بحق أن جماعة الإسلامية لا تناقض

الدعوة إلى الجامعة العربية . ولا يلزم في توثيق عرى مسلمين أن تكون  
جامعتهم وفقاً على خلعته بنى عثمان وأن يكون مستقل للإسلام مرهوباً بمستقبل  
دولتهم . وسعى الأمم الإسلامية في سبيل حرية والمعة موقوفاً على سياسة  
تلك الدولة ، بل على سياسة لقدامين بالحكم فيها على غير مشيئة المصلحين  
وطلاب التعلم من أبنائها ،

وقد تصل أساس من انترك أنفسهم من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية  
في أواخر عهد السلطان عبد الحميد . لأنهم أرادوا أن يقيموا الحكم في  
بلادهم على مبدأ « مدنى » كما قال الطوير في فيما تقدم ، وأن يحضروا  
حجة المتخصصين من الغربيين كما شوا العارة عليهم باسم الدين أو باسم حماية  
رعايا لدولة غير لمسلمين . ومن الترك من كان يؤثر الدعوة إلى الجامعة  
بطوريه على الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ويحيل إليهم أنهم قادرون بهذه  
لوسيلة على تأسيس « اتحاد اميراطورى » يقوده الترك وتشترك فيه الأقوم  
التابعة للدولة العثمانية على تعداد الملل والأديان

ومع أنعمه في هذا الصدد من ذكرى باني الشخصية أن حمدة « تركيا  
الفتاة » بحثت في مصر بعد إعلان الدستور العثماني عن صحيفة عربية تدفع  
عها وتشرح مقاصدها فاحتراب صحيفة « الدستور » التي كنت أكتب بها  
وكان يصدرها الكاتبان من النزيه « محمد فريد وجدى » رحمه الله ، وكان  
فريد من أش الكتاب في مصر غير على الجامعة الإسلامية . فأى أن يجيبهم  
على اقتراحهم لاشترطهم أن تكف الصحيفة عن ذكر الجامعة وترفع من  
صبرها أنها ليس حانها . وقد حدث هذا بعد وفاة الكواكبي بخمس  
سنوات ، وقبل هجوم إيطاليا على « طرابلس الغرب » وهجوم النمسا على بلاد  
البشناق ، تنعيماً للمياسة الأوروبية التي سموها « تقسيم تركه الرجل المريض » .  
وبير هذه الدعوات لتشايكة نشأ الكواكبي وبعد بصره إلى ما وراء  
لأفق المكشوف لمعاصريه ، فاستطاع كما سرى - أن خدر ماير نصيه  
العربي أسمى يؤمن بدينه ويعرف عقبار الطريق إلى قلته . ولكنه ينظر إلى  
مستقبل العرب والإسلام طره الثقة والإحاد

## أم القرى

أول كتاب وضعه الكركي كما تقسم في التمهيد السابق فهو باكورة أعماله القلمية وقائمة اشتغاله بالتأليف .

أما من ناحية التفكير وشفير فلا يحسب الكتاب من أعمال النواكبر ، لأنه نتيجة ماصجة لدراسة طويلة وصل منها إلى نهاية الرأي في أحوال العالم الإسلامي وأسباب ضعفه وبواعث الأمل في صلاحه وتقدمه . فهو محصول حياة فكرية وقفها على هذه الدراسة في حوهره ، ولم تكن دراساته الأخرى إلا شعاباً متفرعة عليها .

« وجمعية أم القرى » اسم أطلقه المؤلف على مؤتمر عام تخيل انعقاده في مكة المكرمة وجمع فيه مندوبين يسيرون عن أمم العالم الإسلامي في المشرق والمغرب يشون ضد الصين والأفغان والعراق والحجاز والشام ونجد واليمن ومصر وتونس ومراكش وغيرها من الأقاليم المشتركة بين هذه الأقطار . وأتى على لسان كل منهم خطباً يشرح حالة المسلمين كما حثروها من شؤون بلادهم وما يعلمه عن شؤون سائر البلدان الإسلامية ، وأحتد في نقاد صورة المؤتمر لسرى ما له من انحصار المسجلة والرموز المصطاح عنها وعلامات الأرقام التي يتماهم عليها الأعضاء ، لأنه أراد أن يتم الصورة شكلاً على ما يظهر ، أو أراد أن يوقع في روع القارئ ما يبعث عنده لثقة باجتماع العزم على العمل وقيام المؤتمرين على تنفيذه ، إلا أن الثابت من رواية أصدقائه وآله أنه ألف الكتاب قبل رحلته إلى مصر وإلى الحجاز ، وتحدث هو عن هذا الكتاب إلى صديقه السيد محمد رشيد رضا - صاحب المنار - فلم

يزد على أن قائد إن الجمعية أصلاً وتوسع في مسجله ، وعارده غير مرة بالتفتيح والتخفيف والزيادة .

وفي وسعد أن نفهم هذا « الأصل » على سبيل الضمن من تصفح ألقاب المندوبين في الكتاب . فلماذا أن يكون المؤلف قد التقى في بلده بأناس من فضلاء المسلمين الذين يترددون عليه في طريق الحج فلذا كرم في مسائل لدين ومصالح المسيحيين وسمع منهم وأسمعهم ، عتده من الآراء والمعومات في هذه لشئون ، ولا حاجة إلى التوسع في قراءة السجلات للتيقن من هذه الحقيقة السببية ، فإن لمحة عابرة إلى الألقاب التي اختارها للمندوبين تشعشع القارئ بمعرفة حسنة للأهم التي سبهم إليها ، يجوز أن تعرف بالسماع والاطلاع ، ولكن لا يجوز أن تكون كلها سماعاً واطلاعاً مع إمكان المقابلة في حب بينه وبين الواقدين إليها من عامة الأقطار الإسلامية تختلف المقاصد والوجهات ، وسمع عناية المؤلف باستيعاب الأخبار والآراء في موضوع كتابه وقوله لصديقه إن لها أصلاً توسع فيه

انظر مثلاً إلى ألقاب الأمستار لمكي وأصحاب المندوب والفاضل الشامي والمولى المروى والمجتهد الميريري والرياضي الكردي والعالم السجدي والمحدث الشامي والعلامة المصري والمخطيب القاراني ، ومئات الألقاب وعناوين الخطابات التي تخللت مساحلات وخطب عن السنة هؤلاء الأعضاء .

إن هذه الألفاظ لم توضع حرافاً ولم يتميز بعضها من بعض لأسباب تتعلق بأفراد المندوبين ولا ينظر فيها إلى خصائص شعوبهم أو إلى السمات العامة التي تبرزهم بين جملة المسلمين ، فإذا جاوزنا الألقاب إلى السجلات وما رعته من الآراء والأوصاف والوقائع ومناحي التفكير وضح لنا أن المؤلف قد صدر فيها عن علم واسع بأحوال الشعوب الإسلامية وأحوال السادة المتخصصين في الإمامة العينية وافتوى الدينية ، ويجوز كما أسلف أن يجتمع هذا لم المؤلف بالاطلاع والسماع على الألفاظ ، ولكن البعيد عن الظن الذي لا يجوز في حكم العرف والمادة أن يصل إلى حلب قصاده والعبرون بها من أرحاء العالم

الإسلامي ولا ينقص بينهم وبين كوكبي لقب مقصود أو غير مقصود ،  
يتطرق فيه الكلام إلى حدث كحدث أم القرى كما سجلته محاضر  
الكتاب

وعبر بعيد أن يكون « الكواكبي » قد سمع بعض هذه الآراء  
واطلع على بعضها بوصول إليها وإلى غيرها باطادة التأمل ودمعان النظر  
ونقلب المسائل على شتى الوجوه ، غير أن هذه الآراء لا تحوى الكتاب  
ولا تغنى عنه ، فإن الكوكبي لم يعرضها عرض الحكاية ولا عرض النفس  
والروية ، بل كان عمله فيها عمل « العربية » والمحلل والمبدي عن المدققة  
والموارنة والأحاد ولرد الذي لا يتأني في غير اجتماعات المشهود

فكل سبب من أسباب الاعتناء بالتحريقات يعطون به ضعف المسلمين  
ينتهي إلى أن يكون سبباً من ناحية ونتيجة من ناحية أخرى ، وكل  
عرض من أعراض الجمود يجرى به الدور والتسلسل على هذه الوتيرة ،  
إلى أن تنتهي كنه إلى سبب الأسباب في عقيدة الكواكبي كما نعلمها في  
ديده وهجيره في التفكير ، وليس هناك سبب لجميع الأسباب غير  
الحكومة السيئة أو غير الاستبداد

ضباط يضعف المسلمون ؟ .

يضعفون لأنهم أمروا آداب الدين التي هموا بها في صدر الإسلام

ولماذا أهملوا آداب الدين ؟ .

لأنهم جهلوا سابه وأخذوا منه بالقشور ؟ .

ولماذا جهلوا ؟ .

لأنهم فقدوا المهمة وقنعوا بالصحة وشككوا في الخور والتسليم

ولأن أن تتابع حلقات السلسلة عكساً كما نعتي طرداً ، فتقول لهم  
فقدوا الله لأنهم جهلوا . ولهم جهل لأنهم أهملوا آداب الدين ، ولهم  
أهملوا آداب الدين لأنهم ضيعوا



فكل علة من هذه العلة هي مقدمة من جهة ونتيجة من الجهة الأخرى ، إلا الحكومة السيئة في تعديل الكواكب فلا تبطل الدور والتسلسل لأنها ملقاة الأسباب والفتائج في كل عرض من لأعراض الاستبداد جهل وضعف وإهمال وتوت تعرض للرعاة ثم تعرض منهم للرعية معجى دواليك في حلقة مترعة لا تنهى أبداً مع بقاء الاستبداد ، ومن ثم يصح أن يقال إن الفكرة في أم القرى هي الفكرة في طوائع الاستبداد ، وإن طوائع الاستبداد لا يحوى شيئاً لا يكتبه من كتب أم القرى قبل لتصبح أو بعد التصحيح

ويقول الدكتور سمي دهان في ترجمته للكواكب في سلسلة «موسع الفكر لقرى إن كتاب أم القرى : « صدر في حياته متقهاً بقلم السيد رشيد رضا أو بقلم الشيخ محمد عبده كما قال الأب شيخو ، ويشير الدكتور سمي دهان بهذا قول الأب شيخو في تاريخ الآداب العربية في الرشح لأول من القرن العشرين عند كلامه عن أم القرى إنه « يعر فيه الشيخ محمد عبده » .

ثم يعقب الدكتور الدهان قائلاً « وكل الذي نستطيع أن نقول في أسلوب كتابته إنه قريب من أسلوب هذين الرجلين وهو أسلوب الفحول ثلاث العصر » .

ولا يرى ما يراه الدكتور الدهان من التشابه بين أسلوب الكواكب وأسلوب الأستاذ الإمام أو تلميذه السيد رشيد ، فإن في الكتاب من مأخذ اسحق والصرف والتركيب ما ينحرج منه السيد رشيد عادة التخرج ولا يسكت عن بقده ، إذا عرض عنه ، كما صنع مراراً في تعقبه على الرسائل والمصنفات التي يقرأها لأصنفاته ورملائه ، والأستاذ الإمام يكتب بقده على نهج غير نهج السيد رشيد كما يظهر من أسلوبه في « رسالة التوحيد » وفي « الإسلام » « مصرانية » وفي مقالات الأدبية ، ويقع الالتباس أحياناً بين أسلوب الإمام وأسلوب تلميذه لأن قراءه اعمار كانوا يحسبون أن تفسير القرآن الذي كان يشر فيه مكتوب بقلم

الشيخ محمد عبده وهو في الحقيقة معجس أو مفتيس من دروسه في  
الروق العيسى بقلم صاحب المار ومن هنا يظن أن الأسلوبين على  
شبه قريب وهما مختلفان مع انه في التحرر من المأخذ اللغوية واجتناب  
الصيغ المولدة والصيغ التركيبية

ولا يمنع عندنا أن يكون الشيخ محمد عبده أو السيد رشيد قد نظرا  
في الكتاب وأيدي عبده بعض الملاحظات وأحد المؤلف بما أبداه بل  
نحن نجزم من أحسنهم لآراء الكتب ونصيحتهما بحذف طرفة من العبارات  
السياسية التي وردت فيه وتثبت هذه المرجعة من المقابلة بين النسخة  
التي طبعها السيد رشيد في مطبعة المنار والنسخ التي لم يشرف على  
طبعها . فقد حذفت من العبارات التي اشتملت فيها الحملة على الدولة  
العثمانية ، واتبع السيد رشيد في حذفها رأي الأستاذ الإمام فيما وجهه  
إليه من النصائح غير مرة . قد قرأ السيد رشيد وهو يعد وجوه النقد  
لن كتاب أستاذه بصارحه بها . « أحب بشعل » الخوص في سياسة الدولة  
العثمانية في بعض الأحيان « ... قال . « وهذا ما كتب أكرهه أن  
أيضا فيعرض في من الضرورة ما يحسن عبده . وحل على لهم منها  
كان مرياً . وقد أشرت في ذلك في صفحة محمد الثاني عشر من  
المنار سنة ١٣٢٧ ولم نبدل منها ما هو . لا بعد أن اصطفاه الله »

والمشهور عن الأستاذ الإمام أنه تلى بانتعاب لمرهقة من آفات السياسة  
حتى مله واستعاذ بالله منها في كتابته المعروفة « أعود بالله من السياسة .  
ومن صامس ويسوس وسائس ومسوم » وطبق ينصح لمريديه باستخدامها  
لتحجيس القول في المادى والأصول التي يتجرد لمن من أهوائهم وآرائهم  
عند نظرها ولا يصنعونها دعاء مع وسوس العصية ووارع منفعة  
والنفاق . وقد كان الأستاذ الإمام يبيع النقد وبأى الحملة على الدولة العثمانية  
في محنتها . وأخرى به أن يأى لإعراق في هذا النقد على طريقة الكواكبي  
كلما استفادته حصة لسعة شدة الكبر ويبلغ في الإتهام ، ومن ثلث  
هذه المذلة ولا ريب أنه استطاع أن يكتب « أم القرى » و « طوائف

الاستبداد » ويخرج منها من حسب ويحملهما في طريقه ولا يحال بينه وبين ذلك كما حيل بين أصحاب الأقلام وبين أمثال هذه لكتابة في الأقطار الأوروبية لزمانه ، وكما يحال منه وبين أمثاله في بلاد السودان المستبدة التي تخضع لحكوماتها المظلمة .

ولا نعتقد أن مراجعة الأستاذ الإمام أو صاحب المذخر تجاوزت هذه الملاحظة إلى غيرها من أفكار المؤلف وآرائه ، ومن بحره وتعليقاته ، فإن مادته من هذه الأفكار والآراء ومن هذه التجارب وتعليقات أو فروعها من أن تحتاج إلى مدد يهدف إليها ، وحسب نموذج واحد يلصقه بيديه ولا يقدر على الفكرك منه بفيس عليه كمن أحصاه في أم القرى من فساد السلطة الدينية والسلطة السياسية في عصور الاستبداد أو عصور التحف والجور .

حسبه نموذج « أبي الهدي لصيادي » الذي نزع نقابة لأشراف من بيت الكواكب بغير حق من حقوق النسب أو الفضل أو الكمية ، ليضعه أمامه وينقل عنه آداب السطوتين وموطن الحاجة إلى علاج هذه الآفات والمعالجة فيها بين الله والبواء .

لقد كان الكواكب سعى على جهلاء المسلمين ستغاثهم بأصحاب الأضر ولا يفرق بينها وبين الشرك بالله ويضرب المثل على ذلك بقولهم :

عند الفادى جهلاء ياف الفاضل والإحسان

صرت في خطب شديد من إحسانك لا تفاسق

وقولهم :

دعاهى لا تفسىحى أنا المحسوب أنا المنسوب

وكان هؤلاء الجهلاء يستمدون دعاءهم من كتاب « قلادة الجواهر في ذكر العوت الردى وأتباعه الأكابر » الذي يؤلفه الصيادى أو بأمر تأليه وينشره وينشر معه التصديف من قبله عن « فرحة الأحباب في أخبار الأربعة الأقطاب » و « الجواهر الشفاف في طبقات السادة الأشراف » و « دجيرة المعاد في ذكر

انسادة نبي الصياد ، إلى غيرها من كتب المتنوع والمنظوم في أشياء هذه الترهات .

وكان اسكواكي ينهى عن العصر أن يرتفع باجهلاء إلى مساند الأئمة العباء ، ولا تصدع لهم من العلم والورع إلا بصناعة الخيلة والسمسية وصناعة الزلق والتقرب إلى السلاطين والأمر ، وقد ينقلون مناصبهم بالورادة إلى دريتهم فيوصفون في المهدي بصفات الجهابذة والأولياء .

وقد كان لصيادي ينال غاية ما ينال من ألقاب العلم ولشرف ويتشبع بعد ولادة الأمر لمن يطعم في نبيها وهو من الجهل بالكتابة بحيث يستكتب المحاسيب ، ما يسو به إليه من تفك القصائيف في كرمات الأقصدي

قال الأستاذ خير الدين لردكي صاحب الأعلام وهو حبيب بأصحاب السير وال تراحم من أبناء خيل القريب - : « إن الصيادي صنف كتباً كثيرة أشك في نسبتها إليه ، فعله كان يشير بالبحث أو على جانباً منه فيكتبه له أحد لعباء ممن كانوا لا يفرقون مجلسه ، وكانت له لكلمة العليا عند - عبد الحميد في نصب القصاه والمعين وله شعر ردي كان يحضه أو كثير منه الخيرة . . . »

تقول - ومن هذا شعر ما بحث به إلى لأستاذ الإمام يثنى فيه على رسالة الكوجيك ،

نعم فيها اختيارات ونسج	دقيق فيه درب للطراد
وعايشكم بما قد صير في	مرهة بحكم الاعتقاد
فلم تصاح در هسلدي تمين	معبود للعباد وبلاد

وقائل هذا الشعر ومن يستديره من ظلم غيره سواء ، وآية الخيل فيه أن يحسه ناظمه أو طالب ناظمه حديراً بالاهاء إلى شارح نهج البلاغة وراعي الشعر والادباء .

ولسكواكي يعلم أن أمر المسلمين تأخروا وأخرو معهم رعيانهم لأنهم أخطأوا جروشهم بفراخهم من الحاشية المتعلمين واستمعوا إلى مشورهم في

اختيار الولاة والرؤساء من أديبهم وأقربائهم وإقصاء المرشحين نولاية .  
والتراحة من الكفاءة المخصصة و لأماء العاميين

فلان لم يكن قد علم ذلك من مشاهداته ومطالعاته فهو مدعوع إلى علمه  
بما يهصره أمامه من ذلك المثل الدور ولو كان وحيداً في زمنه ، وما هو  
بالوحيد .

فصديدي كان يتحكم في مناصب القضاء والمختين كما قال صاحب  
الأعلام وكان يتحكم في مناصب الولاة والرؤساء فيسندوها إلى أصحابه وأقربائه  
ويذهب هؤلاء إلى مراكزهم وهم يعلمون ما تمر به الوظيفة عليهم وأوله  
تعظيم شأن المحس إليهم والتشهير بمن ينافسهم وينافسه من جهة العباد ودعة  
الإصلاح .

قال صاحب المنار : إن أبا المدي سعى في إبعاد ولاية طرابلس إلى  
أحد أصحابه فأصبح الناس يحجمون عن ذكر اسم حزب الدين والثناء عنه  
في مجوسه ، ولم يفتح أبو المدي تصادفة هذا المصالح الكبير في حياته في البلاد  
التي يتناولها نفوذه من ولايات الدولة العثمانية ، فكتب إلى صاحب المنار  
بعد وفاة جمال الدين كتاباً ( في التاسع ولعشرين من رجب سنة ١٣١٦ هـ )  
لعل الكواكبي قد طبع عليه عتب فيه عليه بنائه على جمال الدين فقال :  
« إنني أرى حريتك طامحة بشقائش المتأففين جمال الدين الملعنة ، وقد تلوجت  
به إلى الحسية التي كان يزعمها روراً . وقد ثبت في دولته الدولة رسمياً أنه  
ماز يدراى من أحلاف الشيعة ، وهو عرق من الدين كما مرق السهم من  
الرمية » .

وكان هذا ديدن الصيادي في مكانه لحسب على غيره والاستئثار به  
لمسه ولو لم يكن صاحب لحسب من مناسيه على نقابة لأشراف أو حراسة  
الأوقاف .. وإنما يقطع عليه السيل ليخمله ويحط مساعاه ولو كان فيه  
حيز عظيم للدولة ومنازل لمسلمين ، وكذلك كان تدبيره لإحباط سعي جمال  
الدين في التريب بين الدولة التركية والدولة الفارسية لتتفق السيادة بينهما على

صحة الاحتكار ومقاطعة الدول المستعمرة التي تعتدى على إحداها ، تخويفاً لها من مراقب المقاطعة على مطامعها الاقتصادية

فإذا جزأ أن نحقق على الكواكبي أسباب الفشل الذى منى به المسلمون فيما وعده التاريخ أو أحاطت به التجربة والمحادثة ، فليس من الحائر أن تفوته أسباب الفشل التى تفتح عمه دارة وتسليه قراره ، ويبقى بها الصيادى فى شرفه ونسبه وعمه واجتهده ، ولا يرضيه منه إلا أن يعترف به بأشرف الذى اغتصبه منه ويحرمه بالتأييد والتكبير على محاربه إياه

غير أن الكواكبي م تعوزه لأشمة غير هذا المثل فى بدته وفى عاصمة الدولة ، فكل من تولى حكم فى حلب كان مثلاً كهذا المثل فى كشبه من المساوى رعايته إلى مواطن الإصلاح ، ووسائل الكواكبي إلى كشف الحقيقة غير قلبية فى بصدق حياته ومجال معيشه ، إن صرفنا النظر عن مطالعاته ومخادته ، وهى وسائل الرجل المتصل بوظائف القضاة وإدارة ومراكز التجارة وشركات الاحتكار ، وهى إلى جانب ذلك وسائل الرجل الذى يحمل تكاليف الوجاهة وقيمة الناس مقدم المسئول عن مرافق البلدة وشباب الكسب والسعى بها من مباح ومحظور .

إن المباحث فى « أم القرى » تجربة شخصية لعبد الرحمن الكواكبي لا تعوزها الزيادة من تجربة غيرها ، فليس فى الكتب فكرة يعز عليه فى ذكائه ويحسه أن يستوحىها من مكانه وزمانه ، ولا غصصة على مثله أن يسترشد بعد ذلك بصباح دوى رأى فيما يباع أو لا يباع ، وفيما يحسن نشره حينه أو يحسن إرجاؤه إلى حين

وعن الجملة يصبح عندما أن مهم أن حوهر الكتاب وهو البحث عن علل الأمم لإسـمـية وعوامل شعبيتها عمل جليل للكواكبي مرغ منه من بلده قل هجرته منها .

أما موضع تنقيحه وإضافة إليه والحذف منه فهو شكل الكتاب ،

وما كتبه فيه أخيراً عن شكل « الجمعية » كما تخيلها وكما اعتقد بعد رحلاته في العالم الإسلامي أنه أقرب إلى تنصيدها ، وقد نشر الكتاب في طبعات متلاحقة فأعيد فيه ما حذف منه ، ولا التباس اليوم بين عمل الكواكبي في « أم القرى » وبين عمل الناصحين فيما أبقوه وفيما حذفوه إلى حين .

## طبائع الاستبداد

هذا الكتاب لى يعد آية الكواكب ، يتألف من سلسلة مقالات نشرها لأول مرة في صحيفة المؤيد وتداول في كل مقالة منها عارضاً من عوارض الاستبداد التي يشهدها أثرها في أحوال الأمم والأفراد . وانتهى الكتاب وقد بحث فيه حملة العوارض الاجتماعية التي تصحب الاستبداد في أحوال الدين والعلم والمجد والثروة والأخلاق والتربية والتقدم . ومهد للمقالات بتعريف الاستبداد ثم عطف عليها مسائل لخلاص منه والغلبة عليه .

ومقالات الكتاب جميعاً تنبع عن دراسة واقعية للعورص التي طرحها أو أحصل القوب فيها . وتدل على تأمل طويل في موضوعاتها يستفاد من المنظر والتجربة كما يستفاد من الإصلاح والمراجعة . ولهذا خطر للأستاذ أحمد أمين رحمه الله لإصلاح أنها نتيجة دراسته بعد أن سارح في سواحل إفريقيا الشرقية وسواحل آسية الغربية ودخل بلاد العرب وحال فيها وجمع رؤساء قبائلها وتول بالهند وعرف حاداً . وفي كل بلد يترجمها يدرس حالها الاجتماعية والاقتصادية وحالتها الزراعية ونوع تربتها وما فيها من معاداة ونحو ذلك : دراسة دقيقة عميقة . ويرى مصر وأقدم بها ، وكان في بيته رحلة أخرى إلى بلاد المغرب يتم فيها دراسته ولكنه عاجله منيته . نشر نتيجة درسته في مقالات كتبت في صحلات والجرائد ثم جمعت في كتابين اسم أحدهما : طبائع الاستبداد - والآخر - أم القرى - . . .

والواقع أن الكواكب درس موضوعات الكتاب قبل رحلته البطولة في بلاد الشرقية وقبل هجرته من حلب إلى القاهرة . وقد عني



حفيده الدكتور عبد الرحمن الكواكبي بالتنبيه إلى ذلك في مقدمة الطبعة الأخيرة من كتاب أم القرى التي طبعته هذه السنة ( ١٩٥٩م ) فقال إنه ه لا بد في هذه المناسبة من الإشارة إلى حقيقة تاريخية تلقى ضوءاً على موضوع هذا الكتاب : وهي أن حتى رحمه الله ألف (أم القرى) وطابع الاستداد قبل هجرته إلى مصر . وكان عمى الدكتور أسعد الكواكبي يتولى تبليغ أم القرى له في حلب : كما أخبرني أيضاً علم حلب الشهباء المرحوم الشيخ رجب طباح أن المؤلف أضعه عليه قبل سفره إلى مصر . ولما كان سيد العراق لم يعادر حاب خلال مقامه فيها إلا إلى استنبول ولم يتم بحولائه إلى العالم الإسلامي إلا بعد رحيله إلى مصر ، فإن المؤرخ الذي عقد في مكة . ويلدور عليه موضوع الكتاب . إنما هو مؤرخ نجده المؤلف يعرض فيه آراءه . . .

ونطبق هذا القول ما رواه الأستاذ أنرى الأستاذ سدى الكبيالى صاحب مجلة الحديث كما نشره في مجلة الكتاب ( سنة ١٩٤٧م ) إذ يقول

« قبل سفره يوم واحد رافى في منزلى بدمشق وأخبرنى أنه عازم في هذه على السفر إلى استنبول لتدوين بيته . أى بيته قضاء رأسه . وكنت عسى مكتوبة ( جمعية أم القرى ) وقد شعرت منه العزم على طبعه فوقع في مسمى أنه سيخرج على مصر لطبعه ونشره ، إذ لا يمكنه أن يطبعه في غيرها . وحدثته من ذلك وقدت له . إياك يا أحمى والسفر إلى مصر فلهذا منى أذيتها تعلم يحدث لرجوع إلى وطنك . لأنت تعد في الحان من الطائفة المعروفة باسم جور تورك ولا يتأخر ومحدث هذه سمة قيد لحظة ، ما اشتهرت وعرفت به من شدة المعارضة وانتداد لأحباب الحضرة . فقد : لم أعزم إلا على السفر إلى استنبول للفرص السى ذكرته لك . وقد كتم سر سفره حتى عن أعز أصدقائه ثم ودعنى ومضى . وأنا أسأل الله تعالى أن يرعاه بعين رعايته وأن يحصل التوفيق رائده ونجاح مرشده وقائده وكلمات مراحته حلب في أوائل سنة ١٣١٦ هجرية ( هكذا ) وبعد أن مضى

على مآرحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم يشعر إلا وصدى مقالاته في صحف مصر ، وأخذت حربية المؤيد تنشر تفرقة كتاب طبائع الاستبداد الذى لم يصلح عليه مطلقاً بخلاف كتاب جمعية أم القرى فقد أطلعت عليه مراراً ، ثم إنه صبح الكتائب المذكورين وقام هذا فى ليلتين السلطان ضحة عظيمة وصدرت إرادة السبطان بمنع دخولهما إلى المصالح العمالية . بعد أنهما رغباً عن ذلك كله وصلا إلى حلب على صورة خفية وقرأتهما فى سمرنا المرة بعد المرة .

فالدراسة التى توفر فيها فى الكتائب كتاب من مطالعته وتجربته ومشاهداته فى حبيب والأمتية وغيرهما عن بلاد دولة العثمانية ، وهى كافية من كان فى مثل قطبته بالإحاطة بظواهر الاستبداد وخوفه والعلم بأثر الاستبداد فى أحوال الأمم الكثيرة التى كان من اليسير عليه أن يتصل بها بين موطنه وعاصمة السلطة الكبرى ، وليس عليه أن يبحث فى غير تجربة واحدة ليعلم كل ما أثبتته فى الكتائب من أثر الاستبداد فى الدين والهم واتحاد والأخلاق والثروة وعوامل التقدم . وتلك هى تجربته لمسعى « أفى لهدى الصيادى » ووسائله فى الاستئثار بتقبة الأشراف ومصعب شيخ المشايخ فى دولة . مع ذلك الجاه الذى كان يعينه على اللعب بمظهر المجد ومناورات سياسية كما يشاء .

وقد صدف الكواكبى النوفى فى موعد وصوله إلى القاهرة . فله وصل إليها وهى فى فترة من فترات انحطاط الدولة بين « يلدو » و « عابدين » ولولا ذلك لتميز بشر مقالات فى صحيفه المؤيد بمصر القصر الخديوى وهو يتحفظ غاية التحفظ فى الإشارة إلى الدولة بكلمة تؤيد وشية الخواشيس بها أنهموا به الأسرة الخديوية غير مرة من التطلع إلى الخلافة والعمل على إثارة الفتنة فى البلاد العربية . ولكن « المؤيد » يومئذ كان فى حل من ذلك التحفظ المشديد . يعزب عن استياء الخديوى من خطة الدولة ويومئذ إلى سادة « يلدو » بالمساومة على مواضع الخلاف

ومع هذا لم يستغنى الكاتب عن بعض المصدحة عند عابدين وحاشيتها

لتهوين الأمر على الصحبة ويسير مقامه في البيعة التي احتارها ولم يكن له بد من اختيارها ، فقد حرص على هذه المصانعة إلى أن خرج من نشر المقالات وأظهرها في أول طبعة فقال في تقديمها : « أقول وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان » ، الواجب اكتشاف المظالم الكرام بالقول عن قل ، إلى في ستة ثمانى عشر والثلاثة وألف وجدت زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزها حصرة سمي غم النبي العباس الثاني الماشر لوء الحرية على أكتاف مدكه ، فنشرت في بعض الصحف الغراء أبحاثاً عامة سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، منها ما درستته ومنها ما اقتبسته . غير قصد بها ظناً بعينه ولا حكومة مخصصة . إنما أردت بذلك تنبيه العاقلين لمورد الداء الذي عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسبون لما هم فيه ، فلا يعتبرون على الأعباء ولا على الأقدار .. » .

ولقد كان في وسع الكواكبي أن ينشر مقالاته في صحيفة من صحف الاحتلال التي كانت تنشر بمحاربة السيادة العثمانية خدمة للسيادة البريطانية . ولكنه لم يفعل ذلك لخرج عن صفته الإصلاحية الإسلامية ، وعرض نفسه لشبهات السعاية الأجنبية ، ووطن العزم على القطيعة الدائمة بينه وبين أسلاد المشمولة بسيادة الدولة والمطاسة بالولاء له في جوازاتها وشروط الإقامة فيها والرحمة بمنها وإليها ، ويظهر من كتاب اسمه وتوقعه بالحرف الأول منه أنه لم يكن قد وُطن العزم على ذلك عند وصوله إلى القاهرة ، وأنه أراد أن يختبر لحواله فيما حوله قبل أن يقطع بالعزم الأخير على المسلك الذي لا رجعة فيه .

• • •

والمرجح عندنا أنه طوى كتاب طبائع الاستبداد في حلب ولم يطلع عليه أصدقاؤه لسبب غير التحرج من خطره والخذر من إفشاء خبره إعتنا أصحابه بكتابه سره فإنه أطلعهم على كتاب أم القرى ومنه

من المجلدات ما لا يقل عن أخطر المجلدات في كتاب طبائع الاستعداد . فقد صرح فيه بالسيرة إلى الخلافة العربية وأكرت الخلافة على بني عثمان ورماهم بالتواطؤ مع الدول على التشكيل بمسلمي الأندلس . ومسلمي الإمارات الأموية ، وقد يرد على الخطر أنه أغفل هذه المسائل في النسخة المخطوطة وكتفى فيها بالتلميح دون التصريح وبالإشارة دون الإصباح ، ولكن الكتاب يشتمل بعد إغفال هذه المسائل على ما أخذ منكراً أحله على الأمراء المستبدين وعز فيها تحلف المسلمين إلى مساوئهم وسوء سياستهم وتخليصهم على رعاياهم وتقريرهم للمصلدين ولدجالين من الولاة ورجال الدين ، ولم يقل عن المستبدين كلمة في طبائع الاستعداد إلا كان لها بطير في معناه ومرماه من فصول أم القرى على السنة المسلمين الترك والعثمانيين ، وهو تصريح بالحكومة المقصودة لم يرد له نظير في ضائع الاستعداد ، إذ يتيح به عموم القول أن يعلن في تقديم الطعة الأولى أنه لا يقصد ظالماً بعينه ولا حكومة مخصوصة .

فليست الخطة من كتاب الكتاب عن أصدقائه الذين أطلعهم على كتاب جمعية أم القرى ، وإنما يرجح أنه طواه عنهم لأنه لم يفرغ من وضعه في صبعة النشر والتلاوة ، ووقف به عند تدوين العاوين ورؤوس التعليمات وإعدادها للتوسيع فيها وإفراغها في قالبها الأخير عند تقديمها للطبع أو للنشر في الصحف ، ويتبين ذلك من المقابلة بين مقالات المؤيد ومقالات الطعة الأخيرة بعد تنقيحها فإن الاختلاف بينهما أشبه بالاختلاف بين عمجاة التحصير وبين النسخة المتصلة للنشر والتلاوة . وقد ظهرت «طبعة المنقحة في صغى صفحات الطعة الأولى . وقال الدكتور عبد الرحمن الكواكبي به » ينشر هذا الكتاب للمرة الأولى على «عصم العربي منقحاً ومزيداً بقلم المؤلف ، وهو يختلف كثيراً عن النسخة المطبوعة والمتداولة حتى اليوم » .

ويروي الأستاذ سمي الكيالي عن الدكتور أسعد الكواكبي  
ابن المؤلف أنه أخبره : بأن والده رحمه الله قد أضاف على الكتاب بعد  
طبعه إضافات كثيرة ، وهو من التي يحتفظ بها بقلم والده المؤلف  
كتاباً مستقلاً بحجم الكتاب المطبوع وهو يعترم طبع هذه النسخة  
قريباً ليطلع العام العربي على ثمرة أفكار والده في الحرية والاستعداد .

ونجزم في المعارضة بين المطبعة الأولى وبين النسخة التي طبعها  
الدكتور أسعد وصدرت منذ سنتين . بالمقابلة بينهما في موضوع واحد يدل  
على سائر المواضع : وهو كلامه عن التربية .

في المطبعة الأولى وردت مقالة الاستعداد والتربية بالنص اسي نقل  
منه ما يلي إذ يقول :

« نحتق الله في الإنسان استعداداً للصالح واستعداداً للفساد فأبواه  
يصنعانه وأبواه يفسدانه ، أي أب التربية تربو باستعداده جسماً وروحاً  
وحقلاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وقد سبق أب الاستعداد المشغوم  
يؤثر على الأجسام فهوورث ، الأسقام ويسطر على النفوس فيفسد الأخلاق  
ويضبط على العقول فيمسخ نبعها بالعلم ، بناء عليه تكون التربية والاستعداد  
عاملين متعاكسين في النتائج ، فكل ما تهيه التربية مع ضعتها يهضمه  
الاستعداد بقرته واستعداد الإنسان لاحد لغيته فقد يبلغ في الكمال إلى  
ما فوق مرتبة الملائكة لأنه هو المخلوق الذي يحسن الأمانة وقد أبتأ كافة  
العالم ، وبصح أن تكون هذه الأمانة هي محور تربية النفس على الخير  
أو الشر ، وقد يتلبس بالردائل حتى يكون أخط من الشياطين بل أخط  
من المستبدين ، لأن الشياطين لا يناعون الله في عظمتهم ، والمستبدون  
يتأرعونه خيلاً ، ولكن الحاجة في النفس ، ولتقناهم في الرقابة قد  
يقبحون عناً لا يفرص ، حتى قد تعتمدون لإساءة لتسمهم »

« الإنسان في شأنه كالغصن الرطب فهو مستقيم لئلا يعلجه » ولكنها  
أمره التربية تميل به إلى بين الخير أو شغل الشر ، فإذا شب يمس

ويبقى على أمياله ما دام حياً ، بل تبقى روحه لك أبداً الأبدية في جحيم  
الدم عن التضيق أو نعيم السرور بل يقدم حق وظيفة الحياة . ما أشبه  
الإنسان بعد الموت بالمرح الفخور إذا نام ولدت له الأحلام وبالبحر الحلقى  
إذا نام فغشيته قورص الوحدهان بهواجس كلها ملائم وليلام .

أما في الطبعة الأخيرة فهذه المقالة ترد على الصيغة التالية :

« نخلق الله في الإنسان استعداداً للصالح واستعداداً للفساد ، فأبوه  
يصلحه وأبواه يفسده . أي أن التربية تربو باستعداده حساً ونساً  
وعقلاً ، إن خيراً محير وإن شراً فشر . وقد سبق أن الاستعداد  
المشتمل يؤثر على الأحكام فيورثها الأسقام ويسطر على النفوس فيفسد  
الأخلاق ويصغط على العقول فيسمع منها ما تعلم . سوء عليه تكون التربية  
والاستعداد عامين متعاكسين في النتائج ، فكل ما يبيد التربية مع ضعفها  
يهدمه الاستعداد بقوة ، وهل يتم بناء وراءه هدم ؟ . الإنسان لا أحد  
لعايته رقيقاً والمحطاً ، وهذا الإنسان الذي حوت العموم فيه البلى تحمل  
أمانة تربية النفس وقد أثبتها العوالم ، فأنم حلقه استعداداً ثم أوكله خبرته ،  
فهو إن يشأ لكامل يبلغ به إلى ما فوق مرتبة الملائكة إن كان هناك ملائكة  
غير نواظر الخير ، وإن شاء تليس باردائل حتى يكون أحط من الشياطين  
إن كان هناك شياطين غير وساوس النفس بالشر . أي أن الإنسان أقرب  
للشر منه للخير ، وكفى أن الله ما ذكر الإنسان في القرآن إلا وقرن معه  
بوصف قبيح ، كطوبم وغرور وكفر وجور وجهول وأثم . ما ذكر  
الله تعالى الإنسان في القرآن إلا وهجه فقال : قتل الإنسان ما أكفره ..  
إن الإنسان لكفور . إن الإنسان لى خس . إن الإنسان سطنى .. خلق  
الإنسان عموماً .. خلق الإنسان من عجل .

« ما واحد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته . فالمستبدون من  
الإنسان ينزعونه فيها . وفتاهون في الردالة قد يبرجون عبداً لغير حاجة  
في النفس . حتى وقد يعمدون الإساءة لأنفسهم

والإنسان في نشأته كالعصن الرطب ، فهو مستقيم بدن بطبعه ،  
ولكن أهواء التربية تعمل به إلى بين الخير أو شغل الشر ، فإذا شبه  
يبس ويبقى على أمياله ما دام حياً ، بل تبقى روحه إلى أبد الأبد في  
نعم السرور بإيفائه حق وخليفة الحياة ، أو في جميع الندم على تفريطه ،  
وربما كان له غربة في تشبيه الإنسان بعد الموت بالإنسان المفرح الفخور  
إذا لم ولدت به لأحلام ، أو بالمحرم الحزين إذا نام معشيته قوارص الوجد  
بواجب كلها ملام وآلام .

• • •

ولم تكن مقالة من مقالات طبائع الاستبداد من مثل هذا التفتيح أو  
مثل هذه الزيادة على فئة في بعض الموضع وكثرة في غيرها إلا أنه  
فارق بين المسحوقين كالغارق بين المسودة لمعدة للتذكير والتحصير والمسخة  
التي فرغ منها عمل التأليف .

على أن العبرة بروح الكتابة وما يسميه « نفس الكتب » في كتبا  
المسحوقين ولم تكن هذه « الروح » في المقالات ولا في الصبغة الأولى  
بأحقيتها في الصبغة التي ظهرت بعد وفاة المؤلف ، بل يرى أن روح  
الكتاب كانت في « مسوداته ومذكراته » أبرز منها في طبعها الأخيرة ،  
كما يتفق أحياناً في الكتابة التي تملأها اسجية عفو ومخاطر والكتابة التي  
يدخلها التفتيح وتعمل فيها المراجعة ، أو كما يتفق أحياناً بين الكتابة  
« المركزة » متجمعة وبين كتابة التيسير والإفصاح . وقد أحسن السيد  
محمد رشيد رضا حين شبه المقالات في الحالتين بالأديم المملود فقال في  
المنار إن « الكتاب كان مقالات مختصرة نشرت في العدد ثم عدّها  
صاحبها من الأديم العكايطي وراود عليها وكانت كتاباً حافلاً ينجلي له علمه  
الأول بهدوء أوضح وأجلى » .

نعم ، أوضح وأجلى ، ولكن الأديم هو الأديم ولعله قبل مدة كان  
أوثق وأقوى .

وسرعاد ما تداول القراء مقالة بعد أخرى من هذه المذكرات ،  
حتى هبأها صاحبها للنشر في الصحافة حتى أسهر أنها طبة في النقد  
الاجتماعي لم يعهدوها لعدة يكتب في الصحف . وعلموا من مطالعها  
أن بقلم رجل من رجال الدين فحظر لهم أنها لا تكون لغير رجل من  
رجلين : الأستاذ الإمام محمد عبده أو السيد محمد رشيد رضا تلميذه  
ومريده . ولستأ بحسب أنه مخاطر يحظر من يعرف أسلوب الرجيين  
وبحسب التميز بين وبين أسلوب تلك المقالات ، فإن بصعة أسطر من  
المقالات كافية للحرم بأنها أسلوب من الكتابة غير أسلوب الإمام وتلميذه  
الرشيد ، ولكن شيوخ هذا الحاضر يدل على اندرة التي قدرها جمهور  
القراء لصاحب تلك المقالات . فس يكون في تقديرهم إلا علماً من أعلام  
الرأى والإصلاح .

ولم تنقطع الظنون عند وقوف المطعين على سر مقالات المؤيد ،  
فقد كان من اليسير على الكثيرين أن يفهموا أن محمد عبده وتلميذه  
الكبير لا ينسج لهما صدر « المؤيد » مع ما بينهما وبين القصر الخديوى  
من الحصة والقطيعة . ولم يكن من اليسير على قراء ذلك العهد أن  
يفهموا كيف يدسنى هذا الحدث لكاتب شرق عرفوا أنه لا يعلم من  
اللغات غير اللغات الشرقية ، ولا يحسن لقراءة في غير لغة والمعتين  
التركية والفارسية .

قال السيد رشيد . : كنت على وفاق في أكثر مسائل الإصلاح حتى  
إن صاحب الدولة مختار ياث العازى أنهما بتأليف الكتاب عندما اطلع  
عليه .

ثم قال . : وقد رعم راعمون أن معظم ما في الكتاب مقتبس من  
كتب لفيثوف إيطالى ومن كان له عقل غير بين أحول الإمبرج  
الاجتماعيه وأحوالنا ودوقهم في العلم ودوقت يعلم أن هذا الوضع وضع  
حكيم شرقي يقتبس علم الاجتماع والسياسة من حالة بلاده حتى كأنه  
يصورها تصويراً .



وقد الأستاذ إبراهيم سبيل النجار ه سبق لي أن قرأت في شبلي  
كتب ( الكواكب ) مسوميل ) أي العقد لاجتماعي لجان حاك رسو  
ثم انقطعت عن الرجوع إليه . فيما قرأت كتاب طبائع الاستبداد أعاد  
إلى ذاكرتي كتاب الكاتب الإفرنجي عظيم . ولو كان الشيخ العربي  
يعرف ولو قليلا اللغة الفرنسية لاعتقدت أنه أخذ عنه أو احتسب  
حلوه . ولكن الحقيقة أن لقول النيرة والقبوب الكبيرة بيوة وكبرة  
مهما اختلفت لغاتها وبلادها وأقاليمها .

وإن الكواكب نفسه ليعنى القراء ولتقاد من مثوبة لظن في اقتباسه  
واطلاعه على وصف الاستبداد وعوارضه لاجتماعية في كتب غيره .  
ففيه قد ذكر ذلك في كلامه ونرجع به دون أن تدعوه الضرورة إلى  
ذكره . فكل ما يهم من قراءة « طبائع الاستبداد » أن صاحبه على  
علم واطلاع في موضوعه . وتلك بذرة لا حاجة إلى التذية إليها  
إذ كان من العجلة أن يطالب الكاتب بالتأليف في موضوع لم يكن على  
علم به واطلاع فيه .

أما أن يكون الاقتباس على مثل ما سميته بالسرقة المقصودة هلاك  
إسراف في لظن لا مبرر له سوء رجعت بالمعارضة والمصاهاة إلى  
الكتب التي سرد الكواكب أمثالها أو إلى الكتب التي أهدمت في هذا  
الموضوع ولم يكن في وسعه أن يطلع عليها أو يسمع بأسمائها .

قال الكواكب : « لا حياء أن السياسة علم واسع جداً يتفرع إلى  
فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى . وقبما يوجد إسان يحيط بهذا العلم  
كما أنه قلما يوجد إنسان لا يحكمك فيه . وقد وجد في كل الأمم المتقدمة  
عظام سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطاداً في مدونات  
الأديان أو الحقوق أو التاريخ أو الأخلاق أو الأدب ، ولا تعرف  
للأقدمين كتب مخصوصة في السياسة لغير مؤسسي جمهوريات في  
الرومان واليونان ، وإنما لبعضهم مؤلفات سياسية أخلاقية ككلية ودمية  
ورسائل غوردوغوريوس ومحرمات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب

الخراج . وأما في الشؤون المتوسطة فلا تؤثر أحداث معصلة في هذا الفن  
تغير علماء لإسلام . فهم ألفوا فيه مزوجاً بالخلق كالرازي والطوسي  
والعلاءي وهي طريقة الفرس ، ومزوجاً بالأدب كالمعري والمتنبي وهي  
طريقة العرب ، ومزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهي  
طريقة المغاربة .

و أما المتأخرون من أهل أوردة ثم أمريك فقد توسعوا في هذا العلم  
وألغوا فيه كثيراً وأشبعوه تفصيلاً ، حتى إنهم أفردوا بعض مباحثه  
إلى سياسة عمومية وسياسة خارجية وسياسة إدارية وسياسة اقتصادية وسياسة  
حقوقية إلى آخره . وقسموا كلاماً منها إلى أبواب شتى وأصول ومفردات  
أما المتأخرون من الشرقيين فقد وجد من ترك كثيراً ألفوا في أكثر  
مباحثه تأليف مستقمة ومزوجة مثل أحمد جودت باشا ، وكمال بك  
وصفيان باشا وحسن فهمي باشا ، والمؤلفون من العرب قليلون ومقلون ،  
والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعم رفاعة بك وخير الدين باشا وأحمد  
خادم وسليم الأستائي والمبعوث المثلثي . . .

• • •

ومن أيسر نظرة يدرك القارئ أن المطلاع أن الكواكب أراد أن يسرد  
بعض الشواهد على مبلغ اهتمام الأقدمين والمحدثين بعلوم السياسة ومباحثها ،  
وم يرد أن يستقصى مراجع الاطلاع في هذه العلوم والمباحث ،  
ولا مرجع الاقتباس منها في « طبائع الاستبداد » .

ولو أنه قصد إلى الاستقصاء لما قاته أن يذكر من كتب الأقدمين  
أهم ما كتبه فلاسفة اليونان وأفصله في باب ، وهما كتاب الجمهورية  
لأفلاطون وكتاب « سياسة لأرسطو » . وليس هذا ولا ذلك من رؤساء  
الجمهوريات ، ولا قاته أن يذكر الماوردي صاحب « الأحكام السلطانية »  
أو بدر الدين ابن جماعة صاحب « تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام »  
أو ابن تيمية صاحب « سياسة الشرعية » . أو محمد بن علي بن طهط  
صاحب « القحري في الآداب السلطانية » ، أو ابن حمدون صاحب

« التذكرة في السياسة والآداب الملكية » . وصبرهم وغيرهم ممن صنفوا  
والفوا في هذه المباحث ولا يعمت انؤرخ ذكرهم في مقام الاستقصاء .  
ولا يلزم أن يكون الكواكبي قد اطلع على كتب المؤلفين الصين  
ذكرهم في مقدمة « طبائع الاستبداد » ، وإنما يرجح أن بعض هؤلاء  
المؤلفين كان يستدعيه إلى قراءته يوغراء من سيرته ومساسات تأليفه .  
فن الصعب على باحث كالكواكبي يعرف التركية أن يعرض عن  
قراءه « أحمد جودت » الصدر الأعظم الذي بلغ من عدايته بالعربية أن  
يؤلف في نحوها والاعتماد ويعقب على التفسيرات القرآنية فيها . ولم  
يكس أروج من مصنفاته بين أدباء الترك والعرب بعد وفاته في أواخر  
القرن التاسع عشر ( ١٨٩٥ ) ومن الصعب كذلك على كاتب مثله  
يعرف عارسية أن يعرض عن قراءة العلافي الملقب باعقبي الثاني  
( ١٤٦٣ - ١٥٣٤ ) وهو المنشور الأمين المأمون للشاه جهانباز بن  
إسماعيل الصفوي الذي ينسب والكواكبي إلى أسرة واحدة . ولكنا  
راجع هؤلاء المؤلفين وراجع غيرهم من المذكورين في مقدمة « طبائع  
الاستبداد » فنعلم أنهم مؤرخون يروون أخبار الدول والحكومات  
ويعقبون على عهود السلاطين والأمراء ويتحدثون عن العدل والظلم  
وعن العادلين وخطبين في مساق هذه الأحبار . أو نعم أنهم من فلاسفة  
السياسة الذين يفصلون القوي في أوضاع الحكم ودراسة الديمقراطية  
ولنظم الشريعة ، أو أنهم ناصحون من حكماء الدين والمعرفة يوصون  
بخير ويحذرون من الشر ويعطون الأساس بما ينبغي وما لا ينبغي في  
حق الله وحق الرعية ، ولم يستخرج أحد من كتبهم مبحثاً مفصلاً في  
تحميل عناصر الاستبداد وتفسير عيوبه وأعراضه وآثاره في طوائف  
الرحايا على تعدد أصوارها وشواغلها كهذا المبحث الذي ستوحاه الكواكبي  
من تجاربه ودراساته ونظرائه وتأملاته ، ولا يعود الفضل فيه إلى غير  
وضته وانتكده واستملاله بفهمه وحمه بصره . فإن هذه المطالعات قد  
اطلع عليها المشتات كما اطلع عليها الكواكبي ولم يستخرجوا منها الكتاب  
الذي انقرد به ولم يسبقه أحد إليه .

( الكواكبي )

وإنني بصديق وصف الاقتباس على مؤلف واحد لم يذكره الكواكبي.  
في المقدمة ولكنه ذكره واستشهد به في كلامه على التخلص من الاستبداد ،  
(فتوريو الفيري) ، الذي أُرِدَف اسمه تحت اسميه في قوله : « لهذا  
أذكر المستبدين بما ألزهم به العباد المشهور حيث قال : لا يفرح  
استبد بعظيم قوته ومزيد احتياظه فكلم من حارب عبيد حمله مظلوم  
صغير ١٩ » .

ولا بد أن يكون هذا المؤلف هو المقصود فيما رواه صاحب المنار  
عن يسعون أفكر الكواكبي إلى « فيسوف إيطالي » معروف . فانه  
صاحب أشهر كتاب عن الاستبداد ظهر في أواخر القرن الثامن عشر  
( ١٧٧٧ ) ، وشاع بعد ذلك أياما شيوخ بين أبناء الثوار الإيطاليين ،  
ولا سيما جماعة الكرموناري - النجاشين - الذين أسسوا جمعة سرية  
معارضة لجماعة البائين أو المدعون ، ونسب أعضاءها إلى كل مكان  
ينشأه الإيطاليون في موانئ البحر الأبيض وممد شرق الأدنى ، وصفا  
مدينة حلب التي كانت « مركزاً مهماً » لتجار البندقية والمتكلمين بالفسحة  
الروسكينة ، وآوى إليها كثير من المثقفين والمهاجرين السياسيين مدد راجت  
فيها حركة التجارة على طريق الهند والأقطر الآسيوية

وبين « الكواكبي » و « الفيري » شبه قريب في السيرة والمسرع  
وظروف الحياة ، فكلاهما تعود الرحلة في طلب المعرفة بأحوال الأمم ،  
وكلاهما اضطر إلى الكسبية في ظل الرقابة ، وكلاهما نزل مختاراً أو مضطراً  
عن ثروته وعتماده ، وزد « الفيري » فأسلم ما بقي له في الثروة إلى أخيه  
لنقله منها نفقته التي يحتاج إليها ، رغبة منه في لتفرغ للرحلة والكفاح  
بالقلم والدعوة السياسية .

وكتب « الفيري » مقالاته عن الاستبداد Della Tirannide فظهر  
فيها أثر اطلاعه على « روسو » و « منتسكيو » وعلى « ميكافلي » من  
قبل ، ولم يظهر فيها مذهب خاص يميزه للباقي أن يصممه بالفيلسوف

كما وصفه «ماتلون» بأن الكواكبي نقده بحروقه واعتد عليه في تفصيل آرائه

والتشابه بين رؤوس الموضوعات يد من النظر العابرة إلى صفحات «كتابين» فقد كتب ألقيرى في تعريف الاستبداد وتعريف المستبد ، ثم كتب عن الخوف والتمسك والطموح ، وورداء المستبد ، ثم كتب عن الانحلال والدين والمقاومة بين الاستبداد القديم والاستبداد الحديث وعن «شرف المريف» وأما الكاديب وعن نفوذ الزوجات في عهد الاستبداد وعن وسائل المقاومة للاستبداد وعن الشعوب التي لا تحس العليان وعن الحكومات التي تركى إليه ، ونظر في جميع هذه الموضوعات إلى أطوار الأمم لأوربية على خلاف منهج الكواكبي في النظر إلى الأمم الشرقية والتمسك في وصف أحوالها ، مما يجبرك أن تقول إن مؤلف أم أقرى كان خليفاً أن يكتب آراءه عن الاستبداد ولو لم يطلع على الرسالة الإيطالية ؟

ويتساءل الأستاذ أحمد أمين كيف وصلت الرسالة الإيطالية إلى علمه ؟ وهو سؤال لا جواب له غير الحيرة إن لم تكن للكواكبي رسالة أخرى للعالم بألقيرى غير العلم بعته إلا أنك تعلم من «طبائع الاستبداد» إن ألقيرى كان مشهوراً عند الكواكبي في زمانه ، ولعل أن هذه الشهرة لا تستغرب مع كثرة الإيطاليين في حب ورغبة الكواكبي في الاستفادة من معلومات أصحابه الأوربيين المثقفين وهو كثير الاتصال بهم وهم يلقونه على الدوام في أعماله وأعمالهم ، وقد كان اسم «إيطالي» المنة على كل لسان بين طلاب الحرية العثمانيين ومنهم جماعة «تركيا الفتاة» الذين استعاروا اسمهم من اسم الجماعة الإيطالية ، وقد كان الإيطاليون يسمون في تلقين دعوتهم ولا يتعلمون من يسألهم عنها ، وكانوا ينتشرون في سواحل البحرين الأبيض والأحمر ويشرون في أيديهم لسرية التي تنحى إلى طوائف «المحاميين» ونحاول أن نراحم في ميادين السبحة طوائف الماسون - أو الباشين الأحرار - التي تطلب عليها في

الشرق نفوة الإنجليز والفرنسيين ، ومن تاريخ الكواكبي بعد الهجرة من حسب أن علم أنه كان يلتقي بوكلاء الحكومة الإيطالية في شواطئ بحر العرب وينتقل على إحدى السفن الإيطالية بإذن من أولئك الوكلاء ، فليس بالعسير بعد ذلك أن يعرف الكواكبي شيئاً عن الكاتب الإيطالي المشهور « كما وصفه في كلامه » ، وأن يلم برؤوس الموضوعات التي طرقتها في رسالته عن الاستبداد وهو مشغول بمكافحة الاستبداد مثله صاه ، وأن يعرض تلك الرسالة عما يقابلها معارضة الشاعر في القصيدة المأثورة بسببه ، ولا يتقل منه شيئاً بهذه المعارضة خبر نوزن والقفية ، أو غير العنوا والمسة .

ونحن نرجح هنا الاحتمال على قبول بعض المعاصرين لك الكواكبي اطلاع على ترجمة تركية لطبائع الاستبداد من عمل كاتب من أحرار التراء المهاجرين إلى سويسرة يسمى « عبد الله أسيس » فلما نشك في ذلك لأن مثل هذه الترجمة لا تطبع بروث في السلاد العثمانية ، ولقد طبع في مصر علاه أن تكون مداوله مبهوده بين العثمانين أصحاب الكواكبي فلا يهمل ذكرها ولا يختلف لباحثون في أمرها عند السؤال عن مصدرها ولا يخفى حقيقة هذا الأمر على مختار ناشا العدرى وهو وكيل السولة العثمانية المستول عن أخبار هذه المنشورات التي تراقب السولة .

وأصاب السيد رشيد رضا إذ قال إن ماحث طبائع الاستبداد لا يكتبها قلم أوربي ولا يقتبسها شرف من لمراجع الأوربية ، وتريد على هذا أن « ألميري » نفسه لا يستطيع أن يصور عناصر الاستبداد كما صورها الكواكبي من وحى بحاربه وتأملاته في السلاد العثمانية وفي بلده وإقليمه بصفة خاصة ، لأنه يحس « مصورة » تريبه ما يقع عليه حسه ولا تريبه ما لم يشهده بعينه .

فلذا كان جهل الكواكبي بالإيطالية يبعث على استعراب علمه بألميري ، فإن جهله بهذا الكاتب خاصة هو الغريب من رجل بعشر

لإيطاليين ويسمع بثورتهم ويسمع أن ثوار الترك يستعيدون منهم قسطنطينية . ويسألهم ولا مثلك عن كائنهم « المشهور » أو يتقى منهم البيان عنه بغير سؤال .

وما كتب تشبه أن اتصال الكواكي بالإيطاليين قبيل لا يسبح بهذه المعرفة ، وإعنا تشبه أنها كانت تريد على الآراء طلبة المعرفة ، حتى خطر بعضهم أن تمتد من لصحة إلى « التواطؤ » على سياسة الحقبة ، فلولا تصادفة التي وقعت على الرغم من الكواكي به تقع باختياره ولا بتدبيره لاستعصى على المدافع عنه أن يستجيبها بغير حسن لظن وصدق المراسلة .

« حيث في يوم ما أن فنصل دولة إيطالية في حلب ، استبور أنريكو ويتو - بينما كان ركاً عربته ماراً في محلة الخيول ، التي هي محلة السيد عبد الرحمن الكواكي ، إذ وقع على ظهره حجر عائر صدمه صدمة عبيقة تألم منها جداً . حيث اضطرنه أن يعود إلى منزله وأن يرسل إلى الوالي تقريراً يطلب فيه منه المبحث عن الصارب وإجراء العقوبة القانونية » . هذه الحادثة فتحت للوالي دأباً يلج منه إلى الصديق هذه الجدية بالسيد الكواكي ، لا سيما وقد كانت الحادثة في محله وعلى مقربة من داره ، وفي الحال أوعز إلى بعض شياطينه بأن يروح إليه تقريراً فحواه أن الكواكي منضم إلى عصبة أرمنية وكانت ثورات الأرمن في تلك الأيام كثيرة - وأنه من يومين أعزى بعض الناس فرشق على قنصل إيطاليا حجراً أصاب ظهره ، محملاً بسنك إحد عشر ثوراً بين الأرمن والمسلمين تحت . وفي الحال أصدر الوالي أمره باللقاء القبض على الكواكي ورجه في السجن ، وما أسرع ما أخرج من السجن مخفوراً وأجلس على كرسي المحكمة لإصدار الحكم عليه <sup>(١)</sup> .

ويستوى تهام الكواكي في هذه القضية ويردته منها في كذب الوشاه الذين رجموا بالظن فجعله صبيحة الإيطاليين ، فإن الصنيعة لا يسلمه حماة المزعومون إلى الموت وهم ينظرون .

(١) العهد الثالث من مجلة الكتابية عدد يناير ١٩٤٧

## شخصية مكونة

كان مربع القامة ، حنطى اللون ، مستدير الوجه ، نحيف  
العارضين ، ألقى الألف ، واسع الحين ، عيني زرقاوين ، معتدل  
المنة . لا غائرها ولا جاحظها . معتدل فتحة الفم . أرج الحاجبين ،  
صعب أطراف ، معتدل الجسم بين السمن والهنال ، أسود الشعر ،  
قد ونخطه الشيب حين طارق جلب إلى جهة مصر .

هكذا وصفه صديقه الأستاذ كامل مغزى . ووصفه الأستاذ إبراهيم  
سليم لتجار ، وهو ممن عرفوه وصاحبوه فقال : « كان ربع القامة تميل  
إلى الطول قليلا . أبيض الوجه بياضا مشربا بشيء قليل من الحمرة ،  
شأن سكان البلاد الباردة ، . وقد أحاط بخديته بحجة قصيرة كانت  
كالإطار لوجهه » مد فيها لشيب خيوطه .

ووصفه ابنه الدكتور أسعد فقال : « كان ربة إلى الطول أقرب ،  
عوى انية ، صحيح الجسم ، عصي المزاج ثاق ، أشبه العينين ، أرج  
الحواجب ، أبيض اللون ، واسع الفم ، عريض الصدر ، أسود شعر  
الرأس والذقن ، متأنق في لباسه ، يتكلم بجهر هادىء وطلاقة وابتسام ،  
يحسن السباحة والصيد والعروسة . »

وسمعا وصف سجايه وملكانه العقبة ممن عاشروه : كما قرأنا هذا  
الوصف بأقلام مترحميه ، فرأيناهم يتفقون على سجايه خلقه وملكان  
عقله ، اتفاقهم على سمائه وتكوين جسده . كأنهم ينظرون إلى ملامح  
محسوسة لا تخطى العبر رؤيتها ولا يختلف الناظرون إليها في وصفها ،  
فما من ترجمة له لم تبرز في الكلام عليه صفات الوقار والحلم والنقطة  
والنجدة وعمه اللسان وحسن الملاحظة وصدق الإرادة ، وكأنه ثبتت



هذه الصفات في نفوس عارفيه ، لأنها جاورت أن تكون صفات مقدورة وأصبحت أعمالاً متكررة يؤيد بعضها بعضاً فلا ينساها من رآها وسمع بها وبآثارها . وهي قد أصبحت فعلاً في عداد الأعمال المشهودة ولم تبق في حيزها من عالم السجاي والأخلاق ، ومنحت لها منادح الظهور والثبوت مرات في جملة الوظائف التي عمل بها فكان في كل منها أمين الجهر والسر خبيراً بحصنه غيوراً على بضعها ، حريصاً على واجبه متطوعاً بما يريد على الواجب كلما دعت إلى ذلك دواعي السجدة والإعصاف .

ثم خلا من أعمال الوظائف فكانت بطائفة في عرف الحكومة أدعى إلى إيراد تلك السجاي والمساكنات من كل وظيفة تولاها . إذ كان يشغل وقته بالتطوع بدفع الظالم وإبلاغ الشكايات وتمحيص الأسانيد ونهوض بكائيف الرئاسة وأعيان بوكالة الموروثة التي ألقاها على عاتقه مكانه من العلم ولوجهاه وسابق الخبرة بولاية أعمال الناس ، وافتتح لهذه الأصحاب مكاناً مستعداً مفتوح الأبواب لمن يقصده بهر جزء ، بل يحسن انتمه أحياناً عن أصحاب الدين يعيهم حملها من دوى الحاجات .

لا جرم يتفق و صموه على مسجايه وملكانه . بل على صنائعه ومجعله . كانفاقهم على ملاحظه ومسماته ، فلما ملامح مشهودة وصفات جاورت حيز الظنون إلى حيز الأعمال .

ومرجع ذلك إلى أننا هنا أمام « شخصية مكونة » تمام كيانها اثنين على أوسع عمق من عوامل بدنها وأسرتها وظروف زمانها وظروف حياتها وسائر مقوماتها وعناصرها وتكد كل صفة من صفات الكوكبي تنسب إليه فلا تعجب لاتصافه بها ولا تنقب طويلاً حتى تجد تفسيرها كاهياً ماثلاً في عامل من تلك العوامل متأصلة في ظروف زمانه أو ظروف مكانه .

رجل يتطلع إلى قلب دولة وإقامة دولة من طريق الدعوة  
أى عجب أن يتطلع إلى ذلك رجل يعلم أن سلهاً من أسلاف أسرته  
أقام الدولة لصهرية من طريق الصومعة والمدرسة في بلاد غربية عن

بلاده . وأن الدولة التي يريد أن يلقاها قد تزعزعت في موطنه ولم تعد إليه بعد فترة لا وهي على حال من التزعزع لا تؤك بالسوام ؟ .

رحل دائم الشعور بعرويته شديد الغيرة على نسبه العربية .

أي عجب أن يكون كذلك من يرجع إلى تاريخ بيته من قبل إبراهيم عليه السلام فيعلم أنها عربية ولم تول عربية محس عرويتها كلما أحست أنها «تجان من أجل هذه العروبة وتظلم في سبيلها ؟» .

رجل يتصدى للجهاد في هذا السبيل ويهتص بأمانة لإمامة فيه ولا يتمس لنفسه العلو في التحف عنها .

أي عجب أن لإمامة رجل تورث الإمامة في بيته قطبته قبل أن يطلبها

ورجل يعرف الاستداد فلا يصبر عليه ولا يستقر معه على قرار .  
مهل من عجب أن يكون كذلك مصعب بعسف الاستداد في سريره وفي تراث قومه وفي حقوق عشيرته وآله وأقرب الناس إلى حوارته

ولأنه يعلم أثر الاستداد في الدين واندنيا ، فأى عجب في هذا العلم وهو لا يطلب منه إلا أن يعم كيف توصل الكعبة من رجال الدين إلى اختصاص حقه وحق بيته ، وكيف يختصون السب والحسب ويترقبون الشعائر والشرائع ليصنعوا من ثم إلى مجالس الصدارة في الدين والدنيا وبين الرعية والرعاة ؟

ورجل يتحيز للثورة ، فأى عجب في ذلك وهو يعيش في عصر الثورة ؟ .

ورجل يتصل بالعم في زمانه فلا تحق عليه خافية من أخطاره وخطوبه ، فأى عجب في ذلك وهو في بلد تنسى عنده طرق العالم ولا ينقطع عنها أو ينقطع عنه لوارثون إليه والطارئون عليه في منعه وحره ؟ .

رجل واحد مدته لحداث لرسائله ولم تنب لها أحداً غيره ،

فأى عجب في ذلك وهو لدى تبيهاً لتلك الرسالة بالاستعداد لها وتفسيره  
عليها : الشعور بدوافعها والتعجز عن إغماظها والإعضاء عنها .

\*\*\*

وقد تجرد الكواكب لرسائله وتفرّد بها في منتهى لأن هذا الاستعداد  
الموروث منذ انقضاء بساطه استعداد خاص به من فطنته وخلقه ومطالعته  
ويواعظه النفسية . فلا تكفيه الفطنة وحدها لأن المعينة لا تقدم ولا تؤخر  
ما لم تسددها الحلائق التي تصبر على الشدة وتقدم على الخوف وتصلح  
بتكاليف النجدة والمروءة ، ولا تغيب الفطنة والخلق بهير البراءة  
النفسية التي تشير «صغير» وتسبحش الخاطر ، ويعبر اليأس الذي استفاده  
من هرسته وإطلاعه وحسن إصبعائه إلى قوى المعرفة والخبرة من جهة .  
ومن امصادفات البادرة أن يجتمع ذلك الاستعداد الموروث من القدم  
وهذا الاستعداد الخاص بصاحبه لأكثر من سبع واحد في حصة واحدة ،  
وهو كافي لارتداد بدعوه الأول على منه الطبيعة من نقصه في غير ضرورة  
للسرعة والزيادة .

\*\*\*

والشخصية المكونة المسورة لرسائله هي هذه الشخصية التي تعاونت  
فيها العوامل هذا التعاون بين حديث وقديم وبين خاص وعام ، وعلى  
هذا التكوين بنيت « شخصية » الرائد الذي كتب « أم القرى »  
و « طلائع الاستعداد » .

كأن الرجل قضية حية متعقبة المقدمات والنتائج

كأن شخصية قوية حية لا موضع فيها بغوض أو البرء

مفتاحه . إذا انقضى المفتاح لبعض روايته أنها « شخصية عزيز هوم

مغضب الكرامة وكرامة قومه »

وأن أن نفس هذا مفتاح كل سر فيها من أسرار الأعمال أو

أسرار الياث

\*\*\*

## في مصر

وصل الكواكبي إلى مصر في منتصف شهر نوفمبر سنة ١٨٩٨ وتوفي بها في شهر يونيو سنة ١٩٠٢ وتخلل هذه الفترة رحلتان ، قال صديقه صاحب المنار عنهما : « لأنه وجه هدته أخيراً إلى التوسع في معرفة حال المسلمين ليس في الإصلاح على مصيرة ، فبعد اختباره التام لبلاد الدولة العلية تركها ، وعربها وأكردها وأرامها - ثم اختاره لمصر ومعرفة حال السودان عنها ، صاح عند سفن في سواحل إفريقيا الشرقية وسواحل آسب العربية ، ثم أتم سياحته في عدم المصير فحضر بلاد العرب التي كانت موضع أملة أتم الاختبار . فإنه دخلها من سواحل المحيط الهندي وما زال يرضل فيها حتى دخل في بلاد سورية واجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل وصرف استعدادهم الحرب ولأدنى وعرف حالة البلاد الزراعية وعرف كثيراً في معادنها حتى إنه استحضر نموذجاً منها وقد انتهى في رحلته لأخيرة إلى كراچی في موانئ الهند وسحر الله له في عودته سمينة حربية إيطالية حملته بتوصية من وكيل إيطاليا السياسي في مسقط ، فطافت به في سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقيا الشرقية ، فتسمر له بذلك اختار هذه البلاد ختاراً سبق به الإفرنج وكان في نفسه رحلة أخرى يتم بها اختباره للمسلمين وهي الرحلة إلى بلاد لغرب ولكن حانت دونه المنية التي تحول دون كل الأمان والعزائم .. »

وقال الأستاذ جورج ريدان في كتابه عن مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر عن رحلته : « وما يذكر له وبأسف لتضييع ثماره أنه رحل رحلة لم يسبقه أحد إليها ويندر أن يستصعب أحد غمره وذلك أنه أوغل في أواسط جزيرة العرب ، فأقام على متنو الجمال نبغاً وثلاثين

يوماً . فقطع صحراء الدهناء في اليمن ولا بدري ما استطاعه من الآثار التاريخية أو الموائد الاجتماعية معسى أن يكون ذلك محفوظاً في جملة متخلفاته . وتحول في هذه الرحلة إلى الهند فشرقي إفريقيا أيضاً وكان أجله ينتظره فيها .

والمؤرخ الحلبي الأستاذ العري . وهو صديق الكواكبي ، يذكر هذه الرحلات فيما كتبه بمجلة الحديث ويشير إلى إشاعة القائلين إن الخديوي عباساً مستدعاهم ليقوم بالدعاية لخلافة مصرية ويسمى لدى المشيخ وعرب الإمارات في ذلك ، ويروي أنه جاءه كتاب من قنصل إيطاليا في حديدة اليمن - وهو من أسرة الصولا نحل يسمى هريتناك ميخائيل - يذكر فيه أنه جتمع بإسديد عبد الرحمن الكواكبي أثناء هذا الطواف (١) .

ولا تفصل هذه الإشاعة عن إشاعة أخرى صحواها أن الدولة لإيطاليا يسرت له الرحلة لأنها كانت تضمع في نجاح اسمي إلى طاع الخلافة التركية منذ توجهت محاولاتها الاستعمارية إلى شواطئ البحر . لعلها تستفيد من مصادقة الخلافة العربية المنتظرة بعد إقامتها على مقربة من مناطق نفوذها .

ولابد لكل ملصقت إلى هذه الإشاعة أو تلك من تفسير التدقيق بين لعمل للخديوي عباس والعمل للإمامة العربية القرشية ، فإن عباساً لا يبدل لما من يسعى في إحباط مساعاه وإلثار سراه عبيه ، ولا مصبحة للدولة لإيطالية في إقامة الخلافة بأرض يحتلها الإنجليز ويسيطرون بها على شواطئ البحر الأحمر من شملها إلى حذرها ، وليس ارتباط الأسرتين بالكتين في إيصال ومصر كاهياً لحمل الدولة الإيطالية على اتباع هذه السياسة ، فلان أحد من التفسير القاطع للظنون بين قولين لا يتفقان ، وإن تمقا في شيء واحد وهو حرب الخلافة النهائية

• • •

---

(١) مجلة الحديث (١٩٥٦) ، ركناب عبد الرحمن الكواكبي ، للدكتور سامي الدهان .

أما اتصال الكواكبي بالخدوي عباس فيكفي في تفسيره أن الكواكبي قد وصل إلى القاهرة خلال أزمة من الأزمات المستحكة بين « عابدين » و « يلدر » رئيس « عابدين » ولا بدقة الأشراف « التي كان « أبو الهسي الصيادي » يتولاها في عاصمة الخلافة . فلا غربة في اتحاد الحطة بين الخديو وبين صاحب طائع الاستعداد في تلك الفترة . ولا في التحالف بينهما على تقاء الشر من دسائس « يلدر » ودسائس « بقاة الأشراف » في آونة واحدة .

وكانت هذه الفترة من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٢ أصلح الأوقات لانفتاح الكواكبي في مساعيه بريرة القاهرة . فبه استطاع أن يبشر مقالاته في « المؤيد » صحيفة الخديوي الشبيهة بالرسية . وبذلك لاخطر إلى الكتابة في الصحف المتهمة بخدمة لاستعمار تعصياً مما للدول الأوروبية على دولة الخلافة . وم يسلط هذا الطريق دافع من دعاة الإصلاح في العالم الإسلامي إلا تعثرت به السبل من خطواته الأولى

ومضت هذه السنوات والخديوي عباس يقطع الآستانه ويأبى أن يعصم إليها في رحله الصيف قبل أن يفاج رسله إليها في تسوية لمشاكل المعقة بين يلدر وعابدين . ومما مشكله قضية مصر من قبل لآستانه ومشكلة جريدة « طشور » التي اسردها سلطان من لأسرة الخديوية . ومشكلة الصحافة التي تحمل على الدولة ويصرح المسئولون في القصر السلطاني بتمائها إلى الخديو . أو بأن الخديو على الأقل يقصر في استخدام نفوذه لإسكتها . وقد غضب الخديو غضباً شديداً يوم علم أن حاشية السلطان اتصلت بالسفارة الإنجليزية تسأله أن تتوسط عند الوكالة البريطانية في القاهرة لكف الخدمة على السلطان في صحفها لعربية والأجنبية وقد سافر أحمد شفيق باشا إلى لآستانه في مهمة الوالدة للاحتجاج على ذلك وعلى غيره من مسائل الخلاف بين الأمر التبع والسلطان المتبوع .

قال شفيق باشا في مذكراته . أول مايو سنة ١٨٩٩ - إنه أمر

هذه المسألة في حديثه مع باشكاتب المايين وأبلغه أن الخديوى يشعر بالإغصاء عنه « في عدة مواقف آخرها أن المايين قصد إلى الحكومة الإنجليزية ليشكو إليها علوان صحيفة من هذه الصحف تصدر في مصر » كأن الخديوى وكيل السلطان الشرعى غير موجود » .

وشدعت أحبار هذه المشاكل في دستور اسيامية بالأمستدة فاستطلع السمرء أسرارها وتحدث غير واحد منهم إلى شفيق باش عن حقيقتها ، ولا سيما سفرء الدول التى كانت تقوم الاحتلال البريطانى ومنها يومئذ فرنسا وألمانيا وروسيا قال شفيق باش : « وفى اليوم التالى ردت سفرء فرنسا مسألتي عن سفرء سمو الخديوى بالأمستدة فأشرت إليه بأنه قد لا يأتي في هذا العلم نظراً لأشياء لا تشجع سموه على الزيادة . ولما سألتني عنها بالخاص أخبرته موحراً مسألة الصحف فقال لي في النهاية إن كل شيء يزول عند وجود سموه بالأمستدة ثم قال : لأننى سأنتهز كل فرصة وأعرف السطور بالحقيقة وأكرر عليه ما سبق أن قلته وهو أن من صالحه أن يجهش الخديوى راضياً لأن سموه لو خلع الصلابة لأوقع الخليفة في أوتياك عظيم » .

ثم قال « وزرت السفارة الروسية فقابلني مكسيموف المترجمان لأول وله جهود عظيم في المدين ورحب بي وقال لي إنه علم بمسألة الصحف لأسف لما وقع .. » .

ومعنى شفيق باش يقول « ثم ذهبت إلى المايين ثم إلى جديداً ، وهناك قابلت بحبيب بك ملحمة قوميسير العدل للدلالة في سبغ ، فتعرفنا بعد قليل ، ودارت بيننا أحاديث أخبرني خلالها أن جماعة أئى الخديى أرادوا اجتناابه نحوهم ، فطلبوا منه أن يرسل تقريراً ضد الخصرة الخديوية وكان بواسطة في ذلك كريم أفندى صاحب جريدة تركيا التى تطلع في مصر ولكنه أحبه الأورق لئى تثبت ذلك ورفعها للسلطات فحصلت له الإرادة بحفظها عنده .. » .

ونقل شقيق باشا في مذكرات سنة ١٩٠١ ، في ٢٤ نوفمبر أبلغني  
تحسين بك أن أباه الذي تمكن من دخول السراي بعد أن كانت علاقته  
بها على غير ما يرام ، وألقى بمصيبة صد الخديوي مؤداها أن سموه  
تأمر مع رعت باشا الصدر الأعظم بلدي تولى أخيراً ، والقرلر أخشى  
والمشير فؤاد باشا وغيرهم لخلع السطون وتولية ولي العهد ، وأن المتأمرين  
أخذوا رشوة قدرها عشرون ألف جنيه بواسطة الكريسي ليوبيه وأن  
كتب بواسطة بيي الخديوي ودره دأمدى ولي العهد في هذه المؤامرة .

وكان الخديوي في هذه الأثناء يسافر إلى الصحراء العربية فيتلقي  
نقاير الجواسيس بأنه « سيقابل هناك شيخ حثية وكيل السوسى للمحاضرة  
معه بشأن الخلافة العربية »

وفي أول يونيو سنة ١٩٠١ كتب شقيق باشا في مذكراته . . . إن  
بطرش خالى باشا ناظر الخارجية توجه من قبل كرومر إلى الخديوي وأبلغه  
أن الحكومة الإنجليزية ورد لها بلاع من سفير الدولة بشرة يقول فيه  
إن سموه أخذ في إرسال مباحث وقود إلى الثائرين في اليمن .

وقال بعد ذلك إنه « في ٣١ أكتوبر طشت للسراي وعرض على  
تحسين بك صورة منشور عليه توقيع الخديوي بصفته خديوياً بسعر  
المسلمين فيه للخروج على السطون ومنايعته بالخلافة ولكن جلالة  
الخليفة عرف أن هذه دسيسة »

ودامت هذه الحفرة إلى صيف سنة ١٩٠١ حين شعر الخديوي بالتضييق  
عليه من قبل الإنجليز . فأخذ في التمهيد لإصلاح العلاقة معه وبين  
السطون ، وقرّر السفر إلى الآستانه من أب يبعه لدعوة السلطنة بالخصوص  
إليها كما جرت بذلك مراسم المايث .

. . .

ولا ندرى هل كان الكوكبي يتحين الفرصة المثالية لسفره من  
حلب إلى القاهرة ، أو أنه نزل بها فوجد الفرصة مواتية له بعد وصوله



إليها . ولكن هذه الفرصة كانت ضرورية له في عمله واستعداد منها أنشاء  
مقامه بمصر وأنجز كل ما أراد إنجازة فيها قبل رحلته إلى المشرق وقبل  
تقلب الموقف وتراجع الخديو عن خطته الأولى فسرعان ما « اعتدل  
الحو » بين « يندر » و « عابدين » حتى جاءه النبأ من قبل الخديو  
يوصي إليه بما لا يحق عليه . إذ عرض عليه أن يصحبه إلى الأستانة ليعلمه  
إلى السلطان ويعيده إلى حظيرة رضاه ولم يكن ينبغي على الكواكبي  
معزى هذا لاقتراح التصريح فإنه سواء قبل السفر إلى الأستانة أو اعتذر  
منه خفيق أن يفهم أنه مطالب بالسكوت عن السلطان أو مازحة البلاد ،  
ولا بد شاء أن يمحكها في حماية الاحتلال .

ونحن لم نسمع بهذا الخبر من أصحاب الكواكبي الذين لقياهم وممننا  
مهم الكثير من أحبار مع الخديو ومع الأستاذ الإمام ، وإنما يقول على  
رواية الأستاذ كرد عني في الجزء الثاني من مذكراته التي يقول فيها :  
« وجدت ذات ليلة يسمر معي في دارى مع الحبيب رفيق بك العظم  
يستشبرني في أمر عظيم . قال إن الخديو عباس عرض عليه أن يصحبه  
إلى الأستانة - وكان الخديو مصطفى فيها - ليقدمه إلى السلطان العثماني  
ويستحب رضاه عنه . وملك تتحل هذه المشادة ويطمئن خيفة الترك  
إليه فصعب علي وعلى رفيق بك إبداء رأي في موضوع جسد خطير  
كهذا لأن ابن عثمان لا تأخذه هواة فيخرجوا على سلطانه ، وخشينا  
أن تكون هناك دسيسة تذهب برحل صحيحها . ولما قال لنا : إنه حائر  
في أمره بين القبول والرفض ، وإبه شعر بالأمس بوجع في ذراعه وما عرف له  
تعليل ، وتقوص المحس وذهب السيد الكواكبي إلى داره في هي إلا ساعة  
وبعض ساعة حتى سمعت إليه السيد كاظم في الدب يبكي وينوح ،  
ويقول قم يا كرد عني ، فإن صديقك أبي مات » .

وظاهر من سيرة الكواكبي في القاهرة أنه لم يقم بها إقامة طويلة متوالية  
ولمّا كانت إقامته بها منقطعة تتخللها الرحلة بعد الرحلة على النحو الذي  
تقدم بيانه في ترجمته بأقلام أصدقائه :

أما المعلوم من أخبار إقامته بها ومخلاصته أنه كان يؤثر السكن في  
الأحياء الوطنية بين شارع محمد علي ولحي الحسيني إلى حواف الجامع  
الأزهر ، وكان يؤثر في صحبته من يلقونه ويقفهم أن يتجنب التحيز والتشيع  
لهذا المريق من أصحاب المصومين السياسية . فكان يلقى الأستاذ الإمام  
وتلاميذه كما يلقى الشيخ علي يوسف ورملاء من أمصار السياسة الحديثة ،  
وكان يجتمع بكل من تجمعهم حصة « سلسلة » وحلقة « يسليز » من  
أندية القاهرة المشهورة وبينهم طائفة من حرب « تركنا الفضة » وطائفة  
من دعة الجامعة الإسلامية ، وكان المستطرفون من جماعة « تركيا الفضة »  
يستحبون الجلوس بفهوة يلعبون نقاؤلا واحتلال « يلدر » لكبرى في  
يوم من الأيام ، فإذا وجدوا هناك جنسوا إليه فلم يعرض عنهم ولم يخص  
معهم في دعائهم ، وربما كان يذهب أدياب مدسوسون من قبل السطوط  
عند حميد أو الشيخ أبي هادي أو حديم المسائس الأجنبية لتبصير  
بلباس الوطنية . فيعرفهم أو لا يعرفهم ثم لا يبدى أن يستمعوا إليه  
ويستمع إليهم . وقد يعتصم بالصمت ساعات إذا تطرق بهم الحديث إلى  
غير ما يرتضيه .

وقد تعددت الروايات عن أخاره الأخيرة ليلة وفاته رحمه الله  
فلما تقدم بيانه في مذكرات الأستاذ كرد عبي ، ومنه ما روه أحد  
أصدقائه الشيخ صالح عيسى وكان متنبأ في مصر إذ يقول كما جاء في  
عدد يناير ١٩٤٣ من مجلة الكذب « وفي اليوم الخامس من شهر  
ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هجرية ورد على السيد عبد الرحمن من قبل  
حصره بخديو وكان مصطفا في الإسكندرية بطاقة يدعوه في  
لحضور ضيافة يقيمها هنا يوم في إحدى سردياته في الإسكندرية  
فأجاب السيد الدعوة وركب قفاز لسرعة وسار إلى الإسكندرية وقابل  
الحصرة الخديوية وحضر ضيافته وعاد إلى مصر من يومه . وفي الليل  
سهرنا معه في منتهى « ستانبول » مع جماعة من أدباء مصر وأرضها  
يريد عددهم على العشرة ، وكانت حاضرا حبيب السيد عبد الرحمن ولما

صارت الساعة الرابعة عريية من تلك الليلة هربت بالقيام لأن النوم  
على فاستدنى إليه وكنت حالماً في قرنه . وقال لي . أحسن بوضع  
شديد في شخصي البصري وهو يد . دم معى ساعة أخرى . فلا شئ  
أنه يكون فاني ففت له . لا بأس عليك إن شاء الله ثم انصرفت  
إلى منزلي ووقدت في فراشي . وما كدت شئ الحجر يلهم فحمة النيل  
إلا واللب يطرق عني . فنهضت من فراشي مسرعاً وقلت : من الباب  
فأحسني انطرق بقوله . يا كاظم إن أخاك ولدى قد مات فذهبت  
من هذا الخبر المفجى \* \* \*

ونقل الدكتور سامي لدهان عن نسخة حدثت ( ١٩٤٠ ) رواية  
أخرى فكان . في مساء الخميس ١٤ يونيو سنة ١٩١٢ الموافق ٥  
ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هجرية جلس في مقهى يلانز قرب حديقة الأزبكية  
إلى أصحابه وأصدقائه وفيهم السيد رشيد رضا والأستاذ محمد كرد علي  
وإبراهيم سلم النجار وشرب قهوة مرة . وبعد نصف ساعة أحس  
بألم في أمعائه فقام للحل وقصص مع ابنه السيد كاظم في عربة حذور  
إلى الدار وظل يقيء حتى قارب الليل مستنصفه فأصيب بنوبة قلبية ضعيفة  
فأحس به بالخطر وذهب يستدعي أقرب طبيب من الحمة . ولما عاد  
معده الطبيب وجد أياه قد فارق الحياة وسرى الخبر صباح الجمعة  
في مدينة القاهرة فأمر الحليو بدفن الكواكبي عن نفقته الخاصة وأن  
يعجن بدفته . وأرسل مدوياً عنه لتشيعه ودفن في قراقة باب ابو ير  
في سفح المقطم . واحتفل له السيد علي يوسف صاحب جريدة المؤيد  
بثلاث ليل حضر فيها القراء . . .

ويكاد أصحاب هذه الروايات مختلفة عن وافته رحمه الله يصعود  
على طن واحد سبق إلى لكثيرين ممن سمعوا سعيه في حيه . فقد خطر  
لم جميعاً أنه ذهب ضحية الغر والمسيبة تدبر من ألى اهلى أو من  
جواسيس السطان عبد الحميد . وقال الأستاذ الفزى في مجلة الحديث :  
« كان وفاته كانت مستظرة . لأنها لم تحض عليها يوم أو بعض يوم ولا

وقد اتصلت بمسمع السلطان عبد الحميد ، وعلى الفور أصبح إرادته  
 إلى السيد عبد القادر القبانى صاحب جريدة ثمرات القنون التى كانت  
 تصدر في مدينة بيروت - لأن يهبط سريعاً ويقصد محل إقامة السيد  
 ويحضر جميع ما يحمده من الأوراق ويرسلها إلى يمين .

وما كان أحد في ذلك العصر ليستبعد هذه الفعلة وأمثالها على  
 المتهمين بها . ولكن تحقيق الخبر للتاريخ لا تكفى به مظنة سوء ، ولرجح  
 الأقول في هذا أسبأ ما كسبه الأستاذ محمد لطفي جمعة في مجلة الحديث  
 ( ١٩٣٧ ) إذ يقول إنه ذهب صحبة دكتة صديقية . ويؤيد هذه  
 القول ما ذكره السيد من أعرض لبيته كوجع المروع وألم الجنب  
 الأيسر ، وما جاء في البأ الأخير عن إصابته بسوية قلبية حليفة نمت نوبة  
 الوفاة ، ويرى كان للإعياء من أثر النية عمله في تحريث عوارض النوبة  
 وتعجيل القضاء المحكوم .

وما كان باليقين الذى لا ظل فيه ، إلا ضحية أخيانة واعظم فيما نجحيان  
 من شاء يفعل في النفوس ما تفعاله اسهوم في الأبدان

\* \* \*

وخبر به بالقاهرة في منواه الأخير باب الورير ، نقته إليه مصلحة  
 التنظيم بعد وفاته بنحو خمس عشرة سنة ، وعن صفحته المرمية هذان  
 السيد حافظ إبراهيم :

هذا رجل الدنيا هذا مهبط النقي      هذا خير مظلوم ، هذا خير كاتب  
 قفوا واقربوا أم الكتاب وسموا      عليه فهذا القبر فسر لكوأكي

\* \* \*

# الكتاب الثاني

15  
2  
3

## برئاج إصلاح

فكر لكواكبي كثيراً . وأطال التفكير . في جميع المسائل التي  
حي عليها دعوته إلى الإصلاح . وهي دعوة محيطة بشئون الشرق الإسلامي  
في زمنه على الإجماع ، وشئون الشرق العربي على التحصيل . ويست  
من المدعوات التي تنجبه إلى ناحية واحدة أو تنحصر في جزء من أجزاء  
الحياة العامة التي تنفرق العناية بها بين أشتات من المصلحين .

وقد سجع في دعوته مسجع العلم التجريبي أو الفلسفة العممية ، فظهر  
في جميع الناحيات وقدر جميع الوجوه . واعتدلت المحجة في تلك العال من  
ناحية النفي ونسبية الإثبات . فلا يزال بالعللة المقلدة يثبته أعراضها  
ويستقصي آثارها ويرى أين مكان الصواب في تطبيقها على الواقع  
وتفسيره بالرأى . وأين مكان المقص الذي تنصرف فيه عن تفسير الواقع  
وموافقة الأحوال .

ويبدو لنا مسجحه في التفكير والمراجعة من أسلوب كتابيه اللذين عرض  
هنا آراءه في علل الضعف وشتمها مما يقترحه لعلاج ذلك الضعف والوقوف  
به عند حله واستتعمال أسبابه ودواعيه

فهو في كتاب « أم القرى » يختار أسلوب المساجبة بين طائفة من  
أصحاب الآراء ليعرض على لسان كل منهم وجهة نظر يشرحها من جانبيه  
ويتلقى إرد عليها من مخالفيه . ومنهم من يعمل المصعب بالجهل ومن يعلله  
بالفقر أو يعلله بالاستبداد أو يعلله بالخورد والجبن وفسد الأخلاق .  
أو يعلله بالتوركل والتسليم للحقائير . ومنهم من يلقي التبعة فيه على الأمراء  
أو على العلماء أو على الخاصة دون العامة . أو على العامة دون الخاصة ،  
ويعود باللائمة تارة على المساجين وتارة على أعداء الإسلام ثم يترأى

للمفكر من بين مطارح الأفكار ومذهب الحوار مبعث كل عنة من الأثر  
ومبلغ كل أثر من الأصالة في الضرر ، ومبلغ الاشتراك بينه في التأثير .  
وأما الحق بالابتداء أو الحق بالإرجاء .

وأما بطلان المفكر في الواقع عن رأي مفكر واحد يذهب بالنظر  
في شتى مذاهبه ويرجع همه فيما بين له من خواطره التي طرأت له فامتدحها  
وثبت عليها أو عدل عنها .

أما أسلوبه في كتاب « طائفة الاستدلال » فهو أسلوب التقسيم واستيفاء  
الكلام على كل موضوع من الموضوعات أخذاً ورداً ، وشرحاً  
ومستدركاً . وتقليباً للمفكر على وجوهها ، كما تطورت في ذهن صاحبه  
وتقلعت بين بدايتها ونهاية لتصكير فيها . وكل موضوع من موضوعات  
الكتاب عن الدين أو عن الخلد أو عن العلم أو عن المال أو عن السياسة  
فهو مبحث مروع منه بين جواب المناقشة وحوطر الظن والاستدراك  
وأدلة التشكيك والتصيد ، مما يترك على بحث طويل في ذلك الموضوع لم  
يذهب عنه موانحه الأولى من الظن لعجل والرأي العفوي .

في السير من أجل هذا - أن يسمى دعوة كوكبي فلسفة  
اجتماعية أو تسميها مذهباً فلسفياً ينتظم بين مذاهب الحكماء المصلحين ،  
لأنها امتلأت من تفكير صاحبها كل ما يستلزمه مذهب الفيلسوف من  
التحقيق والروية والرجعة والتوفيق بين النفاض ووجوه الاعتراض

ولكن لم نشأ أن نسميها فلسفة ولا مذهباً فلسفياً كسائر المذاهب  
التي عرفت بأسماء أصحابها أو عناوين موضوعاتها ، لأن الدعوة لها عمل  
يزيد على التفكير ، ولا ينتهي عند مجرد التفكير

فالدعوة التي تسمى « فلسفة » تدور عن البحث والنظر ثم تترك العمل  
عن قواعد لمن يؤمن بها ويقدر على تطبيقها ، وقد يكون البحث فيها  
مطلقاً غير محدود برمن من الأرمه أو بلد من البلدان . ولكنه يرسل



على إطلاقه كما ترسل القوانين الرياضية لمن اخترعها أدواتها ويوفى بها  
وبين مطالعها فهي فكرة معلقة على من مجهول ومجال غير محدود

ولا يحسب أنها تسمى دعوة الكو كى باسمها الصحيح إذ اسمها  
« مذهباً فلسفياً » لنقول إنها هي « مذهب الكوا كى » في الإصلاح  
وإن ما لوف عن المذهب أنها طريق يقبل طريقاً آخر أو طرقاً متعددة  
لتصبح رأى أو تنفيذ عمل، ودعوة الكو كى قد سعت إلى مرحلة وراء  
المذهب ووراء الاختلاف عليه وجاوزت المذهب إلى القرار الذى يوضع  
موضع التنفيذ ولا يعوقه عنه إلا أن يتولاه العاملون

فصاحب « أم القرى » و « سبائح الاستبصار » لا يعرض لنا فكرة  
معلقة على مجال مجهول ، ولا يعرض لنا مذهباً نقابه بمذهب يعقب  
عليه ، ولكنه يعرض لنا « برنامجاً » بتنعه عمل - وقراراً تنتهى إليه مذاهب  
الخلافا .

• • •

إن ذلك المنهج « العملى » هو أجدر اسماح أن ينتظر من عقل كمثل  
الكو كى فيما ورثه من استعداد الفطرة وفيما تعودته بتربيته وعمله ، فإنه  
شأنه لم تزل من قديم الزمان ملئاً لحركات النشاط والدأب من أنحاء  
العالم ، وترى في أسرة تعرف لصناعة كما تعرف تكليف الرئاسة الدنية  
والديوية ، وتولى أعمال الإدارة والتنظيم في كثير من الوظائف التى ينط  
ها تنفيذ الخطط وإعداد المشروعات للتنفيذ ، وكاد أن يكون كل تقرير  
كتبه برنامجاً للعمل يؤديه أو « مشروعاً » لبرنامج يقترح تنفيذ على غيره .

وكذلك نجرم بأنه في حسب قبل هجرته الأخيرة منها لأنه لم يكن  
قد فرغ من التفكير ولم تنفرد في دمه فكرة صالحة للإنجاز أو صالحة  
لإقناع غيره بانجازها فلما أصبحت في دمه هذه الفكرة وحصل في  
يديه برنامج العمل لم يكن في طاقته أن يبقى بعد ذلك ولو تهيأت له في  
بلده أسباب البقاء لأن بقاء المصلح العامل ولديه خطة محضرة للعمل

حليق أن يقفه أشد من قنن الحرف والخطر ، وحبس لقواه لجياشة بالحركة أشد من حبس القيد والاعتقاد ، وقد يكون غريباً من رجل غير الكواكبي أن يكتث في مله ويؤلف الكتب التي تهدده في مأمنه ، بل تهدده في حياته ، ولا يخطر له أن عند حزم على الهجرة إلى بلد آخر يسطر فيه ما يدور في خطره وهو من على نفسه وصلى ثمرات تفكيره .

ذلك غريب من رجل غير الكواكبي قد يقنع بالتفكير ويحسب أنه لباب دعوته التي يتم بها رسالة حياته ، فإذا خطر له أن يسجد تلك الرسالة من الخطر أو المصدرة نجاها وهي حاطر في دمه قل أن يجري بها الفهم فكرة مسجلة على ورق مقروء .

أما الرجل العامل بطرته فالتفكير عنده تمهيد لرسالته ينتهي فينتهي معه القرار وتبدأ الحركة ، وهو يفكر ويراجع فكره ويستطيع القرار على التفكير والمرجعة إلى أن يتحول الفكر إلى برنامج مفصل وخطة محكمة ، ويومئذ لا قرار ولا انتظار .

فما عقد السبة على الهجرة حرج من بعده وفي جعبته ذلك البرنامج المحيط بكل حزم من أجزاء الدعوة وكل مقصد من مقاصد الإصلاح .

حرج من بعده وفي جعبته الرسالة التي يحشى عليها وعادة ما اتخذ من الحيلة أنه لم يعلن اسمه مع إعلان تلك الرسالة ، ولعله آثر كتاباً لأنه أعون له على الحركة وانتقل بين الأقطار . وأستر له ومن يتخرجون من لقاؤه إذا انكشفت مقاصده وتبين العاجل والآجل من بيده ومسعاه ، ولأن من مثل هذه الحيلة في دور الاستطلاع وجس النجس ووزن النجس بين العجلة والأناة

• • •

وأياً كان اسم الذي انتهت إليه عبارة المؤلف في كتابيه لباقين لقد كانت أعمال الإصلاح كما يدعى أن يتولاها العاملون متى صحت عزيمتهم عليها ماثلة أمام بصيرته حلبة المعالم في خلده ، بعضها مشروح

مسبب في إيجاز وسهولة . وبعضه مذكور كما تذكر رؤوس المسائل  
العودة إليها والإحاطة فيها ، ولكي تكفي بتفصيلها وإجمالها لتسيق  
برنامج العمل والإحاطة بأصوله ومروعه فيما يشمله الإصلاح من شؤون  
الدين والدنيا .

وما من شيء يعبر البرنامج الذي يحيط بمطالب الإصلاح في مسائل  
الدين والدولة ومسائل السياسة والأخلاق ومسائل الثقافة والرفاه الاقتصادية  
والتربية الاجتماعية ، وهذه هي المسائل التي احتواها الكتابان على  
تفصيل أو إجمال ، وعلى جلاء وثقة فيما فصل وفيما أجمل ومن  
هذين الكتابين مستخلص ذلك البرنامج الحافل بغير كلفة ولا مشقة ،  
و يؤثر أحياناً أن يعتمد على عبادة المؤلف بحفظة على منهجه وإثباتاً لما يتخلل  
السطور من مقاصده ونياته .

وسنرى بعد الإحاطة بآرائه ومقرحاته أن دعوة هذا المصالح العام  
تنتظم في عدد « الفلسفات » التي اشتهر بها حكماء الإصلاح والتطوير ، ويصح  
أن تسمى بالفلسفة الكوأكبية في سياق المذاهب والآراء التي تنسب إلى  
أصحابها من الحكماء ، وإنما يختار لها اسم « البرنامج » لأن فيها مزيج لبست  
في مذهب الفلسفة : إذ هي فلسفة محضرة للعمل ، بليغة في باب الأعمال ،  
لأنها توافق مقتضى الحال .

## الذين

يتنحصر الإصلاح الديني عند الكواكبي في تحرير الإسلام من الجمود والخرفة .

وأخطر آفات الجمود عنده أنه جعل المسلمين صورة مقلدة وسخة مستعارة ، فهم مسلمون لدية أسلافهم وليسوا بمسلمين بلده أنفسهم ، وهم مسلمون باتبعية وليسوا بمسلمين بالأصالة ، يدينون بالإسلام انقياداً منهم لمن تقدمهم ولا يحسبون أنهم أهل للمحطات على حجتهم ، وقد صدق فيهم ما نعه الكتاب المبين على الثاقبين : « وما وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتنون » .

وعلاج هذه الآفة أن يعاد بالدين إلى بساطته الأولى التي بعثت بهم من قبلوا دعوته في صدر الإسلام ولا تزال تيسره من يدعو إلىه على بساطته ومهولته بين أبناء الشعوب الفطرية .

ومن واجب المسلمين في كل زمن أن يفهموا دينهم وأن يعرفوا حكمه من أنفسهم وعقائدهم ، فليس من الإيمان الصحيح أن يحال الفهم على من صنف وأن يتفاد الحلف كله لعبارة حرف ، ولا يكفل إيمان مسلم بغير الفهم ولا اجتهد في كل موطن من العلم وفي كل حقبة من الزمن ، فلا تعثر اجتهد المسلمين جميعاً بقيام العلماء بأمانة الاجتهاد عرض كفية لا يسقط عن جبين من أحيائهم ولا سلامة من يسقطونه عن أنفسهم .

ولا يعني النقل من الفهم الذي هو قادر عليه . فإن العامة يهتديهم العلماء مع بيان الدليل بقصد الإقناع . فالعلماء لا يجسرون على أن يقتروا في مسألة مطلقاً ما لم يذكروا معها دليلها من الكتاب أو السنة أو الإجماع . حتى لو كان المستفتى أعجمياً أمياً لم يفهم ما الدليل ، وطريقتهم هذه

هي طريقة الصحابة كافة والناصب عامة ولائمة المحمدين والفقهاء الأولين  
من أهل القرون الأربعة أجمعين .

ولمقلد أن يختار بين أقوال مصنفين ولا يخرج عليه ، فقلد البعض  
وصمموا المقلد لأحد المذهب إذا أتى في بعض الأحكام بمذهب آخر  
مستقلاً . واستعملوا لفظة التفتيق في مقام التلاعب بالدين أو التزقيع  
القيح . والحال ليس ما سموه بالسفيق إلا عن التقليد من كل الوجوه .  
ولا بد لكن من أجاز التقليد أن يجزئه . لأنه إذا تأمن في القضية بمجد  
الناس أنه هكذا يجب على كل مسلم عاقل عن الاستهداء في مسألة دينية  
نفسه ويسأل عنها أهل الذكر . . وعلى هذا الاعتبار ما المانع للمسلم  
المقلد أن يتعلم كل مسألة من الطهارة والغسل والوضوء والصلاة من محمد  
أو فقيه تابع لمحمد ؟ . ولا يعقل أن يكلف هذا المقلد بأحد دينه كله  
من عالم واحد . لأن الصحابة رضي الله عنهم مع اجتهدهم وتكاتفهم في  
الأحكام كان يصيب بعضهم خطأ بعض مع حكم يؤمن منهم حسب اجتهد  
بعدم صحة صلاة إمامه (١) .

• • •

ويرى الكواكبي بحق : أن الجمود والخرافة لا محل لها بين أتباع  
دين متسم بالوساطة والخلاء يأخذ خصائصهم وعامتهم مأخذ الفهم وسينة  
على حسب عقولهم ومصالحهم . فإن التدين على هذا المذهب بثلاثة نعمة  
متجددة يتلقاها المسلمون أبداً وكأنتهم هم المسلمون الأولون جيلاً بعد  
جيل .

ولم يعمل الكواكبي عن خطته الصعبة لتحقيق الإصلاح في هذا  
الناب . فإنه يذكر في صفة العالم الذي يؤمله علمه للاجتهاد بالرأى والإقتناع  
بالتدليل ، ويذكر موضوعات الكتب ودرجات هذه الموضوعات التي

ينكفل علماء الإسلام بنشره العمل بها أو لسانه لملادين على تفاوتهم  
في القدرة على الاستعادة من المطبعة والمراجعة .

فيجبى للعالم المجتهد :

« أولاً » أن يكون عارفاً باللغة العربية المصرية القرطبية بالتعلم  
والمرولة معرفة كفاية لفهم لخطاب لا معرفة إحاطة بمصردات ومجازاتها  
وتقواعد الصرف وشواذه والنحو وتفصيلاته وأبواب وخلافاته وأصناف  
وتكلمته مما لا يتيسر إتقانه إلا من يفنى ثبات عمره فيه . مع أنه لا طائل  
تحت ولا لزوم لأكثره إلا لمن أراد الأدب .

« ثانياً » أن يكون دارناً كتاب الله تعالى قراءه فهم المشار من  
معاني مصرداته وتركيبه مع الاطلاع على أسباب نزول ومواضع الكلام  
من كتبها السنية المأخوذة من السنة والآثار وتفسير الرسل عليه الصلاة  
والسلام أو تفاسير أصحابه عليهم الرضوان ، ومن العموم أن آيات الأحكام  
لا تجاوز مائة وخمسين آية عدداً .

« ثالثاً » أن يكون متضلعا في سنة النبوة النبوة حتى عهد التابعين  
وتابعيهم أو تابعي تابعيهم فقط يدور فيه بمائة ألف أو مائتي ألف حديث  
بل يكفيه مائتي مائتي في موطأه وأحمد في مسنده ، ومن المعلوم أن  
لحديث الأحكام لا تجاوز لألف وخمسمائة حديث بندا .

« رابعاً » أن يكون واسع الاطلاع على سيرة النبي ﷺ وأصحابه  
وأحوالهم من كتب السير القديمة والتواريخ المعتمدة لأهل الحديث كالجافظ  
الدهلي وابن كثير ومن قبلهم ، وكس جرير وبن قتبية ومن قبلهم كسالك ،  
والزهري وأضرابهم .

« خامساً » أن يكون صاحب عقل سليم فطري لم يفسد ذهنه بالمنطق  
واجادل التعيين والفسفة ليوسية والإلهيات الفيشظورية وبأبحاث  
الكلام وعقائد الحكماء ونزعات المعتزلة وإغربات الصوفية وتشديدات

الخارج ونعريجات الفقهاء المتأخرين وحشويات الموسوسين وتزيقات  
المزائين وتزيقات المدلسين .

وعلى العلماء المجتهدين أن يسروا لكن من المقدين أن يأخذ من  
أحكام الدين ما هو أهل لمهته حسب طاقته . فيقسمون مسائله على  
مراتب في متون مخصوصة فيعتقدون لكن منذهب من المذاهب كتاباً في  
العبادات ينقسم إلى أبواب وفصول تذكر في كل منها الفرائض والوجبات  
فقط . وتنطوي ضمنها الشرائع والأحكام بحيث يقال إن هذه الأحكام  
في هذه المذهب هي أقل ما تجوز به لعبادات . ويعقدون كتاباً آخر  
يعصم إلى غير تلك الأبواب والفصول يذكر فيها مسائل بحيث يقال إن  
هذه الأحكام ينبغي رعايتها في أكثر الأوقات . ثم كتاباً ثالثاً مثل الأولين  
تذكر فيه سنن الزوائد بحيث يقال إن هذه الأحكام رعايتها أولى من تركها  
وعلى هذا التقى بوضع كتاب للمنتديات ينقسم إلى أبواب وفصول تعدد فيها  
المكهرات والكسائر وكذا الصغائر والمكروهات . ومثل ذلك تقسم كتب  
المعاملات على طبقات من الأحكام الإجماعية أو الاجتهادية أو الاستحسانية .  
وبمثل هذا الترتيب يسهل على كل من أمانة أن يعرف ما هو مكلف به  
في دينه فيعمل به على حسب مرأته وإمكانه . وهذه الصورة تظهر سماحة  
الدين الخفيف (١) .

• • •

ويؤخذ من جملة الشروح والمساجلات في كتابي « أم القرى »  
و « طبائع الاستعداد » أن الكواكبي يهتم أشد الاهتمام بإعلاء الدب على  
طوائف لوسطاء المخربين في المسائل الدينية ، إذ لا منفعة لوسطاء  
الوسطاء في دين يعرفه المجتهدون من أتباعه في كل زمن ، ويعرفه المقلدون  
على بساطته الأولى مع السؤال عن الدليل الواضح عند التماس الأمر عليهم  
بين المباح والممنوع .

ولكن هؤلاء الوسطاء يكثرون ويتشعرون حيث يحاط الدين بانخداع  
هو لأمرار وبيواري خلف حجب العموص والتهويل ويمتنع فيه الاجتهاد  
بالدليل والسد للعلوم ، ومن ثم تنجم الحاجة إلى الوسطاء من أشباه  
الكنهه وأدلياء الحوارق والكرمات ، من يشغلون الدين لخدمة أنفسهم  
أو لخدمة الحاكين المستغربين لهم على سنة التبادل في المنفعة والتعاون على  
التفصيل وقيادة الرعية المستسلمة بالتقوية والتفصيل .

قال الأستاذ من فصل الاستبداد والعلم : « إن العوام يدبكون أنفسهم  
بأيديهم بسبب الخوف الماشيء عن اليهن فإذا ارتفع اليهن زان الخوف  
انقلب الوضع ، أي نصب المستبد رغم طبيعته إلى وكييل أمين يهاب الخدب  
ورئيس عادل يحشى الانتقام » .

واستغلال لجهل على ضروب تتسع فيها الحيلة لطوائف شتى من  
اشعودين والدحاليين وأصحاب البحر والتعاويد ممن تروج بضاعتهم  
مع الغفلة والرهبة وتكشف حقيقتهم مع الفهم والحرية ، ومنهم علماء  
السوء وأدعياء التصوف والعبادة وأشبههم من المدلسين الذين يسمون  
أنفسهم بأهل لاطر ويذهبهم أن يجعلوا السر حكراً ، ليستأثرو لتجارته  
ويساموا عليه في أسواق المطامع والدعائس مسومة العين والسمع

قال من فصل الاستبداد والدين في طوائف الاستبداد : « إن قيام  
المستبددين من أمثال أبناء دود وقسطنطين في تأييد بشر لدين بين رعاباهم ،  
وانتصار مثل فيليب الثاني الأسباني وهنري الثامن الإنجليزي ... والحاكم  
الفاطمي والسلطين الأعاجم المنتصرين لقلاة الصوفية وأنانين التكايا لم  
يكن ذلك كله إلا بقصد الاستعانة بالدين أو بأهل الدين على ظلم  
الساكنين » .

ويرى لكواكي أن المتشدددين من رجال الدين مشغلون كالحكام  
المستبددين عن شيوخ التصوف الفاسد بين العامة وأشباه العامة من  
المسلمين المتفهمين والمتأخرين ، لأنهم جعلوا الدين حرجاً ثقيلاً على



النفوس فهدوا الطريق لمن يبيحون المحظورات باسم العلم و انباطن  
وامعرفة الغضبية التي ترمع التكليف عن الواصين إلى الهداية من عبر  
طريق الشريعة الطاهرة ولولا اجبت المره من أولئك المقشدين لما  
رجب سوق لتصوف المكالم . قال بلصان الشيخ اسدى : « فناء  
على هذا التصييق صبار المسلم لا يرى لنفسه فرجاً إلا بالالتجاء إلى صوفيه  
الزمان المئين يهونون عليه الدين كل التهوين ، وهم لقاتلون إلى العلم  
حجاب ، وبلمحة تقع المصلحة ، وبمنظرة من المرشد الكامل يصير  
الشيء ولياً ، وبمنفعة في وجه المرشد ، أو تفتل في فقه ، تطبعه الأفعى  
وتحرمه العقرب التي لدغت صاحب الغار عليه الرضوان ، وتدخل تحت  
أمره قوانين الطبيعة ، وهم المفررون بأن الولاية لا يهبط ارتكاب الكبائر  
كلها إلا الكذب ، وأن الاعتقاد أولى من الانتقاد ، وأن الاعتراض يوجب  
الحرمان ، أي أن تحسن الظن بالمسوق والمجدد أولى من الأمر بالمعروف  
والنهي عن المنكر ، إلى غير ذلك من الأقوال المهونة للدين ولاعمل التي  
تجعله نوعاً من اللهو الذي تستأنس به نفوس الجاهلين »

قال . « على أن المس لو وجدوا لصوفية الحقيين ، وأين هم ؟  
فصروا منهم فرارهم من الأسد إذ ليس عند هؤلاء إلا التوسس بالأسباب  
العادية ابتغاء لتطهير النفوس من أمراض إفراط الشهوات وتصفية  
النفوس من شوائب الشره في حب الدنيا وحمل الطبائع بوسائل المهر  
واغترين على الاستئناس بالله وعبادته عوضاً عن الملاهي المضرة ، طلباً  
للراحة الفكرية واهيشة الهنية في الحياة الدنيا ، والسعادة الأبدية في  
الآخرة . وأين التهوين السالف الياب لصوفية الزمان من هذه المطالب  
التهلينية ؟ »

• • •

على أن مصلحت العامل قد يحا به" إيمانه من تلك النظرة الضيقة  
التي تغلب على كثير من المصلحين الواقعيين الذين يقصرون نظراتهم  
إلى الإصلاح الديني على الشعائر وظواهر العبادات كدينتهم في الاهتمام

يتمتع عليه المشاهدة ويحصره الحس والاكتفاء به عما وراءه من طوابع النفس وكوامن الضمير .

فلم يكن « النكوكي » مصصها دينياً على هذا النحو العميق المحدود . بل كانت عنده بالشعور والطواهر المحسوسة سهيلاً إلى تصحيح جوهر الدين في أصوله إلى الصوت عبها الطائعات الإنسانية . وكان إيمان الصير عنده هو قوام الدين كله : وفضية الإسلام في اعتقاده أنه دين الإيمان على خلاف أديان المراسم وتقاليد التي أفسدت بوثنية وتقايدها فأوشكت أن تصح كنها أشكالاً وصوراً مجردة من روح العقيدة وهضامة الإلهام .

فإذ انصمت الديانات إلى ديانات إيمان وديانات مراسم وتقاييد فالإسلام في طبيعة الديانات التي يغلب فيها الإيمان على المراسم الشكسية والتقاليد الثقيلة وتفتح الباب على مصراعيه لوساطة الكهان وسلطانها كل والمخاريب .

وفي غير موضع من مساجلاته يذكر هذا لإيمان الأصيل في البديهة الإنسانية فهو تارة « ناموس شريف وحمد مردع في فطرة الإنسان » وهو إلهامه لفطري للقوة الغيبة . أي معرفته لله بالإلهام « فطري الذي هو إلهام النفس رشدها وإلهامه فجورده وتفواها . ولا ريب أن لهذه العثرة الدينية في الإنسان علاقة عظمى بشئون حياته لأنها أقوى وأفضل وأزع يعدل سائر نوااميسه المضرة ويخفف مرارة الحياة التي لا يسلم منها من أننى . »

ويعود بعد قليل فيقول : « إن النوع الإنساني معطور على الشعور بوجود قوة غالبة عاقبة لا تتكيف تتصرف في الكائنات على نوااميس منتظمة . وإن هذا الشعور يختلف قوة وضعياً حسب ضعف النفس وقوتها ويختلف لناس في تصور ماهية هذه القوة حسب مراتب الإدراك فيهم أو حسبها بصافهم من التلقى عن غيرهم . وذلك هو الضلال

والهداية على أن الصلال غالب لأن موزين العقول البشرية مهما كانت واسعة قوية لا تسع ولا تتحمل وزن جمال الأثرية والأبدية .. » .

ثم يقول بعد اسطر د : « إن أصل الإيمان بوجود مصابيح أمر خطري من البشر كما تقدم ، فلا يحتاجون فيه إلى التوصل وإنما حاجتهم إليهم في الاهتمام إلى كيفية الإيمان بالله كما يجب من التوحيد والتعريف » .

وقد ثبت عنده كما قال . « ما يقرره الأخلاقيون من أنه لا يصح وصف صنف من سبب الدين لم مطلقاً . بل كل إلهاد يدين يدين إما صحيح أو فاسد من أصل صحيح . وإما باطل أو فاسد من أصل باطل ... » .

ومن ثم يستحسن كل إصلاح ديني نهض به الكواكبي في تصحيح الإيمان واعمار الشعائر والبرائض آية على صحة الإيمان ، تدل على سلامته بمقدار سلامتها من شبهات الوائبة وعوارض الشرذمة والزيف عن الوحدانية . ولا بقاء للعظم والفساد مع هذا الإيمان . ولكنهم قد يبتغون ويطول بذاؤهم مع قيام الشعائر التي هزقتها روح الدين ولم يتطاع منها غير الرسوم والأشكال .

قل في كلامه عن الاستعداد والترقي في طوائف الاستعداد : « ولا هم يجهلون أن كلمة الشهادة والصوم والصلاة والحج والزكاة كلها لا تعنى شيئاً مع فقد الإيمان ، إنما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر قياماً بعدات وتقنيات وهوسات . تصححها لأموال والأوقات » .

...

هذا الإيمان هو قوة الإسلام . وهو مبعث العبرة التي تشير المؤمنين على الخي والغشيم لأنهما استعداد يألف منه من يرفض العبادة لغير الله

وهذا يعقب الكواكبي بعد تلك العبارة قائلاً : « إن الدس يكلفكم إن كنتم مسلمين ، والحكمة تلزمكم إن كنتم عاقلين ، أن تعلموا بالمعروف » (الكواكبي)

وتنوء عن المنكر جهلكم ، ولا أقل في هذا لسان من لسانكم المعضد  
للفذلين والفسقين .

• • •

ومن بلدكم من صهرجات لإصلاح الديني في عصر الكواكبي بصفة  
خاصة أن أزمته لم تكن أزمة إصلاح ولا أزمة شعب يعاني مشكلاته  
الاجتماعية من هذه الناحية . ولكنها كانت أزمة الدين نفسه ، بل أزمة  
العقيدة الروحانية على اختلاف الأديان في بلاد الحضارة . لأنها كانت  
أزمة الاصطدام بين الدين وعلم من أواخر القرن الثامن عشر إلى  
الحقبة التي نشأ فيها الكواكبي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ولم  
تزل تلاحقه إلى آخريات أيامه في أوائل القرن العشرين .

وقد اصطدمت العقائد الدينية في الغرب بكشوف العلم الحديث  
ومذاهب التفكير العصرية واضطربت الأفكار وشاعت الشكوك وزرع  
الكثيرون من الناشئين إلى التعطيل وإلحاد الدين واقتروا الإنكار بإباحة  
احرمات والترخص في الشهوات والامتناع عن عناية الحياة الدنية التي  
وافقت أهواء المنكرين ، فخلل إلى الناس في أهم الحضارة العربية أن  
الدين مسألة مفروغ منها قد حفت بأثر العروق البخارة وأل التحدث  
عن الإصلاح الديني مشغلة فراغ متبقي فيها الوقت على غير جدوى .

واقتربت هذه الصدمة من الشرق مع اقتراب العلوم الحديثة  
والدعوات الاجتماعية المتطرفة فكأن لها أثرها الطبيعي بين المسلمين  
وضيقتهم من اشرقيين على حسب تصحيحهم من العلم العصري وتربية  
الدينية وتعاليد العيشة السيئة .

فمن المتعلمين على النظم لأوربية طائفة أخذت بالقشور من العلم  
الحديث وقل تصحيحهم من معرفة الدين واستهواها حب التشبه بالأقوياء  
الظاهرين وخذلتها فتنة الحضارة ورخرف الحياة الدنية فتخللت من أواصر  
دينها وهان عليها أمر العقيدة وأمر الوطن فلم يبق لها من الغيرة الدينية  
ولا من المخوة القومية غير المظهر والمعران .

والكواكبي ينصن بسيد من هذه الطائفة ولا يترجى منها خيراً لإصلاح  
ديها ولا لإصلاح دنياه ، وفيها يقول من كلامه في الاحتجاج الثامن  
من مؤتمرات أم القرى : « وأما الناشئة المنصرفة فلا خير فيهم لأنفسهم فضلاً  
عن أن يفعوا أقوامهم وأوطانهم ، وذلك لأنهم لأحلاق لهم ، تتحداهم  
لأموال كيف شاءت ، لا يتبعون مسلماً ولا يسبغون على ناموس مطرد ،  
لأنهم يحكمون الحكمة ويمتجرون بدينهم ولكن لا يحمون به شهواً وكلاً ،  
ويربون خبرهم من الأمم يتباهون بأقوامهم فيستحسون عاداتهم ويميزانهم  
فيميلون لمناظرتهم ولا يقوون على ترك القريع كأنهم يخفون أن دعاء ،  
ويجدون الدس يعشقون أوطانهم فيسفعون للنفس بهم في التشيب والإحساس  
بخط دون انتشيت ، لأعمال التي يستوحها لحب الصادق ، والحاصل أن  
تشو الناشئة المنصرفة لا تخرج عن تلمذ وتلون وشاق يجمعها وصف  
لأحلاق . . . والواحدة خير منهم متمسكون بالدين ولو رياء ، والطاعة  
ولو عمياء » .

والجندون الذين سماهم بالواحدة وقال عنهم إنهم متمسكون بالدين  
ولو من قبيل الرياء ، يفترون إلى فريقين بين حائل لا يعرف شيئاً  
من الدين حديث ولا من علوم دينه ، ومتعلم درس الدين على أساتذة من  
المقلدين مرجو الدين بالخرافة ولم يسلخوا من علل الوهن والصدق ، وكلاً  
الفريقين يجهل علوم دينه كما يجهل علوم عصره وتصلبه هذه العلوم  
الحديثة صدمة الجذيب المستغرب فيصير منها ويتبرم بها ويحذر لها حذره  
من الكفر البواح ، ولا يكلف نفسه مثوبة البحث ، لأن مجرد البحث فيها  
مدرجة إلى الكفر وأحواله من انحيايل الضلال .

وهذه الطائفة هي « المصائب » التي يراد الإصلاح السني لتقويتها  
والخروج من ظلماته ، فلا أمل في دعوتها على رسالة الإصلاح .

والطائفة المثلى - ومنها الكواكبي - حذرة الرواد الساعين الذين  
ألفوا من إلهاق الجمود وتمردوا على أوهام الخرافة وأطلعوا على خط  
حسن من العلم الحديث ، هو ضيع هم أمه برهن به التقدم وتستمد منه

القوة التي يحصل بها الأوربيون على بلادهم ، وأنه هو العلم الذي يدعوهم  
 إليه كتابهم ويحفهم عليه في كل آية من آيات الأمر بالتفكير والتدبر  
 والنظر في ملكوت السماء والأرض والعمل لصالح في سبيل الدين والدينا

وتنقسم هذه الطائفة أيضاً إلى فريقين ، أحدهم يرى أن العلم  
 الحديث مطلب مباح بل فريضة واجبة توافق الدين ولا تعارضه في حتمها  
 ولا في تفصيلاتها ..

والفريق الآخر يذهب وراء هذا الاعتقاد في العلوم الحديثة خطوة  
 أو خطوات ، فيحاول أن يبين مكانها من القرآن الكريم وأن يردّها  
 إلى آيات تحتويها وتتقبل التفسير بمعناها ، وكذلك صبح الكوكبي رحمه  
 الله فيما كتبه بقلمه أو فيما أمثله إلى غيره ، وأفاض فيه بكلامه عن الاستعداد  
 والدين في طبائع الاستعداد بحيث يقول :

« .. هو أطلق للعلماء عهد التفتيح وحرية الرأي والتأليف كما أطلق  
 لأهل التأويل والخرافات رأوا في آيات قرآن آيات من الإعجاز ، ورأوا  
 فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحداثات تبرز إعجازه صدق قوله  
 ( ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين )

« برهان عيان لا محذور تسليم وإيمان ومثبت ذلك أن العلم كشف  
 في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعرى لكاشفها ومخترعها  
 من علماء أوربة وأمريكا ، ولمسقى في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح  
 أو التيسيع به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً ، وما بقيت مستورة تحت  
 حشاه من الحماة إلا لتكروا عند ظهورها معجزة للقرآن ، شاهدة بأنه كلام  
 رب لا يعلم الغيب سواه .

« وذلك أهم قد كشعروا أن مادة الكون هي الأثير ، وقد وصف  
 القرآن هذه التكوين فقال : ( ثم استوى إلى السماء وهي دخان ) ،

« وكشعروا أن الكائنات في حركة دائمة ، والقرآن يقول ( وآية  
 لم الأرض الميعة أحيينها ) . إلى أن يقول : ( وكل في فلك يسبحون ) .

« وحققوا أن الأرض منفقة في السلام الشمسي ، والقرآن يقول :  
( إن السموات والأرض كانتا رتقاً ممتصفاً ) .

« وحققوا أن القمر منشق من الأرض ، والقرآن يقول : ( أملاً  
يروون أنا نأتى الأرض بنقصبها من أطرافها ) ويقول : ( اقترت الساعة  
ونشق القمر ) .

« وحققوا أن طبقات الأرض سبع ، والقرآن يقول : ( خلق سبع  
سموات ومن الأرض مثلهن )

« وحققوا أنه لولا جيل لاقتضى نفس النوعى أن تميد الأرض  
أى ترنج في دور ، والقرآن يقول : ( وألحى في لأرض رواسى أن  
تميد بهم ) .

« وكشفوا أن التغيير في التركيب الكيماوى بل ولعبرى ناشئ  
عن تخلف نسبة لمقادير ، والقرآن يقول : ( وكل شيء عنده بمقدار ) .  
« وكشفوا أن الجمادات حياء قائمة علم التلور ، والقرآن يقول :  
( وجعلنا من الماء كل شيء حي )

« وحققوا أن بعلم العضوى - ومنه الإنسان - ترقى من الجماد ،  
والقرآن يقول : ( ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ) .

« وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات ، والقرآن يقول :  
( خلق الأزواج كلها مما نثرت الأرض ) ويقول : ( فأخرج به  
أزواجاً من نبات شتى ) ، ويقول : ( اهترت وربت وأبنت من كل  
زوج بهيج ) ، ويقول : ( ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين )

« وكشفوا طريقة إمساك النظم أى لتصوير الشمسى ، والقرآن  
يقول : ( ألم تر إلى ربك كيف مد الذن ولو شاء جعله ساكناً ثم جعلنا  
الشمس عليه دليلاً ) .

« وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالسفار والكهرباء ، والقرآن

يقول بعد ذكره انساب واجوارى ما يرج : ( وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ) .

« وكشفوا وجود الميكروب وتأثيره في الجدرى وغيره من المراض ،  
والقرآن يقول : ( وأرسلنا عليهم صبراً أن يبل ، ثم ميمم بحجارة من سجيل ) ..  
أي من طين المستنقعات ، يابس » .

« إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة محققة لبعض مكنشحات علم الهيئة  
والنوميس الطبيعية ، « بانقياس إلى ما تقدم ذكره يقتضى أن كثيراً من  
آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقت المزمون .. » .

• • •

هذه المكرة الضافية عن التوفيق بين الإسلام والعلم الحديث هي  
إحدى الأفكار الأساسية في دعوة الكوكبي إلى الإصلاح في جميع  
بواحيه ، إذ كان الإصلاح الديني عنده غير منفصل عن إصلاح المجتمع  
كله في شئونه الدنيوية ، وكانت فكرة ملازمة له منذ أحد في لاطلاع  
على مراجع العلوم العصرية ، وإن اطلاعه على تلك الكشوف التي أحصاها  
جميعاً لا يتم في وقت واحد ولا بد له من أوقات متابعة يتحفظها النظر  
والقائم ويعود إليها بالمراجعة والمقارنة ، فإن لم تكن أفكاره هذه مما  
استوحاه في مطالعته الطويلة فلعنه قد استوحاها من دعاة التوفيق بين  
الدين والعلم الذين سبقوه إلى النظر في مشكلات العقيدة والتفكير منذ  
دعت الحاجة إلى وحدة التشريع . كما حدث في الدولة العثمانية للتوفيق  
بين الأقضية المختلفة التي تطبق على رعاياها حسب اختلافهم في الجنس  
واللغة ، وسواء خطرت له فكرة توافق بين الإسلام والعلم الحديث  
ابتداء من أثر مطالعته الخاصة أو كانت إحدى خواطر العصر لشائعة  
على ألسنة المستبشرين فقد تطورت في ذهنه وعود النظر فيها حياً بعد  
مسرات غير قبيلة فقد كانت في ذهنه قبل أن يكتب « أم القرى » وظلت  
في ذهنه إلى أن أودعها مقالاته عن طبائع الاستبداد وزاد عليها ما استغاده  
من مطالعته في هذه الأثناء .



ونما يلاحظ أن هذه الكشوف العلمية التي أوجز الإشارة إليها  
يوثقت أن تحط بإحصاء كشوف العلم الحديث في المسائل الكونية خلال  
القريب الثامن عشر والتاسع عشر كأنه ينقشها من سجل محفوظ ، وهي  
ملاحظة ينبغي أن ننبه إليها لحلم بها قوة ادعاء الأفكار الحديثة إلى  
البلاد الشرقية ومنع سريانها بين من يعرفون أساطير لأوربية ومن  
يجهلونها . فإن الكواكبي لم يكن على علم بلعة من اللغات الأوربية  
يساعده على المطالعة فيها ، ولكنه قرأ أخبار لكشوف الحديثة واستقصاه  
كما يستقصيها غير المتخصصين بها من الأوربيين أنفسهم في بلادهم ، وتلك  
علامة قوية من علامات الصدمة التي أحسها الشرق بعد هزيمته أمام العرب  
في عارات الاستعمار ، ولنا أن نقول إنه كذلك علامة على انقصة  
السريرة بعد تلك الصدمة الواجعة ، لأن سريان الفتح العلمي مع الفتح  
السياسي تشهد للشرق شهادة حسنة بالنفاس إلى رساها ، وأقل ما في هذه  
الشهادة أنه تلى الصدمة ممتوح لعينين يرى وهو متمدن من غمونه -  
جهدهما يقدر أن يراه .

وكان رد الفعل سريعاً كما نشين الآن من موقف الكواكبي وإحراجه  
رواد الدعوة إلى الإصلاح كان رد الفعل بين مصيحي الإسلام أسلم  
وأقوم وأدعى إلى الثقة والرجاء من رده العيف بين الأوربيين : هناك  
كانت أزمة الدين عند كثير من أياشين ، وهنا لم تكن للدين أزمة  
عد عارفيه ، ولكنهم أزمة لجهلاء به وباعلم الحديث بين أهله ، أو  
كاتب أزمة الإجماع والاستنهاض بخارية الجهل بالدين الخالد والعلم الحديث  
على السواء .

ويقتضينا تقدير الكواكبي في هذا المقام أن نذكر الفرق بين  
نظريته إلى العلوم الدخيلة التي طرأت على الفكر الإسلامي حوالى لقرن  
الثالث للهجرة ، وبين نظريته إلى العلوم الدخيلة التي تلقاها لمسلمون  
ولشرقيون بعد ذلك بعشرة قرون ، وهي من علوم النهضة الأوربية  
الحديثة ،

إن هذه الفارق بين نظرة الكواكبي على أثر الفلسفة اليونانية وأثر العلم العصري لمؤ آية من الآيات العديدة على استقامة النظرة العملية في التفكير هذا المصلح الحكيم ، لأنه يفتح إلى الهدف المقصود بعد تشييد والتيفس منه . ولا يبدد فكره وعمره في يتشعب حوله من مطارح الطنون وأباطيل الأوهام على غير صائل . وهذه هي هو الإصلاح الديني في تجربته العملية ، وخلاصة هذا الإصلاح الديني أنه هو العودة بالإسلام إلى بساطته الأولى ، وتوامها الأول بيان الضمير .

فالكواكبي لا يخلل - أمام هذا الهدف بفلسفة اليونان من الوجهة النظرية - ولا يقوم في ميراد دعوته بقيمتها في الوراق أو قيمتها في رؤوس طلاب المستطير دا . وإنما يحكم على أثرها في التفكير الإسلامي حين يحكم على مذاهب أتاعها من مسلمين ، وعلى أخلاط الوثنية التي اصطبغت بصفتها واتخذت لها ألواناً من لتصرف الكادب ، ومن التصق الأجوف الذي تأباه بساطة الإسلام .

فالفلسفة اليونانية في مראה هي تلك الأخلاط العقيمة التي قال عنها لسان المحدث النبي وهو يصف انعام المجتهد ويشترط فيه : « أن يكون صاحب عقل سليم فطري لم يفسد دمه بالمنطق والجدل التعيين ، والفلسفة اليونانية والإلهيات لبيثاغورية ، وبأبحاث الكلام وعقائد الحكماء ونزعات المعزلة وإفراطات الصوفية وشديدات الخوارح وتخريجات الفقهاء المتأخرين وحشويات الموسوسين . »

وهي التي عنها حين قال لسان البليغ القاسمي عن الإدخلاء : « إنهم راحوا بالأحد بما يلائم بقايا نزعاتهم الوثنية فاتحد العمال السياميون - ولا سيما المتطرفون منهم - هذا التحالف في الأحكام وسائل للانقسام والاستقلال سياسي فشأ عن ذلك أن تفرقت لمملكة الإسلامية إلى طوائف متباينة مذهباً ، متعادية سياسة ، متكافئة على اللوام . وهكذا خرج الدين من حضنة أهله وتفرقت كلمة الأمة فطمع أعداؤها . »

وتلك الفلسفة التي جعل صلاح المسلمين مرهوناً بتطهير عقيدة الإسلامية من بقاياها . هي منطق الخلد الذي قد إن الغربيين أهملوه وحققوا أنه لا ثمرة له ، مع أنهم يحتنون بالبحث عن وسائل تفاهم لمجتهات .

وحسب أن حسنات المنطق وعسفته التي تشعب منه أخرى أن تقبح في عبي أنصاره وعشاقه ، إذ وزنوا بين هوائده ومضاره كما لمسا الكواكب في عصره وفيما تقدمه من عصور الثقافة الإسلامية . فإن أحسن ما في المنطق وفلسفاته جدلية لا يعدو أن يكون تمرينات عقية يتدرب بها تذهن على فتح أبواب البحث في المسائل النظرية ومسائل العيب - أو ما وراء الطبيعة - التي قبلما تصفر عن نتيجة قاطعة في موضوع من موضوعاتها . ومن خصائص هذه الموضوعات أنها ثقافة فردية يديرها المفكر في تأملاته بيده وبين نفسه ولا تتألف منها دراسة عامة تتداولها الجماعات وتنتفع بها في مراقبتها ومطالبت تمكيزها . وقد عاب هذه الفلسفات الجدلية عن مبادئ الثقافة الأوربية من النهضة العلمية فلم يكن غيبها ليهوق ظهور العلوم التجريبية ولا ليعرق ظهور صناعات ومخترعات التي تمتعت عنها تلك العلوم . بل يجوز أن يقال إن تلك العلوم قد ظهرت على الرغم من عتراض المناطق المتخسسين عليها وإنكارهم لوسائلها وأساليبها . إذ كان المناطق المتعلمون إيهرون على آرائهم التي تقوم على براهين الخلد والماهرة ويرفضون ما عدا تلك الآراء من قواعد لمحت والتجربة . فغيب الفلسفات الجدلية لم يعطل في العرب شبه العلوم والصناعات . بل قلبيها الذي نرى بين أنصاره وعشاقه هو الذي عطلها وأوشك أن يخلق عليها ماعدها .

وهذه هي الفلسفات المنطقية على أحسنها في أضيق حدودها فلا جرم تنزوي عن أعين أنصارها وعشاقها . فصلا عن مسكرها ، إذا حكموا عليها بأضرارها وطرخوا إلى حرائرها التي تخلفت عنها كلما وصحت إلى عقول الجماعات وتلبست بالمذاهب والمعتقدات وانتشرت على الصورة التي تنتشر بها الأفكار بين العامة وأشياء العامة . وتفضل بها من لغة

الرموز الخيالية والتعويض المعتمدة إلى لغة الواقع مجسم والشعائر المحسوسة والأشباح الظاهرة التي تعقلها الجماعات ولا تعقل فيها بينها فكرة مشتركة سواها .

إن أضرار الفلسفات الحديثة كانت حقيقة واقعة في كل أمة قسرت إليها ، وكان أثرها في الأمة الإسلامية شبيهاً بأثرها بين اليهود وبين المسيحيين وبين أتباع « ررادشت » من متقدمين ومتأخرين ، الحاجة لا تنتهي وحجودات لاتحسم ومماحكات على الصغائر والسمساف من القول لا هائل تحتها على حالي الشوب أو الضلال ، وجملة ما يقال عن أضرارها في عالم العقيدة أنها تفسد بساطتها وتشوب صهاها . وعن آثارها في عالم الثقافة أنها تثير المشكلات ولا تحلها وتشعل مكن العم ولا تكون به إلى عمن مفيد .

والطرفة العممية في طبيعته الكواكبي هي التي ردهته في ذلك المطلق وفسداته وأوحى إليه أن البحث في لغة الحيوان الأعجم أولى وأصيح من البحث فيها ، وقد تأصل في روعه هذه برأى الثابت نتيجة لمخالفاته ونتيجة لمشاهداته للموسسة في رقت واحد .

فمن مطالعته عرف غوائل التي بني أشعها في العالم الإسلامي جدل المصنفين حول مسألة القدر ومسألة مصدات ومسألة القرآن وعقده ومسألة الآيات وقاويلها وأشباه ذلك في مسائل الإمامة الصريحة والمسورة أو الشريعة الظاهرة ولعاطفة أو القياس والتضيق وما انتهى إليه هذه المسألة خاصة من اجترأ المقبلين على رأي لم يجترأ عليه أعظم المجتهدين ، وهو الرأي القائل بتحريم الاجتهاد على المسلمين جميعاً بعد عصر التابعين ، أو على الأكثر بعد تابعي التابعين .

ومن مشاهداته المحسوسة عرف وبأل تصوف الكاذب والفلسفة الناقصة على أبواب من معاصريه الذين تلقفوا البدع وتورثوها من دعة العلم الدحلة بين وثبه ويوناسة فقد كان من وبأل التصوف الكاذب

والفلسفة الناقصة أنه هدم العلم والعمل ، وأفسد الدين والخلق ، وأشاع  
الظلمة والإلحاد بين من يسمون المظالم « تكالفاً على الله » ويسمون للإلحاد  
وصولا يسقط الحدود ويسمح بأرخصة في المخطورات

رأى الكواكبي أثر العلوم الدخيلة في التوريتين الأولى والثانية  
فاحتكم إلى الواقع وإلى النتيجة العملية في موقفه الخادم بينهما فأما  
العلوم الدخيلة فيما مضى فقد كان أثرها مفسدة للحفيدة في بساطتها ومدرجة  
إلى العجز والتمتة في الحياة العامة . وأما العلوم الدخيلة في عصره فقد  
كان أثرها الوصح قوة لأصحابها وغلبة لهم على الجاهلين بها ، وهذه  
إلى المصلحة والعمل والمعرفة بأسس الحياة الواقعية . ولم تكن هذه  
المعرفة عنده بحاجة إلى برهان يؤيدها غير نتائجها الماثلة في سياسة الأمم  
وصناعاتها وأدوات نجاحها واقتصادها .

فبيست مهمة المصلح الحكيم أن يحارب هذه العلوم الدخيلة كما  
حارب أحمقها من قبل ، ولكن مهمته على بعض ذلك أن يرحم  
ها ويجهدها في نقلها واقتصادها ويتحدها سبيلا من سبل الإصلاح وينظر  
كيف يقنع باسم الدين من يعارضون لإصلاح باسم الدين ، لأنه جديد  
ولا محل للجديد عند الجامدين على القديم .

وقد كان موقفه حيال العلوم الحديثة أصبح وأصدق من انعازيين  
لذلك العلوم من رجال الدين الجاهدين في أهم العصر الحديث ، ولا سيما  
لأمة الإسلامية هم يقولون عن كل جديد إنه باطل وإنه يماقص الكتب  
المقدسة والوصايا المأثورة . وهو من وقف كموقفه يرد اتهمه على أصحابها  
ويصيح عليهم أنهم يعارضون العلم والقرآن معاً . إلا أن العلم والكتب  
يتفقان ، وما كتبه العلم حديثاً يجدد من سبق به الكتاب ، أو أشار إليه .

وكان الكواكبي موفقاً في توفيقاته ، لحسن فهمه كتاب دينه ،  
وحسن اطلاعه على كشوف العلم الحديث في عصره ، ولم يحدث بعد  
عصره ما يدعو إلى شيء من الاستدراك على موقفه إلا التفرقة في عصره

هذا بين النظريات العلمية ومقررات العلم التي بلغت من الثبوت أن  
تحتسب من القوانين الطبيعية أو نواميس الوجود المتحقق عليها ، فإذا جاز  
أن يوفق بين حقائق الكتاب وحقائق العلم المقررة فمن الحسن أن نصطح  
بالأناة قبل التوفيق بين الكتاب وبين النظريات التي يتناولها ، والبحث  
ربط طرقها ، لعل الخلاف بين وجهات النظر ومعرض الآراء ، وتذكر  
على سبيل المثال تفسير لسنوات السبع بالسبعين أو تفسير طبقات  
الأرض في علم « الجيولوجية » بالسبع الطباق : « فإن الكشوف الفلكية  
قد زادت عدد السيارات ولا تزال تزيدها مع إحكام الرصد وتعميم النظر  
إلى طوارق المنظومة الشمسية من المذنبات والمجرات ، وهم يحسون اليوم  
سيارات المنظومة الشمسية ثمانية ، عدا الكرة الأرضية والنجوم ، ويحدث  
مثل ذلك في حساب طبقات الأرض على حسب تعريف النطع ومكانها من  
« دار الكرة لأرضية » ، وإذا كان من الثابت أن القرآن الكريم لم يشتمل على  
آية محددة أن تتقبل حقائق العلم فقلديهم خلاف فيما يحسب من الحقائق العلمية  
وما يحسب من نظريات البحث والتجربة ، وقد يدعو الأمر حتماً إلى التفرقة  
الدائمة بين الحقائق والنظريات ، وحسننا من كتابنا المبين أنه يأمرنا بالبحث  
في العلم ولا يصدنا عن حقائقه ولا نظرياته ولا عن التوصل بمحاولة من  
« محاولات لتحصيل تلك الحقائق أو النظريات » .

وبعد سيف وخمين سنة من قيام الدعوة الكوكنية لا يزال أساسه  
« تفويض الذي اختاره للإصلاح الديني صامداً للبقاء عليه : عقيدة خالصة  
من شوائب الجهل والسمسطة ، تؤمن بدينها ودنياها على بصيرة »

## الدولة

الكلام على الدولة وعلى نظام الحكم شيء واحد في مصطلحات السياسة على إجمالها ، ولكنه لم يكن شيئاً واحداً في كلام الكرواكي ومعهصريه لأن كلمة الدولة كانت تعني عندهم « الدولة العثمانية » إذا أرسلت على إطلاقها كانت لها مسألة خاصة مستقلة بشئونها عن شئون نظم الحكمية ، يحدها مركز الدولة العثمانية الذي كان في أحزاب أيامها على الخصوص ممطاً عجيباً بين الأنماط الدولية بغير تغييره بين دول الشرق والعرب مما لم يكن تكوين فريد في رئاسة الدولة وأجناس الرعايا وقوم السلطنة ومواقع البلاد بين القارات الثلاث . أوربة وآسيا وأفريقية .

كانت الدولة العثمانية سلطنة أو إمبراطورية ، متشعبة بجميع ألقابها من الأمم التي تختلف بأجناسها وأديانها ولغاتها ومصالحها ، ويند على منع تشعبها وانقسامها أن الأمم التي خرجت منها واستقلت عن سيادتها بعد ثورات الاستقلال وتقرير المصير زادت على عشر أمم ذات عشر حكومات .

وكان اسم الدولة العثمانية يطلق عليها لأن حكمها من بني عثمان قبيلة تركية تعقد ولاية الأمر فيها لسلطانها وقائد جيشها من أبناء قومه ، إذ كان الرعايا الآخرون يعملون على جيش الدولة لا يشتركون في هيئة عسكرية - غير الكتائب الخفية إلا جوداً متفرقين لا يتجمعون معاً في هرقة مستقلة

وكان رئيس الدولة يصرف إلى ولاية أساطينه وقادة الجيش صفة « خلافة الدينية » لقبه « أمير المؤمنين »

وهي على هذا المركز المخرج تواجد الدول الأوروبية من جهة العدو القديم الذي ترهب به الدوائر وتناوب عليه لتقسيم بلاده بين أو لإدخالها في دوائر نفوذها وحديثها . وقد كاد سم « الرجل المريض » يقلب على هذه الدولة ويصبح عبساً عليها يحهرن به في خطبهم وأقوالهم ولا يتكلمون كلمة من معاملاتهم وصفتات لغتهم والمساومة بينهم ، وسميت بلادها باسم « تركة الرجل المريض » تعجباً بقسوتها وتوريع حصصها عليهم قبل أن يتدبروها ، هذا وقع القصاص الموعود بين ساعة وأخرى .

كان اسم « الدولة » يدور على الألسنة بين رعاياها فتصرف لأذهان إلى حاضرها ومستقبلها في هذه المركز العجيب الذي يؤذن بالزوال - أو بالتبدل على الأقرب - في كل آونة ، ولا يؤدد بالاستقرار أو بالطمأنينة إليه .

ومن ثم أصبحت للدولة مسألة صاحبة مسئولية عن مسألة لتظم الحكومية أو لتظم السياسية في ولاياتها .

أصبحت مسائلها مسألة « الساطان » أو الإمبراطور أو أمير المؤمنين الذي يتولاها ، وأصبحت بنية لدولة التي تتكون منها تابعة للخدمة التي يقصف بها ولي الأمر . سلطاناً أو إمبراطوراً أو أمير المؤمنين .

علام تعتمد الدولة في تكوينها ؟ أعلى لأشقات من الأجاس المتفرقة التي لا تجمعها جامعة واحدة ؟ أعلى الجامعة الطورية إذا كان لابد لها من جامعة سياسية أو روحية تستند بين أجزائها ؟ أعلى الجامعة الإسلامية ؟ أعلى الوحدة الاشتراكية ؟ أعلى التسليم بالواقع وانتظار المجهول في مهب الأقدار ؟

لا بد من مبدأ أساسي من هذه المبادئ يركن إليه صاحب الدعوة إلى المستقبل ويبنى دعوته عليه .

وقد كان برنامج الكوكبي في هذه المسألة صريحاً محدوداً لا تخفى



منه بحافة على من يترجم العمل فيه ، وكل ما انحله من المحيطة لهذا الأمر لحل أنه أعس قواعد و ترك نتيجته المحتومة تنكشف في حينها ، وهي غير مجبولة .

وهو يضم برامجه في مسألة الدولة والخلافة على هذه القواعد الثلاث :

(١) أن يفصل الملك عن الخلافة

(٢) وأن تعود الخلافة إلى الأمة العربية .

(٣) وأن تقوم الخلافة على أساس الانتخاب والشورى والتعاون

لمتبادل على ستة المساواة بين الأقطار الإسلامية

ويستند في كل قاعدة من هذه القواعد إلى مراجع التاريخة كما

يستند إلى مقتضيات الضرورة العملية في أحوال العالم الحديث .

وهو يقرر من تخصيصه التاريخي أن خلافة بني عثمان لم تتعد بها بيعة

من حكومات المسلمين ولا من رعاباها ، فلا يقبها ملوك إيران والمغرب

وألمة الجزيرة العربية الذين لم يخصصوا لسيادة الدولة التركية ، ولا يذكرها

المسلمون في صلاة الجمعة إلا حيث يدينون تلك السادة في أوصاعهم

البيعية . ولم يحدث مثل السلطان محمود العثماني أن تلقى أحد من سلاطين

القسطنطينية بلقب الخلافة وإمرة المؤمنين . « رذ صار بعض وزرائه

يغاطبونه بذلك أحياناً ممتناً في الإحلال وعلواً في التعظيم ثم توسع

استعمال هذه الألقاب في عهد به وحفيديه إلى أن بلغ ما بلغه اليوم يسعى

أولئك القشاشين الذين يدفعون ويترحمون حصرة لسطان احمالي ، للتناول

عن حقوق راسخة سبطانية لأجل عنوان خلافة وهمية متيد في وضعها

بشرائط ثقيلة لا تلائم أحوال الملك ممرضة بطبعها للقلقلة والاضطراب

وتحط العظم . »

ويرى من تحقيقه التاريخي أن سياسة الترك لا يقصدون « عبر التلاعب

سياسي وقبادة تدس إلى سياستهم بسجولة ، وإرهاب أوروبا باسم الخلافة

واسم الرأي العام . »

قال بعد أن بين أن مآرب الملك غلبت في تاريخ لسولة العثمانية على واجبات الخلافة كما تطلبها مصالح الأمم الإسلامية على من يستطيع رعايتها . إلى أن ذكر لك أعوذحاً من أحمد بن قنوق رعايته للملك وإن كتب مصادمة للدين غلبت سلطان محمد الفتح - وهو أفضل آل عثمان - قد قدم الملك على الدين فاتفق سرّاً مع قرديناند ملك الأراغون الأسباني ثم مع زوجته ريزابيللا على تمكينهما من إزالة ملك بني الأحمر آخر الدول العربية في الأندلس . مقابلة ما قامت لديه روما من خلال الامبراطورية شرقية عند مهاجمة مكسوبا ثم القسطنطينية وهذا لسلطان سليم غدر بال عباس واستقصاهم حتى إنه قتل الأمهات لأجل الاجتة . وبما كان هو يقتل العرب في الشرق كان الأسبانيون يحرقون بقيتهم في الأندلس ، وهذا السلطان سيهان ضايق لبرائ حتى ألحاهم إلى إعلان الرفض . ثم لم يقبل العثمانيون تكليف بادر شاه لرفع التمرقة بمجرد تصديق مذهب لإمام حمير ، كما لم يقبلوا من ( أشرف ) خان لأفند اقتسام درس كني لا يجاورهم ملك سني وقد سموا في افرض خمس عشرة دولة وحكومة إسلامية . وأعابوا الروس على انتشار المسلمين وهولاندة على الحوة والمسيحيين ، وتعاقبوا على تسريح الجيش . وباغت العسكر العثماني المسلمين مرة في صعدة والزيد وهم في صلاة العيد .. .

قال . « أنيس نرك قد تركوا لأندلس مادلة وتركوا المهد مصادمة وتركوا الممالك الحسنة الأسيرة للروسين وتركوا قارة إفريقيا الإسلامية للطامعين وتركوا مصادمة في الصبي كآتهم الأعداء » .

ولم يشأ الكواكبي أن يتفرق بين ضرورات الواقع وبين دواعي الاختيار في هذه الأعمام ، لأنه نظر إلى النتيجة التي يقيم عليها حجته وهي فشل التصدي لواجبات الخلافة مع قيود الملك ومآرق سياسة وصحوة الوحدة الجامعة بين دول الإسلام .

وإذا كان بمحصل الخلافة عن بدولة ضرورية قدسرة ومصطحة تختارة  
فليس أولى بالخلافة من الأمة العربية . وقد تبسط الكواكبي في سرد  
الشروط ولأسباب التي هضمت أحوال الحكومات الإسلامية وشحوبها  
في عصره بملاحظتها ، ولكن العناية الجوهرية لى لا ترتبط بتلك الأحوال  
تدخلى فيما يلى :

- (١) أن يكون الخليفة عربياً .
- (٢) وأن يكون اختياريه بالانتخاب .
- (٣) وأن تكون وظيفته روحية
- (٤) وأن يعاونه مجلس شورى تمتش فيه جميع الشروب الإسلامية .
- (٥) وأن تتمتع وصاياه طوعاً في لمائل الدبيلة . ولا تتعرض في  
تنفيذها للمشكلات السياسية .

ولا بد من التمسك لقيام الخلافة بسداد لأسباب في العلم الإسلامي  
لقوله هذا النظم ويثارة على نظم لتقيد لى فرصتها مأرب أصحاب  
السلطانة ووسائل الدعاة المخرصين بعد عصر الخلفاء الراشدين ،  
وتتصدى لهذه المهمة جماعة منظمة تعدس أساس لشورى والاختيار  
وتتخذ مقرها في ميناء متوسط كورسجى أو لكريت ، ثم تعين دعوتها  
وتسلخها إلى ولاية لأمر في الاقتصاد الإسلامية

ويظهر من تمصيل لخطط لى رسمها الكواكبي للتسرح في تحقيق  
وظيفة الخلافة على هذه الصورة أنه كان شديد الحذر من مقدومة الدول  
الكبرى لى تعصب مسألة الخلافة الإسلامية ، وأنه أفرط في الحذر  
أحياناً فقدم حسب التقية والحجامة على كس حساب بشطه في حبه ،  
ولم يحارب الحقيقة حين هتم بتفسير مريضه جهاد على النحو الذى يزيل  
مخاوف الدول ومخاوف الأمم من غير المسلمين على لتعميم . فقد أصاب  
حين قال :

« إنه ليس في علماء الإسلام مطلقاً من يحصر معنى الجهاد في ميل

لله في مجرد معارضة غير المسلمين ، بل كل عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى لكسب لأجل العياش ، يسمى جهاداً وبذلك يعلمون أن قصر معنى الجهاد على الحروب كان منقياً على إرادة الفتوحات ... كما أعطى اسم الجهاد مقابلة لاسم الحروب الضمنية .

« كنتك أصاب حيث قوت » إن أصل الإسلام لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم بل يستلزم الألفة . و« من لعرب آيما حلوا في لبلاد حلوا أهلها بحس لقدمه والكتاب بديهم وأههم » .

ولكنه نافع في دفع الخوف وإلقاء المقاومة حين استطراد فائلا إن لعرب « لم يعبروا من الأهم التي حلت بلادهم وحكمتهم » ، لم يهاجرو منها كعب وتونس ومصر بخلاف الأتراك ، بل يعقبون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم لله لأهم يدعون بكلمة رهم سبحانه وتعالى شأنه .. ( وتلك الأيام بدلوا بها بين الناس ) .. »

ثم كشف عن اسباب تلك المعلقة في الفقية حين قال بعد ذلك « فإن علم السياسيين هذه الحقائق وتوابعها لا يتحدرون من الخلافة العربية ، بل يرون من صواحبهم الخصوصية وصولح النصرانية وصولح الإنسانية أن يؤيدوا قيام خلافة عربية بصورة محدودة السيطرة مربوطة بشورى على النسق الذي قرأه »

« الكواكبي » « الديموماسي » السياسي هنا أظهر من الكواكبي الشاعر . « وأم القرى » هنا أسلوب من العمل غير أسلوب « طائغ الاستعداد » . فإن الكواكبي الشاعر لم يقبل من المسلم أن يدعن للغصب والسيطرة في حكومة مسلمة ، ولم يحدد منه أن يستكين لتداول الدول وحكم الأيام جهلا بمعنى التسليم للقضاء ، وإنما هي مزايا الحياة لا تؤمن مرئها في طريق الثورة ولا سلامة من عثراتها قبل استوائها على حادثها المثل .

على أن الكواكبي الشاعر كدد أن يتكشف لقارئه في « أم القرى » بوفى صدد الكلام على الخلافة والدول الأخنوية ، حيث قال وهو يتكلم

عن القضية الخامسة والأربعين : « إذا صادقت الجمعية معاوضة في بعض أعمالها من حكومة بعض البلاد ولاسيما البلاد التي هي تحت استيلاء لأجانب فالجمعية تتذرع ( أولا ) بالوسائل اللازمة لمراجعة تلك الحكومة وإقناعها بحسنة جمعية فيذا توفقت لروح الفتية . ولا فتلتجأ الجمعية إلى الله بقادر الذي لا يعجزه شيء . »

ومراد الكواكي من عبرته هذه واضح عند من يفهم أن العجوة إلى الله « القادر الذي لا يعجزه شيء » يعني كل شيء غير التسليم ولنكوص عن العمل لدى ساء وتقدم وتمت له أسباب التدبير .

• • •

إلا أن القاري يستطيع أن يعتمد على العاية الخوهرية في أمر الدولة وتخلاته من وراء الخطط أو المبادئ العامة التي تدعي لبعض الأزمات ولا تصلح لعبورها . والتي رسمتها حوادث الآلة كى ولم يرسمها بنفسه باختياره . ولعله كان بعيد في النظر لو ترك حتى به لأجل فهمه منها ويثبت ويريد عليها وبنهض منها ، ولا يدعها تحفظه - بأية حال - عن الصورة التي بقيت له بعد نصف قرن من وفاته

« إذا تمكّن القاري من وراء تلك الخطط ادوة قوية إلى العاية الخوهرية فلا نراع في تلك العاية ولا في الإيمان بأن الوصول إليها هو معبث الدعوة التي اضطاع بها وصعد عليها ، وخلصتها في كلمات معدودات أن دعوى الخلافة في القسطنطينية لا ينبغي أن تعوق الأمة العربية عن نهضة الإصلاح والحرية

• • •

## النظام السياسي

علوم سياسة أقرب العلوم إلى أن تكون « اختصاصاً » للكواكبي  
بين درسات عصره . المهم تلك من كلامه في مقدمة « طبائع الاستبداد »  
كما يوضحه في مباحث لكتاب كانه ، لأنها مباحث مشروحة على إيجازها  
لا يحول فيها قلم كاتب لم يتوسع في هذه الدراسات .

ونكتب قد عينا من طبيعة تفكير الكواكبي أنه يدرس لعمل  
ويستد ، أو ليدرس عن وسائل العمل والتنفيذ ، لكن ما كتب في موضوعات  
العلم السياسي فهو من قبيل « المذكرات للإيضاح » التي تبيّن حدود  
الحل المطلوب وتبين الطريقة التي تتبع في تنفيذه ، وما عدا ذلك من  
مباحث النظر والتأمل فقد بقيت في كتاباته المعروفة « رؤوس موضوعات »  
م يفتح له الوقت لاستيفائها ولعله لم يجد من لوازم عمله أن يستوفينا على  
النهج المدرسي كما يصنع المباحث الذي يدرس الموضوع ليؤلف فيه  
أو ليصطاع بتعليمه والإقناع به من الوحيّة النظرية . ربما أحاطا بعنوانها  
الاحتمال لمن يريد أن يرجع إليها في مصادر تخصص وانيد ليصحح النظر  
أو ليحقق ومثال العمل الملتزم

ومن قبيل هذه المباحث أي تركها « رؤوس موضوعات » في  
الصفحات الأخيرة من « طبائع الاستبداد » قوله في مبحث الحقوق  
العمومية « هل للحكومة صفة المالكية » أم صفة الأمانة وسطرة  
على أملاك العمومية ، مثل لأراضي والمعادن والأنهر والسواحل  
وتقلاع والمعابد والأبصيل والمعدات ، ومثل حقوق المعاهدات  
ولاستعمار ومثل حقوق إقامه الحكومة وتأمين العدالة وتسهيل الترف  
الاجتماعي والإيجاد لتضامن الأفراد ، إلى غير ذلك مما يحق لكل فرد أن  
يشتمع به وأن يطمئن ؟ » .

ومن هذه المباحث قوته عن توزيع السلطة . هـ هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث في واحد ؟ أم تخصص كل وظيفة من سياسة والدين والتعليم عن يقوم بها باتقان ولا يجوز الجمع متعاضداً لسلطة ؟

وقد أثبت من عناوين هذه المباحث خمسة وعشرين عنواناً قال عنها : « إن كلامها يحتاج إلى تدقيق عميق وتفصيل طويل وتطبيق على الأحوال والمتغيرات الخصوصية » .

ثم مضى قائلاً إنه ذكر : « هذه المباحث تذكركم للكتاب هوى لألسنة وتنشيطاً لتسجده على حوضها من مربيها ، تبعاً لمكة إيمان بيوت من أرواحها ، وإن اقتصر على بعض الكلام بها يتعلق بالمبحث الأخير منها فقط ، أعني مبحث السعي في رفع الاستبداد » .

ولما حصل هذا لمبحث الأخير لأنه يس فيه الوسيلة العملية التي لا يمكن فيها مجرد التأمل وتقليد وحود النظر في مختلف الآراء . وذلك شأنه في كل ما يمكنه عند وجوب التفرقة بين ما يدرس وما يعمل ، ووجوب التفرقة أيضاً بين ما شرع في عمله وبين ما يؤجل إلى حين لعمل في أوانه .

ولا ينبغي أن الكواكبي كان يكتب ما ينوي إعلانه في بلاد تابعة للسيادة العثمانية . سواء منه ما كتبه في حجب قبل هجرته لأخيرة وما كتبه في عصر ناسخ الصريح أو باسم مستعار ، فلم يكن في وضعه أن يعلن ما يمتعه القاتون ويمنعه العرف شائع بين الناس ، وهم أصحاب الصحف وخطباء التي تدعى بالولاء للدولة صاحبه سيادة . ولكنه كان يتحرى التعبير عن رأيه بالأدب الذي يدين عليه دلالة لا شك فيها دون أن يخرج ما يوصي المكتوب عن حدوده القنوية . وعلى صعوبة التعبير الذي عن حفظ الثورة لم يكن برنامجاً في مسألة النظام السياسي ما يندرج المجهول عند قراءته ولو لم يكن منه من يلقاه ويسمع منه الرأي بصريح فيما يريد به وإلا يراه .

فلم يكن أصرح - في حدود القانون - من دعونه للعرب إلى  
الاستقلال بحكم أنفسهم حيث يقول في « أم القرى » إن التصديق في الخنس  
بين الراعى والرعية « يجعل الأمة تعبر رئيسها رأساً متممات دون حفظه  
وقون حكمها حسب حيث لا يكون لها في غير ذلك فلاح أبداً كما  
قال الحكم المصطفى :

وإنما الناس بالمسوك ولا يملح عرب موكها عجم

وإنما لأحلاف فيه أن من أهم حكمه الحكومات أن تتحقق بأحلاف الرعية  
وتتحد معها في عوائدها ومشاريعها :

بلى هو يصرح بما هو أقوى من ذلك وأدن على رأيه في حكومة  
عصره تركية إذ يقول إن التصديق بين الراعى والرعية من العرب هو  
الواقع الممكن الذي لا محذور للحاكم عنه وليس قصارى الأمر فيه أنه سياسة  
حسنة أو صليحة مستحبة . ويستشهد بذلك بالحكومات - غير العربية -  
التي حكمت العرب قبل الترك العثمانيين ، إذ يذكر آل بويه والملجوقيين  
والبويين والغوريين والأمراء الجراكسة وآل محمد علي ، ثم يقول :  
« فإنهم ما لشوا أن يستعربوا وتحلفوا بأحلاف العرب واعتزجوا بهم وصاروا  
جزءاً منهم وكذلك الممول التتار صاروا قرماً وهوداً ثم يشد في  
هم لئلا يغير الممول لأكثر أي لغنائمهم فلاهم بالعكس يمتخرون  
محافظتهم على غيرية رعاياهم فلم يسعوا باستئراكتهم كما أنهم لم  
يقبوا أن يستعربوا واستأخروا منهم قبله أن يتعربوا أو يتألموا .  
ولا يعمل لذلك صلب غير شديد معهم يستند عليه من أقوىهم التي  
تخرج على السنتهم » .

• • •

ولا حاجة بالكوكبي بعد هذا البيان عن ضرورة التصديق بين الراعى  
والرعية إلى كلمه صريحة أو عامضة خلاه الوجهة التي يسعى أن تنهى  
إليها مساعي العرب في يفتلتهم ، فلايد أن يفتلحوا ، ولن يفلحوا وهم



عرب يملكهم عجم . وملوكهم القنوق بالأمر لا يستعربون ولا يبروفهم  
أن « يشترك » رعياهم ، ومنهم من يؤثر أن يتصرنس ويتألمن ويشحه نحو  
غرب ولا يحول وجهه إلى قبله شرقية .

والعينة لمثالة أمام المجاهدين في سبيل ايقظة عربية هي « الاستقلال »  
وإقامة لدولة التي يقيمها العرب ويرعاها العرب . والمطالبة في انتصار  
تحقيق هذه لغاية محبر . يمكن من وجوه الإصلاح التي تزيل أسباب  
الحلل في إدارة السلطنة العثمانية وأهمها - فيما يهم البلاد العربية -  
« التمسك بأصول الإدارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة وعدم  
وقوف رؤساء الإدارة في المركز على أحوال تلك الأطراف المتساعدة  
وحصانتي سكانها » .

وينبغي بهذا السبب سريان آخر يمدو للطر لأول وهلة أنهما  
متناقضتان لولا أنهما يرجعان إلى حاتين مختلفتين ، وهما حالة الرعية  
لشرقية وحالة الرعية الأناضولية عبر العربية ممن تشغلهم قوايس الامتيازات  
والقرويين المحلية المتصورة على بعض الأقاليم

والسبب الأول يرجع إلى « توحيد قوايس لإدارة والعقوبات مع  
اختلاف طوائع أطراف المملكة واختلاف الأهالي والأحاسيس والعادات » .  
ولا يخفى صدد هذا التوحيد من الوجهة الاجتماعية والإدارية حيث تنبع  
« لإجراءات » الواحدة في المقاصد وتغيير الدواوين بين أطراف دولة  
تمتد من ودي النهرين إلى لبحر الأبيض ومن اسحر الأسود إلى حبيح عدن ،  
وتسرى على أقوام بينهم من الاختلاف ما بين الأرمس والحركس وترك  
والعرب في الحاضرة ولبادية .

والسبب الآخر يرجع كما قل انكواكي إلى « تنوع القوانين  
الحرفية وتشويش القضاء في الأحوال المتماثلة » .

ففي صدر الأمر يبدو أن صاحب « أم القرى » يشكو في وقت  
يحد من توحيد الإجراءات والقوانين ومن تنويعها واختلافها ، وهي

شكوى متناقضة ولكنه تناقض في الظاهر دون حقيقة كما أسلف لأن هذه الشكوى في مؤتمر أم القرى خاصة - إنما ينبرها التسريع الذي يقوم على تغيير بين جنس وجنس وطائفة دون طائفة إندفاعاً للمعاهدات الأجنبية تارة أو مراعاة للمعارعات العائلية وامتناعاً لبواعث نفث المذاعات تارة أخرى ، وقد كان هذا التغيير عروفاً شائعاً في نظم الدولة يوم نشرحات الإدارة والأحوال الشخصية ويختلف بالإقليم الواحد بين فئة وفئة وبين عشيرة وعشيرة ، ولا يقتصر على الأجانب ولا على الأقاليم التي شبت فيها ثورات وتدخلت فيها الدول لتقرير نظام الولاية أو الإدارة بها .

فالكواكبي كان يشكو في الحلقين من شيء واحد . وهو محاربة الشريعة للمصلحة إما بالنسوية حيث تفرق الأحوال أو بالثفرقة حيث تلزم لعدالة والمساواة

ورعنا أصداف الكواكبي شكوه لصية إلى هذه الشكوى الاجتماعية من تضييق القوانين والإجراءات - فلهذا - وهو الخبير بعقد التشريع - كان يسكر من دعاه التجديد من فقهاء لترك أهم على تقديره لم يحسنو المحامدة ولم يحسنوا الانتداع ، وأن الدولة ترحص في تعديل أو عدم التشريع لغير ضروره وتشدت في بعضها لآخر كذلك لغير ضرورة ، وجاءها أكثر من هذا الخلل في السنين ستة الأخيرة . أي بعد أن انصرفت لنظام أمورها معطلت أصولها القديمة ولم تحس التقليد ولا الإبداع ففشت حادها ولا سيما في العشرين سنة الأخيرة التي صاع فيها ثلثا المملكة وحرب ثلث الباقي وأشرف على لصبع ، لمقد الرجال وصرف حضرة السطان قوة سبطته كنها في سبيل حفظ ذاته بشريعه وسبيل لإصرار على سياسة لانفراد .

وقد صرح الكواكبي ، لحل ملائم لهذه المشكلات الأساسية والقانونية لبلاد عرب ، وبلاد الدولة عامة ، في أطوار الانتخاب ، فقال في هامش المصفحة التي سرد فيها أسباب الخلل من أم القرى إن « من أهم الضروريات أن يخص كل قوم من أهلى تركيا على استقلال وعلى

إذرى يناسب عاداتهم ومصالح بلادهم كما هى الحال فى إمارات ألمانيا وولايات أمريكا الشمالية ، وكما يعمد الإنكليز فى مستعمراتهم والروس فى أملاكهم .

ومعنى هذا الحل أن يؤخذ لدى حرف بعد ذلك باسم « اللامركزية » ، وشعر سادة الترك أنهم بضرورة بعد تفكير الكواكى فيه بسوات ، فهو - ولا ريب - رائد الدعوة للامركزية التى جهر بها « حرب الائتلاف و الحرية » وصمم إليها « دسأ » من رجاء الترك والعرب وبعض الأقوام المشتركين فى تركيب السلطة العثمانية ، وكانوا ينادون بالائتلاف لتكوين سلطة من الشعوب المتألمة مع استملاء بحكوماتها الذاتية ، وينادون بالحرية لتعطيل حقوق شعوب فى سياسة أمورها عن حقوق السلطة المفردة بالحكومة المركزية ، ويقابلون بذلك دعوة المركزية المبروهين باسم حرب الاتحاد والرفى يريدون بذلك أن تكون لوحدة مركزية فى أسولة غالبة على لائتلاف . وأن تكون حجة « الرفى » بقيادة الرئسة الحاكمة غالبة على حجة المطالبة بالحرية لكل ولاية عن غيرها .

ولا يلجئنا مؤلف « طابع الاستبداد » إلى مراجعة واستنباط لعلم بصفة الحكومة التى يختارها ويسعى إليها فلا بد أن تكون - بالذاهة - حكومة خير مستبدة أو « حكومة مشولة » .

أما العنوان الذى يطلق عليها فى مصطلحات لعلم السياسى فيبقى أن يتوافق لها بين الشروط بكثرة شرطان على الأقل من شروط الحكومات المشولة ، وهم أن تكون « ديمقراطية اشتراكية » .

وقد عرف الاستبداد تعريفين يختلفان بعض الاختلاف خطأ ويقتضيان كل الانفاق فى المعنى والنتيجة .

والاستبداد كما قل فى مقدمة طابع الاستبداد هو « التصرف فى الشئون المشتركة بتفصيل المولى » .

أو هو كما قال بعد ذلك « تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم  
بلا حروف تبعة » .

ويمتنع الاستناد - نظراً ومعللاً بقيام الحكومة المستقلة ،  
وأفصل هذه الحكومات التي تجتمع لها مبادئ الديمقراطية والاشتراكية ،  
وتتواءمها طبيعة التفكير العملي التي تتخرج بأراء الكواكبي في كل  
مسألة يتسرع فيها محل البحث والمناقشة وتساوى فيها وحده النظر عند تحقيق  
نتيجتها العملية وضمان المصلحة المنشودة بصالح تلك النتيجة .

فلست الغيرة عند الرجل العام بخافية الاستناد أن يتوهم للحكومة  
شكل من أشكال الدستور ، صورة من صور الحقوق الكثيرة التي ترشح  
أفراد الرعية للنيابة أو لانتخاب ، وإنما لهم في جميع الأشكال على تعدد  
المصطلحات والدمج أن يكون ولي الأمر مسؤولاً عن عمله محاسباً عليه ،  
وأن يمتنع عليه الاستناد وهو التصرف بالحرى والأمان من التبعة بلا حشية  
حساب ولا عقاب محققين » .

ولا يمتنع الاستناد بامتناع حكومة الفرد ولا يتحقق الحكم الصالح  
بإشتراك الكثرة فيه أو بتأييد الكثرة للحاكمين المتعديين ، أو كما قال في  
المقدمة : « إن صفة الاستناد كما تشمل حكومة حاكم الفرد المطلق  
الذي تولى الحكم بالعدل أو بالوراثة - تشمل أيضاً حاكم الفرد المفيد  
الوارث أو المستحب متى كان غير محاسب . وكذلك تشمل حكومة  
الجمع ولو متحجاً . لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع لاستناد وإما قد  
يعدله نوعاً ، وقد يكون أحكم وأصر من استناد الفرد ، ويشمل  
أيضاً الحكومة الدستورية المعركة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ . لأن  
ذلك أيضاً لا يرفع الاستناد ولا يحققه ما لم يكن المهملون مسئولين  
لدى المشرعين وهؤلاء مسئولون لدى الأمة التي تعرف أن تراقب وتؤدي  
الحساب » .

ولا يمتنع الاستناد في شكل من أشكال الحكومة مع خفلة الأمة

وقدرة الحاكمين على تضبيبها والتخفيف عليها ، قال : « إنه ما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية و لتواخذة بسبب من أسباب غفلة الأمة أو إغفلها لها إلا وتسارع إلى لتلبس بصفة الاستبداد . وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه وفي حذمتها شيء من القويثين المثلثين المهرلئين : جهالة الأمة والحدود المنظمة . »

ومن علامات الحكومات الصالحة نرى يتعلم عليها الاستعداد في رأى الكواكبي أن يشترك فيها من صاهم التران لكريم بأهل الذكر واصطلاح الفقهاء على تسميتهم بأهل « أهل والعقد » من قادة الأمة وهذاتها . قال بسند لإسم الصيبي في أم القرى : « وهؤلاء الذين نسميهم عندنا بالحكماء هم الذين يطاق عليهم في الشريعة الإسلامية سم أهل الحل والعقد الذين لا ينفقد الإمامة شرعاً إلا ببيعهم ، وهم حراس الطبقة العليا في الأمة الذين أمر الله عز شأنه بنبيه بمشاورتهم في الأمر . لأنهم رؤساء الأمة وركلاء العامة ولقائعون في الحكومة الإسلامية مقام مجالس النواب والأشراف في الحكومات المقيدة . »

وإذا أشر الكواكبي إلى الطبقة العليا في « أم القرى » أو طامع الاستبداد « لم يدع أحداً من قرائه يفهم أنها لطبقة العليا بالانقلاب أو الطبقة العليا بالميراث . لأنه يسمى أصحاب الانقلاب من حدم الاستبداد « بالمتحدين » أو أذعياء المجد ويقول إن هذا التمجيد « خاص بالإدارات الاستبدادية لأن الحكومة الحرة التي تنش عواطف الأمة تأخذ كل الإباء لإحلال التساوي بين الأفراد إلا لموجب حقيقي . فلا ترفع قدر أحد عنها إلا أنه قيمة في خدمتها ، أي الخدمة العمومية ، كما أنها لا تتميزه بوسام أو تشرفه بلقب إلا إعلاناً للخدمة مهمة . »

وإنما يكون التمجيد كما قال : « أن يتقلد الرجل سيماً من قبل الجبار يبرهن به على أنه جلال في دولة الاستبداد ، أو يعق على صدره وسماً مشعراً بما وراعه من الوجدان المستريح للعدوان ، أو يتحلى بسيور مزركشة تنبئ بأنه صار أقرب إلى الفساد منه إلى الرجال . وبعبارة

أوضح وأخصر هو أن يصبر الإنسان مستنداً صعباً في كنف المستند الأعظم .

وطبقة الميراث . ما لم يعبره العلم والخلق لربيع - هي جرثومه لبلاء كما قال ، وأبناؤه « هم الأكثر عدداً ولأهم موقعاً وهم معظم نظر المستند في الامتعة وموضع ثقته » .

قال من كلامه عن الاستند ولجده هؤلاء الأصلاء « هم جرثومة لبلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل ، لأن بني آدم داموا إخواناً متداوين إلى أن ميزت الصدقة بعض أفرادهم بكثرة النفس فمشأت منها القرات العvisية وتلثاً من تنازعها تميز أفراد على أفراد ، وحفظ هذه الميزة أوجد الأصلاء . فالأصلاء في عشيرة أو أمة إذا كانوا متقاربين القرات استبدوا على باقي الناس وأسسروا حكومة أشرف . ومتى وجد بيت من الأصلاء يتصبر كثيراً على باقي البيوت يستند وحده ويؤسس الحكومة الفردية المقيمة إذا كان باقي البيوت بقية بأس ، أو لطلقة إذا لم يبرأ أمامه من يتقبه » .

ثم قال : « إذا لم يوجد في أمة أصلاء الكليلة ، أو واحد ولكن كان لسواد الناس صوت عالى ، أقامت ثلاث الأمة فعلا أو حكماً بنفسها حكومة انتحائية لا وراثية فيها ابتداء ، ولكن لا يتوالى بفتح مقولير إلا ويصير أنسالم أصلاء يتناصرون ، كل فريق منهم يسمى لاستحاب طرف من الأمة استعداداً للمغلبة وإعادة التاريخ الأول . . . » .

• • •

فالطبقة العليا - في تعبير الكواكبي - لا تعنى طبقة من طبقات المظاهر المصنوعة ولا المظاهر المودوثة : لا تعنى حملة الألقاب والرتب التي يجعلها الحاكم المطلق على خدامه وعبيد سلطانه ، ولا تعنى أصحاب لوجاهة المنفردة من الأسلاف إلى لأعقاب دون أن ينتقل معها سبب من أسباب الوجاهة النعمة . وإنما الطبقة العليا في تعبير صاحب

« طبائع الاستبداد » ، و « أم القرى » . هي الطبقة التي ستعدت بكفائتها ودرايتها لقيادة الأمة والاضطلاع « بخدمة العمومية » والسبق إلى تكاليف العمل والمعرفة ، تتولاها وكالة عن جمهرة الأمة . ولا بد في ولايتها من صوت غالب سراد الأمة ، على أية حال . كما يؤخذ من حصائمه لأسباب فساد الحكومة لها جميعه من هذه لأسباب السياسية وللدولية والأخلاقية في فصل خاص ألحقه بمصوله أم القرى .

وأياً كان معدد « الصفة » في تعبير الكواكبي خاصة فقوم مقام مصالح كنه أمراء أن تتساوى الطبقات في الحقوق القانونية . وأن تضارب في الثروة ودرجات المعيشة

فلا مناص من إعداد الشعوب تبين « لأخوة العمومية بالتجارب بين الأمر والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات »

ولا مناص من توزيع الثروة توزيعاً يمنع به التهاوت ، وإن الاستبداد كما قال في طبائع الاستبداد هو الذي جعل « رجال السباسة والأديان ومن يتحقق بهم ، وعددهم لا يتجاوز الخمسة »<sup>(١)</sup> في المائة يتمنعون بنصف ما يتجمعه من دم البشر أو زيادة » .

قال « وإن أهل الصنائع لنفسه ولكلية والتجار اشرهين واحتكرين وأمثال هذه الطبقة - ويقدرهم كذلك خمسة في المائة يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو مئات أو الألوف من لصاع والزراع ، وهذه القسمة المنفردة بين بني آدم وحواء إلى هذه النسبة المتباعدة هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي » كما قل وكرر المقال بما يعود إلى بيان رأيه المفصل فيه عند الكلام على برنامجنا المختار لإصلاح الحياة الاقتصادية .

ويقتضي التساوي بذلك الطبقات على هذا المبدأ ألا تستأثر طائفة من الأمة بانتخاب أهل العلم ولدراية ، بل يكون حكماء الأمة كما قال

(١) في الطبقات الأربعة مائة ،

يدين حكيم الصيني « من أي طبقة كانت من الأمة ، إذ قضت سنة الله في خلقه ألا تخلو أمة من الحكماء » .

ولا فرق بين طائفة وطائفة في التخلق بأخلاق الاستمداد متى قام الأمر على الحكم المطلق وامتعت المساواة في الحقوق بين الناس . « فإن الحكومة المستندة تكون طعناً مستندة في كل فروعها من المستند الأعظم إلى الشرطي إلى الفرائض إلى كناس الشوارع ، ولا يكون كس صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً لأن الأسافل لا يهتم جلب حمة الناس . إنما غاية معاشهم اكتساب ثقة المستند فيهم بأنهم على شاكلته وأبصار لدولته ، شرهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة . ويهدم يأثمهم ويأثمونه ويشاركهم ويشاركونه . هذه لفظة المستندة يكرر عددها ونقل حسب شدة الاستمداد ونقصه ، فكيفما كان المستند حريصاً على الصنف يحتاج إلى ردة حش المتحمدين العاملين له ، والحافظين عنه واحتج إلى الدقة في انتخابهم من أسفل الأسافل الذين لا أثر عندهم للنسب أو وجدان ، واحتج إلى حفظ النسبة بينهم في مراتب بالطريقة المعكوسة وهي أن يكون أسفلهم طوعاً أعلاهم وظيفة وقرىاً » .

• • •

والكواكبي يذكر السبب لصالح للاقتداء به في أخلاق الرعاة والرعايا ، ولكنه يحذر قارئه ويحيد التحذير مرة بعد مرة من الخلط بين الاقتداء بأخلاق الحاكمين الأولين وبين السعوى إلى تفديس أولئك الحاكمين أو إحاطتهم بهالة من عصمة الربوبية أو الرسالة فإنه - مع تبرره أن الخلافة الإسلامية لم تثبت من قبل لغير الخلفاء الراشدين وحاد معبودين من أمثال عمر بن عبد العزيز - يرى أن الفصل بين الملك والخلافة ضرورة لا يحصى عنها كى ينسب للرعية أن يحاسبوا ولي الأمر ويقيموا ولاية الأمر عن أساس الحكومة المسئولة ، وقد يحال بينهم وبين ذلك بانتحال صفة القداسة لى يعتصم بها الخليفة من محاسبة وعنايه ومراجعة الأمة في مجموعها لسياسة لدولة ،



ولا اكترث للصور والأشكال في كل ما تقدم من قواعد الحكم  
وأظلمته وسائر شروطه . فكل صورة من صور الحكم حسنة نافعة  
إذا تحققت فيها المحاسة ولحقت فيها تبعات الحكم فعلا عن يتولاه ، وكل  
أمة قادرة على محاسبة حكامها إذا جئت فيها المعاواة الخنوقية وامتنع  
فيها التفوت البعيد في الأرزاق والأقدار ، ونجابت عنها غشوة العسل  
بين صامة أهلها وارتفع إلى مكان القيادة من استعد بكفائته ودر يته لقيادتها ،  
كائناً ما كان منشؤه من صامة طلقائها .

. . .

## النظام الاقتصادي

فقدنا في الكلام على النظم السياسي أن الكرواكي يعتبر لتفاوت في ثروة دعامه من أقوى دعائم الاستعداد ، لأنه يسمح لأصحاب النفوذ الديني أو الديوي وهم لا يزيدون على الخمسة في المائة من جملة سكان بأن ستأثرو لأنفسهم بحو نصف ثروة العامة .

وهو يسكر مثل هذا الإنكار أن يحصن مثل هذا التفاوت بأية ذريعة من السرائع ولو كانت ذريعة العمل والصناعة ، فليس من الجائز أن يعيش إنسان واحد مثل ما يعيش به المئات أو الألوف لأنه يتفوق على غيره بعمل بارع أو صناعة نفيسة ، ولا لأنه يحسن الوساطة والدورة في سوق البيع والشراء أو في سوق الفكر والضمير . ههناك أصناف من الناس لا يعملون إلا قليلا . إنما يعيشون ، لحيلة كالمساهمة والمشعورين باسم الأدب والدين . . .

والملك على العموم لا يجتمع في أيدي الأغنياء إلا بأنواع من العلة والحاجة . . . وليس من شأن التفاوت في القدرة والمهنة أن تمنح إنساناً واحداً ما يقوم بنصفات الألوف من الناس . وليس هذا التفاوت مما يحتاج إليه العامل المقتدر لإنتقان عمله أو يحتاج إليه المجتهد الطموح لاستنهاض همته وإشباع طموحه . بل ربما كان فيه مدرجة للعناية ولبطانة ومدعاة إلى الإسراف والإسفاف .

وليس المطلوب أن يطل التفاوت بين الناس في المعرفة والذكاء ولا أن يطل لتفاوت بينهم في المساعي والجهود ، فلا يقتضي الأمر كما قال : أن يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم أنواع أو الصنعة المهيبة بذلك للجهل النائم في ضل الحائط ، ولا ذلك

المحتر المحتد مخاطر بالكسول خال . ولكن بعدلة تقتضى غير ذلك لصوت ، بل تقتضى الإنسانية أن يأخذ الراى بيد السافل فيقر به من منزله ويقاربه فى معيشته ويعينه على الاستقلال فى حياته .

وأياً كان جهد المحتد وعلم لعالم فلا يجوز أن يريد الرزق من الحاجة تلك الزيادة المفرطة التى تصعب لهائمه من لأمة بتسجير جميع طوائفها . لأن فرط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة فى الإنسان وهذا معنى الآية . - إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . - مصرر لثروات الإفرادية ل جمهور الأمم أكبر من نفعها . لأنها تمكس الاستعداد لداخلى فتجعل الناس صنفين : عبيداً وأسياداً ، وتقوى الاستعداد لداخلى فتسبب للأمم التى تعنى بعناء أفرادها التعلنى على حرية و استقلال الأمم لضبيعة . . .

• • •

وتصير لنا سعة إضلاع الكواكى فى مسائل الإصلاح من إحاطته بأوائل الأعمار والآراء التى كانت تحب فى أواخر القرون الماضية طبيعة سائدة ، بل طبيعته متهمجه ، فى مجاز الإصلاح الاقتصادى والمناهج الاشتراكية ، فذكر تحديد الملكية الزراعية وذكر تأمين المرافق العامة ومضت بعده خمسون سنة قبل أن يتيسر تنفيذ هذه الآراء فى بلادنا الشرقية .

قال : « هذه إيرلنده مثلاً قد حمده ألف مستند مالى من الإنكيزر لستمعوا بثلقى أو ثلاثة أرباع ثمرات أنعب عشرات ملايين من البشر الذين حلفوا من تربة إيرلنده وهذه مصر وغيرها تفرب من ذلك حالاً وستوقها مالا . وكم من البشر فى أوروبا المتقدمة - وخصوصاً فى لندن وباريس - لا يجد أحدهم أرضاً ينام عليها متمدداً ، بل ينمون فى الطبقة السفلى من البيوت حيث لا ينام البشر ، وهم قاعدون صهواً يعتمدون بصورهم على حبال من مسد مصوبة أفقية ، يشوون عليها يمة ويمرقة » (الكواكى)

قال : « وحكومة الصين المختلة التصام في نظر المتعلمين تحرم قوانينها أكثر من مقدار معين من لأرض لا يتجاوز العشرين كيلو متراً مربعاً أى نحو خمسة أفدنة مصرية أو ثلاثة عشر دونماً عثمانياً ، وروسيا المستبده القاسية في عرف أكثر الأوروبيين وصعب أحرار لولاياتها البولوية والعربية قانوناً أشبه بقانون الصين وردت عليه أنها معنت صناع دعوى دين غير مسجل على «الاح» ، ولا تأذن بملاح أن يستلين أكثر من نحو خمسمائة فردك ، وحكومات الشرق إذا لم تستلرك الأمر فتصيح قانوناً من قبيل قانون روسيا تصيح الأراضي الزراعية بعد خمسين عاماً ، أو قرن على الأكثر ، كإيرلنده الإنجليزية المسكينة .. »

وقال بعد أن قرر أن الشرط لأول لإحراز المال أن يأتي من بلد لطبيعة أو بالمقصصة أو في مقابل عمل أو مقابل صناع

« والشرط الثاني ألا يكون للتمون نصيب على حاجيات الدين كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع وإعمال والصناعة والتعليب على المصاح مثل امتلاك الأراضي التي جعلها حائلياً ممرحاً لكافة مخلوقاته »

• • •

وعلى هذا السبق إلى الإحاطة بالأراء المسجدة ينبى من لنايا أقواله العمة في الاقتصاد أنه كان يتقصى معارفه الاقتصادية من أصولها التي تقدم بها الزمن أحقياً طراليا قبل عصر الميلاد ، فلا شك في اطلاعه على قواعد الاقتصاد السياسي فيما كتبه أرسطو أو فيما نقل عنه فإنه يحصر أسباب الررف في موارد ، ثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة ، ويعرف هذه الموارد كما عرفها أرسطو حيث يقو عن الزراعة إنها استخراج ممرات الطبيعة ، وعن الصناعة إنها مهنة تلك المواد للاستدع بها ، وعن التجارة إنها توريها على الناس ، « وكس وسيلة خارجة عن هذه الأصول وفرونها الأولية فهي وسائل طائلة لا حبر فيها .. »

وعند الكواكى أن لإنسان لدفع لقومه لابد أن يؤدى عملا من

هذه الأعمال في أصولها ومروعتها التي لا تزال إلى اليوم مورد الرزق المشروع في عرف خبراء الاقتصاد والسياسة ، وعن كل فرد من أفراد الأمة « منى اشتد سعده أو ملك قوت يومه ، أو انصابه على الأكثر ، أن يسعى برزقه بنفسه أو يموت جوعاً » .

ثم يعطف فيقول : « وقد لا يتأتى أن يموت الفرد جوعاً إذا لم تكن حكمته مسئلة تخرب على يده وسعيه ونشاطه .. » .

فإذا حدث العجز عن كسب الرزق لسبب ظاهر غير الكس والتقصير فالأمة مسئولة عن إزالة هذا العجز أو معونة المتكسرين على المعيشة التي لا يقدرّون على تحصيلها ، « لمعدالة المطلقة تقضي أن يؤخذ حسم من مال الأغنياء ويرد على الفقراء بحيث يحصل التمهيد ولا يموت النشاط للعمل » .

وهذه سامة تتحررها أمم العرب الحديثة لإثارة السلامة بعد أن وضح لها وبال انعاقية من حراء الظلم في توديع ثروة . ولكنها فريضة يقروها الإسلام ديناً ويجب عليها اتباع أحكامه . لأنه يقرر صرف العشر والزكاة في المصارف العامة ومنها سداد الديون ، ولا يغني حل المدقق أن جزءاً من أربعين من رؤوس الأموال يفارب نصف الأرباح المعتدلة باعتبار أنها حصة بالية سنوياً » .

ويقول الكواكبي ولعله يجتبح في ذلك إلى الأخذ بالمذهب الظاهري - إن الأرض الزراعية ملك عام للأمة يستلها ويستمتع بحيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط . وليس عليهم غير العشر أو الخراج النهائي لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت الملك » .

والمعيشة الاشتراكية في حكم مدني والسياسة الرشيدة - هي « أبداع ما يتصوره العقل لولا أن البشر لم يبلعوا بعد من الترقى ما يكفي لتوسيعهم نظم التعاون والتضامن في المعيشة العائلية إلى إدارة الأمم الكسيرة » .

وعلى هذا يتخلص برنامج الكو كى الذى اختاره لتدبير ثروة العامة فى الاشتراكية التى تقوم على امدىء التالية :

- ( ١ ) تعميم العمل لمشر بين أفراد الأمة وتحريم الكسب بغير عمل مشروع .
- ( ٢ ) جتد التميز بين أفراد الأمة بغير مزية لازمة للمصلحة العامة .
- ( ٣ ) اجتد التساوت المفرط فى توزيع الثروة بين الأفراد أيا كان حظهم من التساوت فى الكفايات والأعمال .
- ( ٤ ) قيام المجتمع على التعاون والتضامن بين العاميين فيه . وإزالة أسباب العجز عن الكسب أو معونة العاجزين عنه للضرورة من ضرورات المرض والحرمان .

( ٥ ) تأميم المرافق العامة ومنع الاحتكار .

وهذه امدىء على عمومها بدخل الكو كى فى رمرء الاشتراكيين لا مراء . ويلتقى بأهم المذهب الاشتراكية فى أصل من أصولها الكبرى وبكاد أن يجرى مع التمثلين بالتصوير لاقتصادى بتاريخى لى محل واحد لولا فارق عظيم فى تعريف المال ترتد به فوارق كثيرة .

فالمال عند أصحاب التصير لاقتصادى مقصور على العملة وما تشتره .

ولمال عند الكوا كى هو « كل ما ينفع به فى الحياة » . « وثروة مال ، والوقت مال ، والرتب مال ، والشهرة مال » .

نعم . وكل ما يجرى فيه المنع والبذل كما يقول صاحب القانون ، أو تسعاض به القوة كما يقول صاحب السياسة ، أو تحفظ به الحياة الشريفة كما يقول صاحب الأخلاق ، فهو مال .

و « انفسود من المال هو أحد اثنين لا ثالث لهما وهما تحصيل لمة أو دفع ألم .. والحكم العادل فى طب امان وحيشه هو الوجدان الذى تصفه الله صفة للنفس وعبر عنه فى امرآء بقوله تعالى : فأهدىها سبورها وتقواها » . والوجدان هو مرسخ لاحتيار أولا وآخرآ . بين مال لخلال والمال المحرم

## التربية القومية

تعهد كلمة التربية في كفاي الكواكبي مقصدين . أحدهما التربية العامة وتشمل كدر الأمة وصغارها ، وهي التي تكفل بتهديب الصفات القومية وتوفير عده الأمة من لأحلاق وعبادات جيلا بعد جيل .

ولآخر تربية الناشئين في المدارس ومعاهد التعليم وتزويدهم بما ينفعهم وينفع أمتهم في أعمالهم الخاصة وأعمالهم المشتركة

وعنده أن الحكومات المنتظمة كما قال في طبائع الاستعداد « تتولى ملاحظة تربية الأمة من حين تكون في طهور الآباء وذلك بأن تيسر قوانين لكساح ثم تعنى بوجود تقاليد وامتقحين و لأطباء ثم تمنح بيوت أيتام اللقطاء ثم المكاتب والمدارس للتعليم من لاشدائي الحرة إلى أعلى مراتب . ثم تسهل الاجتماعات وتهدد المرسح وتحمي المنتهيات وتجمع المكاتب ولأن وتقيم النصب المذكرات وتضع القوانين للمحافظة على الآداب والحقوق وتسهر على حفظ العادات القومية « بماء الإحصاسات المالية وتقوى الآمال وتيسر الأعمال وتؤمن العاجزين عن الكسب من الموت جوعاً إلى أن تقوم بحتملات جوائر سوى أفضل على الأمة »

وقد ألف الكواكبي « أم القرى » قبل تأليفه « طبائع الاستعداد » فأحصى لباس المسلم لإيجازي بعض مقومات التربية العامة التي يعنى بها لقريون وهي بعبارة :

« تخصيصهم يوماً في الأسبوع للبطالة والتفرغ من لأشغال الخاصة لتحصل بين الناس الاجتماعات وتنفذ السنوات فيتباحثون ويتشاورون .  
« وتخصيصهم أياماً بتفرغون فيها لتذاكر مهمات الأعمال لأعظم رجالهم الماخيين تشويقاً .

١ وإعدادهم في مدتهم ساحات ومسابقات تسهيلات للاجتماع والمذكرات  
وإبقاء الخطب وإبداء المظاهرات .

٢ وإيجادهم المثرهات الزاهية العمومية وإجراء الاحتفالات الرسمية  
والمهرجانات بقصد السوق للاجتماعات .

٣ وإيجادهم حملات التشخيص المعروف بالكوميديا والقيانو بقصد  
إدراك الجبر واستبعاد السمع للحكم والوقائع ولو ضمن أنواع من الخلاعة  
التي تحدث شاكاً لقاصد الجمع والامتاع ويعتبرون أن نفعها أكثر من  
الخلاعة .

٤ ومما اعتناؤهم عاية لاعتناء بتعميم معرفة تورييهم الملية المفصلة  
المدججة بالعلن والأمياب لحب الجنسية

٥ ومما حرصهم على حفظ لعدت لمنه وادحار الآثار القديمة  
المترهة والفتنة النضام المشعرة بالمعاصر ؛

٦ ومما إقامتهم النصب المعكرة كما نصبت له من مهمات الوقائع  
القديمة .

٧ ومما تشرهم في الجرائد اليومية كن الوقائع ولعدلات العسكرية .

٨ ومهم بهم في الأغاني والنشائد الحكم والحماسات ، إلى غير ذلك  
من الوسائل التي تلتقي في القوم نشأة حياة اجتماعية .

ولا تم في الأمة تربية قومية بغير تعليم المرأة كما قال في أم القرى  
« إن مرد جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح  
هو عن البيان » .

وهذا فضلاً عن سوء تأثيره في الرجال من الأزواج ، لأن الرجل  
كما قال . « يعرف أنه أمامها أي أمام زوجته - وهي تبعه فيظن أنه  
فائد لها والخفيمة التي يراها كل اناس من حولها دونه أنها إنما تمشى  
وراءه بصفه مائق لا تابع » .



ويفسر الكراكى حجاب المرأة الشرعى بأنه « محمود بعدم إبداء الزينة للرجال لأجباب وعدم لاجتماعهم فى خطوة أو لغير لزوم » لأن احجباب بهذا المقدار يكف من سوء تأثير النساء ويخرج أو قانس لتسيير البيوت « توزيعاً لوظائف الحياة » .

ويرى الكراكى أن « جهالة النساء المفسدة للنشأة الأولى وقت الطفولة » الصبوة « هى علة من أكبر العلل التى أجهات لحياسة القومية فى الشرق بداء « الغرارة » كما صمد وفسره بالتقصير عن طلب « الإتقان » فى أعمال العاميين وإن كان لهم علم بما يعملون ويشرفون عليه

فالذين يمحور صناعاتهم من الشرقيين عمر قليلين ، ولكنهم . يمنعون بالفهم ولا يجيدون العمل ولا يذهبون فيه إلى عايته التى تحليه من القصد ونجمع له مزياء ، الإتقان والوفاء ، لأن الفهم شىء يقلر عليه المرء قبل التطبيق ، ومما يظهر الإتقان أو انقص عند تطبيق الأعمال التى يتدولها الناس ، فلا يقع الإتقان حيث يثقل أمره على الناس فى معاملاتهم وحيث يتأدون فيه ولا يطلونه أو يبدلون فيه حقه . وهنا يظهر أثر « التربية القومية » فى المعاملات . أو يظهر الفارق البعيد بين فهم العمل والعذية بالتقدم واحتساب النقص والتقصير فيه .

ومن لأشنة التى أوردها الكراكى على الغرارة فى كبر لأعمال وصغارها أما نتوهم « أن شئون الحياة سهلة بسيطة فطر أن العلم بالشىء إجمالاً ونظرياً بدون ثمرة عيبه يكفى للعمل به ، فيقدم أحداً مثلاً على الإمارة بمجرد نظره فى نفسه أنه عاقل مدير ، قبل أن يعرف ما هى لإدارة علماً ويعرف عيب عملا يكتسب فيها شهرة نعبه على القيام بها .. ويقدم الآخر منا على الاحتراف مثلاً - ببيع الماء للشرب بمجرد ظنه أن هذه الحرفة عيسرة على حمته قرية وقديماً وتعرفه للناس فى مجتمعاتهم ولا يرى لزوماً لتلقى وسائل إتقان ذلك عن يرشده مثلاً إلى ضرورة المطاقه له فى هركته وهدحه وظواهر هيكته ولباسه وكيف يحفظ برودة مائه وكيف يسترقه ويروهم يشتهى به ، ومضى يغلب

العطش يهضم المجتمعات ويتحرى بها الخاليه له عن المراحمين ، وكيف  
يتزلف الناس ويوهم بلسان حاله أنه محترف بالإسقاء كماً للسؤل ،  
إلى نحو هذا من دقائق إتقان الصنعة الموقوف عليها نجاحه ، وإن كانت  
صنعتة بسيطة حقيرة .

والتحصيص في رأى الكواكي علاج نافع شفاء الأثم الشرقية من  
هذه العروة لأن الكيسه لا تتحق في الإنسان إلا في قرن واحد فقط ..  
وما جعل الله لرجل من فنيين في حرفة واحدة من يتحصص بعض  
واحد .

ولا عى - مع التحصيص من الترتيب على أنواعه ، ومنها ترتيب  
أوقات امرء حسب أشغاله وإهمام ما لا يتسع الوقت له أو تهريضه إلى  
غيره . ومنها ترتيب النفقة على قابر الكسب مضمون ، ومنها ترتيب  
أمر المستقبل ، لإراحة نفسه من الكد في دور انعجاز من حياته ، فيربى  
أولاده ذكورا وإناثا ، ليستغنى كل منهم بنفسه متى بلغ أشده

ومن الترتيب المطلوب أن يرب امرء أموره الأدبية على حسنة  
حاجته المادية ، وأن يرب ماله الطبيعي للمجد والتماعى على حسب استعداده  
علا يتناول إلى مقامات لا يبلغها .

• • •

ويكثر الكواكي من الخوض على للشبه بالغريبين في بعض صفتهم  
القومية وأشرفها في تفديده "صفت الولع بالمعرفة" واليقظة الاجتماعية  
والاستعداد بالقوة ولعة . ولكنه يشفق من الإفراط في الإعجاب بأهم  
الغرب أن يثول إلى استكدة اشرقيين أمامها وفقدتهم للثقة بأنفسهم و  
معاملتها ويعيب على حالب أهل الطبقة العليا من الأمة كما قال بلسان  
السيد المراني أو بلسانه هو في أم القرى : "لأنهم يتقصون أنفسهم في  
كل شئ ، ويتقاصرون عن كل عمل ويحجبون عن كل تقدم ويتوقعون  
الحيلة في كل أمر . ومن أفتح آثار هذا الخور بطرهم لكنا في لأجانب

وأتباعهم فيما يفتنونه دقة وطلافة وتمدداً ، ويخدعون لهم فلما يفتشونهم  
به كاستحصان ترك التصلب في الدين والافتخار به . . .

وهو على إعجابه يستحسن من أخلاق الأوربيين لقومية لا يرى  
أنهم سلموا من لعيوب في حملة أخلاقهم لقومية ويأخذ عليهم كما قال  
في باب الاستعداد والأخلاق من « طائغ الاستعداد » أنهم مديون و « إن  
الغربي حريص على الاستئثار حريص على الانتقام كآبه لم يبق عنده شيء  
من لمبادئ العلية والعراطف الشريفة التي يقفها له مسيحية الشرق  
وسحر ماني مثلاً جاف الطبع يرى أن العضو الضعيف لحدة من البشر  
ستحق الموت ويرى كل المصيبة في القدة وكن القوة في المال فهو  
يحب العلم ولكن لأجل المال يحب الشدة ولكن لأجل المال ، واللاتيني  
مطوع عن الحب والعليش يرى العنق في الإطلاق والحياة في خضع  
لحياء والشرع في الزينة والباس والعري والتعب على الناس »

وهذه هي المآخذ التي يقامها عند اشرقيين كما قال بعد ذلك « إنهم  
أديبون يعجب عليهم ضعف القلب وسطوان الحب وإصفاء نوحدان  
وارحمة ولو في غير موقعه والطف ولو مع الخصم والفتوة والقناعة  
والتهاول في المستحيل ولهذا ليس في شأن لشرق أن يجوز ما يستويحه  
الغربي ومن حوره لا يحسن استثماره ولا يقوى على حفظه ويهتم في  
شأن ظلمه المستبد فلذا زال لا يعكر فيمن يحمله » .

بل هو يرى للشرق رسالة باقية في هدية إنسانية ويقادها من  
طغيان الحضارة المادية التي يتهادى بها العرب ويوشك أن يتردى في  
هدوية من عواقبها لا نجاة له منها بغير مدد روحاني من الشرق كما عند  
الذي تلقاه العالم من أدينته الأولى ، ويتأشد الغرب في حتام كتاب طائغ  
الاستعداد فيقول : « يا عرب ! لا يحفظ لك لدين غير لشرق إن دامت  
حياته حرية » وإن فقد دين يهدك بالخراب القريب « ويسرسل  
سائلاً وكأنه ينظر بهتظ لعب إلى طغيان مذاهب الهدم الجحود  
ماذا أعددت للفوضيين إذا صارو حيشاً حراراً ؟ هل تعد لهم المواد

المفرقة وقد جاوزت أرباعها لألف ؟ أم تعد هم الغازات الخائفة وقد  
سهل استحضرها على الصبيان ؟ » .

• • •

فساك التربية لقومية فيما أوصى به الكواكبي أنها مهنة مفتوحة  
العينين تمضي على بصيرة وثقة ولا تستسلم للإعجاب المذليل ولا للمحاكاة  
العمياء . وأما ملكة : تحصل بالتعليم والتفكير والقدوة والاقتباس أهم  
أصول وجود المربين وأهم فروعه وجوهر الابدان » .

وما من أمة تأخذ بأسباب هلد تربية يعربها أن تدرك العايد من  
بعضها ، وأول الأسباب صدق الرجاء في إدراك تلك العايد كما قد في  
مقدمات أم لقرى . « فلا يبول ما ينسط في حمة من تنافس أسباب  
الضعف والفتور كي لا يثس من روح الله ولا تنوهم لإصابه في قول  
من قال : أمة ميتة فلا ترجى حبثا . كما لا إصابه في قول من قال  
إد نزل الضعف في دولة أو أمة فلا يرتفع فهدد الرومان واليونان  
والأمريكان والعلبان واليابان وغيره - كلهم أم أمثال استرجعت شأنه  
بعد عام بضخف وفقد كل للوارم لأدبية للحياة السياسية » .

ونما هي حضارة علم وحضارة أخلاق ، وعشرون سنة تقوم حضارة  
العلم ، وأربعون سنة تقوم حضارة الأخلاق . إذا كانت عشرون  
سنة كافية لتخرج فئات من المتعلمين يبتدئون دراسة من مكاتب  
التعليم الأولى ويتبنون بها إلى معاهد التخصص والإحاطة بأدوات العمل  
والصناعة ، وإذا كانت تربية لأخلاق ، عما تم بتدريب بلجيل كله على  
سنتها وعادتها ، وحده الأوسط أربعون سنة تثقل بالأمة من جيل  
إلى جيل .

• • •

وتلقع التربية لقومية ، بل تسبق في دور المهنة ، تربيته المرتين

أو الرعماء الذين يفردون الأمة ويرهبون لها طريقها ويصبرون على  
تدويرها وتصحيح أخطائها .

وقد رأيناه يقول إن للفضيلة أصولاً أهمها وسعود المربين ، وصبري  
أه كدأه في وصاياه الجماعة - لم ينس أن يوصي بالحطة التي تنجي  
هؤلاء المربين أن يروصوا أنفسهم ويعذبوا عقولهم وضمايرهم للصبر على  
متاعبهم وتذليل عقبتهم وسياج « ذواتهم » في سبيل رسالتهم ، وهي  
رياضة صاعدة قوية تجمع بين لشنة العسكرية والزهادة الصوفية ،  
وتخلصتها كما جاء في ختام كتابنا الاستعداد :

١- أن يجتهد المرید في ترقية معارفه لاسيما العلوم النافعة الاجتماعية  
كالخقوق والسياسة والاقتصاد ، ونسفة العقلية وقاريح قومه من  
حواله الخرفالية والطبيعية والسياسية ، مع النظر في الإدارة الداخلية  
وإدارة الخيرية

٢- أن يتقن العلوم التي تكسبه الاحترام بين قومه .

٣- أن يحافظ على الآداب والعادات .

٤- أن يقلل الاختلاط بالناس حرصاً للوقار وجنباً للارتماء القوي  
بأحد ، كيلا يسقط بسقوطه .

٥- أن يتجنب معصية المصنفات عند الناس لاسيما الحكام

٦- أن يجتهد في كتم مريته العلمية عن دونه ليأمن من  
عوائل حسدهم ، وإعنا عليه أن يظهر مريته لبعض من هم فوقه بدرجات  
كثيرة .

٧- أن يتحير من ينتمى إليه من لطقة العيا ولا يكثُر التردد عليه  
ولا يظهر له الحاجة .

٨- أن يحرص على الإقلال من بيان آرائه كيلا تؤخذ عليه تبعها

٩- أن يحرص على أن يعرف بحس الأخلاق ولا سيما الصدق والأمانة  
والثبات .

١٠ أن يظهر الثمّة على الصفاء والغيرة على الدين والعلاقة بالوطن .

١١ - أن يتباعد من مقربة المستأعوان ولا يحقدّر ما يأمن شرهم إن كان معرضاً للملك .

قال بعد مراد هذه الصفات : « من يسبح من الثلاثين في فوق - جائزاً على الصفات المذكورة يكون قد أعد نفسه على أكس وجه لإحراز ثقة قومه . وبهذه الثقة يعمل ، لا تقوى عليه الجيوش والكنوز » .

وربما بالغ الكواكب في النوصية باجتناب المظهر الذي يشتر الحسد ويغري بالمقاومة في دور الدعوة والإقناع وتأليف الأنصار والأعوان ، بل قد يدلع من المحرص على ذلك أنه أثبت في حاتم أم لفرى فجعل مصير الجمعية المحز والمسكنة وأوصاها في القضية السابعة والأربعين ألا تقوم ولا تقابل إلا بأساليب المصيبة والموعظة الحسنة وتلاطف وتعامل جهدها من يعادى مقاصدها ، إلا في الضرورات » .

لا أنه لا يسر على المصلح الذي انقادت به زعماء الأمة أن يدفعهم دفعاً إلى التقدم والجهاد لأنه يقرر غير مرة أن بلاء الشرق « فقد السرة والهدية » « لا أمير عام حارم مصلح يسوق الأمة بطوعاً أو كرهاً إلى الرشاد ، ولا حكيم معترف به بالهزيمة ولا حلاص تنقاد له لأمره والناس . ولا ثريبة قوية يسهل منها رأى عام لا يطرقة تخاذل وانقسام » .

• • •

## التربية المدرسية

تنظيم التربية المدرسية عمل يستقل به خبراءه المختصون بالإشراف على إدارة المدارس وتخصيص مناهج التدريس ، وفي وصمهم أن يقتصروا المعلمين والمتعلمين ويفسروا لمناهج التربية مراحلها التي تكفي لأوقات الاستعداد وأوقات التكملة والانباء . على حسب الحاجة المتجددة إلى كل صنف من أصناف الدراسات .

وربما بدأت أعمال هؤلاء الخبراء عند نهاية العصر السابق الذي يتصدى له الإمام المصباح لحث الأمة على افتتاح المدارس وتعليم الأبناء ، عيسى « تصنيف » المواد المدرسية من عمل الإمام المصباح في دور التدريس والاستنهاض والحض على طلب العلم كله ، كائنًا ما كان .

ولكن الإمام الكوراني قد نشأ في عصر ثفاف مريح ملتصق المظاهر بالحقائق كثير البقاء من الماضي وانطلائع من المستقبل ، فاضطر إلى مهمة من مهام « التحليل » بين القايا وانطلائع ووجبت عليه المشاركة في « تصنيف العلوم » المدرسية ليجير على لأقل صفة العالم الجدير بمكانة الإرشاد والهداية وصمة العلم التي يحملها في رسالته الأولى وهي كفاح الاستعداد والدعوة إلى الحرية

وكذلك كان العلم عنده علمين . علم يطمئن إليه الاستعداد ولا يخاف عقبه ، وعلم يعرف به الإنسان « أن الحرية أقصر من الحياة » ويدرك به « النفس وصرها والشرف وعظمته ، والحقوق وكيف تحمط ، والظلم وكيف يرفع ، والإنسانية وما هي وظائفها ، والرحمة وما هي لذاتها »

ومن الظروف لتدعيم التي أخذته في عصره إلى المشاركة لعامة في  
مناهج التربية المدرسية أن العلم كان في بعض المراسم « مبعثاً » حكومية  
تخلع على طائفة من أصحاب حصوة من المهد بغير حاجة إلى مدرسة  
ولا إلى دروس .

فانطلق من حديثه « زادكان » أي « لأصلاء » يفت في المنثور  
الرسمي عند ولادته ( بأنه أعلم العلماء اعققي ) ... ثم يكون فعلياً  
فيخطب بأنه ( أفضل لفصلاء الملقين ) .. ثم يصير مراحقاً فيعطى  
المولوية ويشهد بأنه ( أقصى قصدة لمسلمين معدن لفصل وليقين  
رافع أعلام الشريعة والدين ورث علوم الأنبياء والمرسلين ) . ثم  
يكبر فيوصف ( بأعلم العلماء لمثحرين وأفضل لفصلاء المتورعين يسوع  
الفصل واليقين ) إلى آخر ما في تلك المناشير من الكتب المبهر .

يقول الكواكبي بلسان المولى الرومي بعد ما تقدم « ولا ريب أن  
التسعين في المائة من هؤلاء العلماء لمثحرين لا يحسون قرعة بعرضهم  
المزودة . كما أن الخمسة في المائة من أولئك المتورعين رافعي أعلام  
الشريعة والدين يحسون الله جهاراً ويستحقون ما يستحقون من الله  
وملائكته والمؤمنين »

ثم يقول . « ويكنى حجة عليهم .. تميرهم جميعاً بلباس عروس  
عنى بكثير الفضة والذهب ثم هو حرام بالإجماع ولا يختص التأويل .  
اقتبسوا هذا اللباس من كهنة لروم الذين يلبسون القباء والقلنسوات المذهبة  
عند إقامة شعائرهم وفي احتفالاتهم الرسمية » .

• • •

وأمر هؤلاء « العلماء » بغير علم وبغير تعليم متروغ منه . لا يحتاج  
من الدولة إلى أكثر من المنشورات الرسمية لإعدادته وتمكينه من مباحثه .  
ولا يحتاج من الإمام لمصالح في دور النهضة إلى أكثر من تنبيه إليه لإسقاط  
شأنه والإعراض عنه .



لكي الشأن الذي لا يعني فيه مثل هذا التمييز إنما كان شأن العلماء ،  
بوسع من العلم المطلوب في معاهدته ولكنه لا يلتفت بالإصلاح في طريقه  
أو يلتفت به في بعض الطريق ويتولى عنه في مائرها

من هؤلاء صدقة العلماء لخدمين على التقدير ، ولا يعيهم من العلم  
غير الإنعام بأشكال الفرائض والشعائر على صفة التمليد الأعلى بغير نظر  
في حكمها ومعناها ، ومن هؤلاء من كان يحرم تعميم الأبناء دروس  
الجغرافية الحديثة لأنها تعممهم أن الأرض مستديرة وأنها تدور حول الشمس  
وتلور حول نفسها ، خلافاً لما توهموه من معنى تسلط الأرض  
واستقرارها أن تميد عن عكسها ، ومن هؤلاء من كان يستربب دلتهمون  
لأن انتقال الصور على مدى الفراسخ و لأميال من فعل الشيطان ولن  
يؤذنه له أن يفعله بعد عيمان .

وأحسن من هؤلاء حالاً ، كانوا يبيحون المعرفة بالعلوم الحديثة  
ولكنهم يحرمون أسماها ولا يجيزون تدريس الفواهر الطبيعية إلا أن تسمى  
بـ علم الحوائص التي أودعها الله سبحانه وتعالى طلائع لأشياء .

وأحسن من هؤلاء من كانوا يسمحون بتعميم جميع العلوم ويعصرون  
لجمع منها على تخريج الموطقين وصناع المعامل التي تديرها الحكومة  
لخدمة أعرضها وآثارها وقد كانت في بلاد الدولة العثمانية ولاية يفتحون  
مدارس ويعشون العلوم إلى بلاد القارة الأوروبية لتحصيل الصناعات  
والعلوم الحديثة والطريقة التي تعيهم على تنظيم الدواوين وإدارة مصالح الري  
والزراعة وتعمير الحجاز العامة لمصالحهم أو منفعة السلطة الحكومية ،

وبشأن مع هذه « التصنيفات المدرسية » صنف من العلوم قد تهم الحاجة  
إليه في توسيع نطاق الثقافة وتثريج أبواب المعرفة ، وهو العلوم العسكرية  
الكاملية من فلسفة وبلاغة وبحسب لأصول التشريع والتاريخ وما إليها .  
ولكنها لما يحنس الإرساء إلى ، بعد نوثة الأولى من وثبات الإصلاح  
في رأى بعض القادة الذين يرتبون أحوار الثقافة بترتيب الضرورات

المردية ، ولا يحسون حساباً كبيراً بدرق بين ضرورات الأمم وضرورات الأفراد .

• • •

في مثل هذا العهد من عهود التنازع على اختيار العلوم المقدمة يلتجئ الإمام المصالح إلى المشاركة في عمل الخبير المدرسي المتفرغ لتصنيف علوم الدراسة وإعداد مناهج التربية في مراحلها المتتابعة

وقد اضطر لكونه كفى إلى مشاركة في هذا العمل ، ونظر إليه كعادته - من زاويته التي هي أولى عنده بالتقديم من كل زاوية ، وهي ناحية النظر إلى الاستعداد وما يحضاه المستند من العلوم وما لا يحضاه . وما هو أحق - من ثم - بالابتدائه والتعويل عليه في كل نهضة تبحث لطلب الحرية ومكافحة الاستبداد

قال في طبائع الاستبداد : « المستبد لا يحشى علوم اللغة - تلك العلوم التي بعضها يقوم اللسان وأكثرها هزل وهليون يضيع به الزمان - نعم لا يخاف علم اللغة ، لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد لألوية أو نصر بيان يحمل عقد الجيوش ، لأنه يعرف أن الزمان ضيق بأن تلك الأمهات كثيراً من أمثال الحكيم وحسن ، أو أمثال منسكيو وشيلار . وكذلك لا يخاف المستند من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد ، المختصة بما بين الإنسان وربه ، لا اعتداده بها لا ترفع غيرة ولا تزيل غشاوة ، وإنما يتلهى بها المتهوسون بهم حتى إذا صبح فيه عمرهم ، ومثلت لهم أدمعهم ، وأخذ منهم الهرور ما أخذ فصاروا لا يرون عدماً غير علمهم . فحينئذ يأمن المستند منهم كما يؤمن شر السكران إذا حمر . على أنه إذا دفع بهم البعض وبالنوا مزية بين انعماء لا بعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره ومجراة هواه في مقدسه أنه يصحك عبيهم بشيء من الأعظم ويسد أفواههم بلفقيات من فئات «ائدة الاستعداد » .

• • •

ويقول الكوكبي بدمان الرياضى الكردى فى أم القرى : إن السبب العام هو أن علماءنا كانوا اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات وأهملوا باقى العلوم الرياضىة والطبيعية التى كانت إذ ذاك ليست بذات بل ولا تقيده سوى الجمان والكمال . فقد أخذها من بين المسلمين واندست كتبها وانقطعت علاقتها بفصارت . بصوراً منها . والمراء عدو ما جهن ، بل صدر المتطلع إليها منهم يهتق ويرى بالزيج والبرمقة . على حين أخذت هذه العلوم تنمو فى العرب ، وعلى كبر لقرون ترفت وظهرت لها ثمرات عظيمة فى كافة الشؤون المادية والأدبية . . .

فعلوم رياضية والطبيعة التى كانت قبل بضعة قرون مجموعة من المعادلات النظرية والخواطر الفكرية هى التى تطورت فى نهضة الثقافة فى العرب فأصبحت فى طليع علوم الدنيا وممل . ودام عليها تقسيم المتخصصين للكشف و لاختراع واستطلاع حقائق المادة واستنطاق القوايين لى تحكيها وتفسرها .

ولازمتها علوم نظرية ولكنها لازمه لتوسيع الثقافة العامة ولاسيما ثقافة القادة المتصلعين إلى كمال النهضة فى أوائلها ، ولهذا يوصى الشعب الذى يتطلع إلى هذه القيادة أن « يوسع معارفه مطلقاً » ولاسيما فى العلوم الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد والفلسفة العقلية والتاريخ والجغرافية والإدارة الداخلية والإدارة الخيرية ومما يسميه فى هذا العصر بالمعلومات العامة

ولذا أراد هذا شباب أن يكسب فى قومه « موقفاً محترماً » فلا عنى له مع سعة معلوماته لعامة من الاختصاص بأحد العلوم التى يشعر الناس بقصرها كعلم الدين أو الطب أو لإنشاء أو لحقوق

• • •

على أن التربية لمدرسة تربية أبناء الأمة تبدأ قبل المدرسة

ولا تنتهى بانتهائها كما قال في طبائع الاستعداد : وإن التربية تربية الجسم وحده إلى سنتين وهى وظيفة الأم وحدها ، وتربية النفس إلى السابعة وهى وظيفة الأبوين والعائلة معاً ، ثم تصاف إليها تربية العقل إلى البلوغ وهى وظيفة المعلمين والمدارس ثم تأتى تربية القدوة بالأقربين والخططاء إلى الزواج وهى وظيفة الصداقة ثم تأتى تربية المقارنة وهى وظيفة الزوجين إلى الموت أو التفراق .

• • •

والترية المردية ، على هذا ، قصة محبوكة الظرفين بين حجر الأموية فى الطموح لذكره وبين كنف الزوجية بعد استواء السن وتقدمها . لا حرم بكثير الحصص فى كلام لكونكى على تصحيح وطيفة المرأة فى الحياة والتقدير من جهلها وموعد تربيتها والانحراف بها عن مواضعها . فإن النساء كما جاء فى طبائع الاستعداد اقتسمن مع الرجال أعمال الحياة قسمة صيرى . . . وحظن الشجاعة والكرم سببتين فيهن محمديتين فى الرجال . وحسن نوعهن يهن ولا يهن وتعلم أو يظلم فيعان ، وعلى هذا التقدير يربى النساء وينتفعرن بحقول الرجال كما يشاء . ومن الملاحظ أن ضرر النساء بالرجال يترق مع الحضرة والمدنية على نسبة ارتقى المصاعف فابدية تشدرك الرجل متاعفة فى الأعمال والثروات فتعيش كما يعيش ، والحضرة تسلب الرجل لأجل معيشتها وزينتها اثنين من ثلاث وتعيته فى أعمال اميت ، والمدنية تسلب ثلاثة من أربعة وتود ألا تخرج من الفراش . وهكذا تترق بنات العواصم فى أسر الرجال . وما أصدق بالمدنية الحضرة فى أوروبا أن تسمى المدنية النسائية لأن الرجال فيها صاروا أعماماً للنساء .

• • •

## الأخلاق

يكتب الكواكبي في جميع مباحثه بقلم الباحث المخبر الذي يرون  
رعه عمران المنطق العلمي والتجربة العملية ، وينحرو هذا النحو في كتابته  
عن الأخلاق وفي كنهه عن الساسة الحضرة أو التاريخ نادر ، ولكنه  
يصل إلى بعض الصفات في سياق كلامه على الأخلاق فيجمل بذلك أنه  
يود لو يدع القلم جانباً لأخذ بيده ريشة القلم وهو يتكلم ، وأول  
هذه الصفات صفة الإرادة وصفة الحرية . رسائر الصفات التي تلغى  
الاستبداد أو يلعبها الاستبداد

يقول في باب الأخلاق من طابع الاستبداد : « ما هي الإرادة ؟  
هي أم الأخلاق هي ما قيل فيه تعصياً لأمرها : هو حارت عبادة غير  
الله لإختار العقلاء عبادة الإرادة ، هي تلك لصعة التي تفصل الحيوان  
عن البات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة . فالأسير إذن ثون الحيوان  
لأنه يتحرك بأرادة غيره لا بأرادة نفسه » .

ثم يقول في وصف الأسير مسلوب الإرادة . « لا نظام في حياته  
ولا نظام في أخلاقه قد يصبح عنياً فيضحي شجاعاً كرمياً وقد يمسى  
فقيراً فيبيت جاناً حسيماً ، وكذا كل شئونه تشبه الهوى لا ترتيب  
فيها ، فهو يتبعها بلا وجهة . أليس الأسير قد يبيع فيزجر أو لا يزجر ،  
ويبيع فيه فينصر أو لا ينصر ، ويحسن فيكافأ أو يرهق ويسىء كثيراً  
فيبيع وقبلاً فيشتق ، ويجوع يوماً فيضوى ويخص يوماً فيتحم ، ويريد  
أشياء فيسمع ويبني شيئاً فبرغم . » .

ومما قاله عن الحرية في أم القرى : « البلية فقدان الحرية . وما  
أدراك ما الحرية ؟ هي ما حرماً معه حتى نسيانه ، وحرماً عليه لفظه حتى  
استوحشناه » .

ثم قال : « إن الحرية أمر شيء على الإنسان بعد حياته . بفقدانها  
تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتغيب نفوس وتنقطع الشرائع وتختل  
القوانين » .

وقد عرفنا من كل ما كتبه هذا الممكر العامل أنه « منطوق مع  
نفسه في ملأهف تفكيره . ولكن ما كتبه عن الإرادة والحرية بصمة  
خاصة أدل على هذه السليقة فيه . أو أعمق دلالة عليها ، من مسائل كثيرة  
طرقها ولا يستغرب فيها أب تناسق وتطرد على وتيرة واحدة لظهور  
العلاقة بينها وإنما اختصاص الإرادة والحرية بالتمجيد والتعديس آية  
من آيات الصادقة على أصالة التفكير والشعور فيما يكس عن هذه الأمور .  
أو هو آية على نفس مطبوعة بتفكيرها وحساسها على إدراك مساوئ  
الاستبداد والظلمة لمواطن ضرره ومواطن طبه وعلاجه ، فلا شجاعة  
ولا الكرم ولا العفة ولا المروعة تصور الخلق المطلوب في مناضلة الاستبداد  
كما تصوره الإرادة والحرية ، ولا شيء يتبع في ذلك الفضل مع فقدان  
الإرادة والحرية ، ولأننا نقررنا معاً لنظام الألهة في ثورة الأمة على  
المستبد ، لأن الإرادة بغير حرية تبع لصاحب السيادة ، ولأن الحرية  
بغير إرادة تمقد لباعث على الحركة فلا تدرى ها بأوجها أنتهز  
إليها ولعل العبد يعتزم ويريد ويصمد على عزمه وإرادته في خدمة  
سيده فلا حلوى لعبير هذا السيد في ملكة الإرادة التي يتصف بها عبيده  
ومطيعوه » .

والاستبداد — كما لا يخفى — يتخصص في تغليب إرادة واحدة  
لا تسمح بإرادة أخرى تعمل إلى جانبها على خلاف هواها . فليس من  
الطبيعي أن يبنى لمن حصص له طويلاً عمل يريدونه لأنفسهم ويتلبسونه  
فيما بينهم ، فلا تعيهم إرادة غير إرادة الحاكم المسلط عليهم ولا يشغلهم  
شأن في حياتهم غير المحرف من خصمه والسعي إلى رضاه ، رشر من

عنهم له راضين خوفاً منه ، أن يعملوا له راضين جهلاً بحقيقتهم وقياداً  
للمصالحه والخداع أذبابه ومؤيديه .

• • •

والواقع أن مؤلف طبائع الاستبداد قد حصر مشكلة الأخلاق  
جميعاً في وضع واحد - خلاصته أنها « حرب رادت بين الحاكم المطلق  
والرعايا المحكومين - فاستطاع - من ثم - أن يحسم المشكلة حسماً سريعاً  
بقسمة الأخلاق إلى قسمين متعارضين . قسم لمصلحة الحاكم المستبد وقسم  
لمصلحة الرعايا المحكومين .

فإن مصلحة المستبد شيوع أخلاق الملق والتدقيق والريبة والأثرة  
التي تشعل المحكوم بمنفعته القوية دون كل منفعة عامة ينتفع بها هو أو  
ينتفع بها غيره بعد حين : « وأقل ما يؤثره الاستبداد في أخلاق  
الناس أنه يرغم حتى الأخيار منهم - على ألفة الرياء والتدقيق ..  
وأنه يعين الأشرار منهم على إضرارهم في نفوسهم آمنين من كل تبعه  
ولو أدبية فلا عراض ولا استناد ولا انتظام . لأن أكثر أعمال  
الأشرار تبقى مستورة يبقى عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعه  
الشهادة على ذي شر وعقبي ذكر الماحر بما فيه ولطفاً شاعت بين  
الأسراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم : « إذا كان الكلام من فضة فالسكوت  
من ذهب » وقولهم : « البلاء هو كوكب بالمطلق » وقد تعال وعاطفهم في صدق  
أفواههم حتى جعلوا لهم أمثال هذه الأقول من الحكم النبوية .. »

ومن آثار أخلاق الدعة والخضوع أنها تؤدي لأجسام فضلاء عن  
العقول ، وتشيع المرض في بنية الخلق كما تشيع المرض في صميره ، وإن  
في ذلك شهيداً بئناً « يقدر عليه نقص عقول الأسراء والبؤساء بالنسبة إلى  
الأحرار السعداء » كما ظهر الحال أيضاً . من الهرق البين في قوة الأجسام  
وغزارة الدم واستحكام لصحة وجمال الهيئات .

ومن سوء أثر الاستبداد أنه « يضعف الثقة بالنفس » ويفقد الناس

ثقة بعضهم ببعض ، فينتج من ذلك أن الأسرى محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك في أعمال الحياة ، يعيشون مساكين يائسين متواكلين متخادلين متفاعسين متعاشلين ، والعامل الحاكم لا يلزمهم بل يشتق عنهم ويلتمس لهم مخرجاً ويتبع أثر قول رسول الله القائل ، اللهم ارحم قومي فانهم لا يعلمون .

ولا بقاء للأستبداد ، إذ تعود الناس الاشتراك في الرأي والتعاون على العمل . فعلى هذا الاشتراك يقوم نظام الرعايا ، الأحرار في الأمم التي سقط فيها حكم الاستبداد وخطفته حكومتها لأنه للأمة فيه سر الاستمرار على الأعمار التي لا تنفك بها أعمار الأفراد بهم . الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الأمم المتحدة ، به أكثر ، فاموس حياتهم القومية به مصطفى نظام حكوماتهم به فهدو بعضائم الأمور به دوا كل ما يعظمهم عليه أسرى الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك وينشرون إليه . ولكن كل منهم يظن الغبن لشركائه فانكله عنهم عملاً وسنداده عيبه رأياً ، حتى صار من أنماطهم قلوبهم ما من متفشين إلا وأحسهم معيوب .

ويرى الكواكبي أن حكم الاستبداد قد استعجل بين المسلمين بعد إهمام حياة الجماعة والمشاورة بين الأمرين المعروف الناهين عن المنكر . وأن سبب انقراض الملى أصحابهم - كما جاء بلسان خطيب من خطباء أم القرى - هو فقد الاحتماءات والمناوضات إذ تسو حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج وترك خطبؤهم ورعاظهم خوفاً من أهل البينة التعرض لشهود العامة . كما أن علماءهم صاروا يسرون جيبهم بمعلمي التحادث في الأمور العمومية والمخروصين فيها من الفهول والاشتمال بما لا يفتى ، وأدريان ذلك في الخومع من الغر الذي لا يجوز وربما اعتبروه من لقيته والتجسس أو لسمي بالعبد فسرى ذلك إلى أفراد الأمة وصار كل مرد لا يهتم إلا بتفريضة نفسه وحفظ حياته في يومه ، وكأنه خلق أمة واحدة .

♦ ♦ ♦

ولما فرغ من قسمة الأخلاق بمقياسه الدائم إلى قطبين متقابلين . أخلاق



الاستعداد وأخلاق الحرية ، أو أخلاق مصلحة الحاكم المطلق وأخلاق مصلحة الرعايا ، نظر في تقسيمها درجات على حسب المصلحة التي تسعى لها ، وأنواعاً على حسب نصيبها من الشرف والرفعة .

فالمصالح التي تحتثها الأخلاق هي مصلحة الإنسان نحو نفسه ، ومصلحته نحو ذاته ، ومصلحته نحو لومه ، ومصلحته نحو الإنسانية ، وهذه هي لأخلاق العليا التي تسعى عند الناس بالناموس .

ثم هي أربع ، لحصول الحسنة الطبيعية كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة والرحمة . . . والحصول الكهنية التي جاءت بها الشرائع الإلهية كتحمسين لإيثار العمى وتبحيح الزم . ولصنع . ويوجد في هذا نوع ما لا تشرك كل العقول حكمة جميعه فبمثله المنتسبون للدين حترماً واحداً . والنوع الثالث الحصول الاعتيادي وهي ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو التربية أو الألفه . . . والتدقيق يفيد أن الأقسام لثلاثة تثبتك وتشرك ويؤثر بعضها في بعض فبعض مجموعها تحت تأثير الألفه الجديدة . أو تنزل حسب صادده من استمرار الألفه أو انقطاعها ، فالقاتل مثلاً لا يستكر شيعته في المرة الثانية كما استمعها من مرة في الأولى ، وهكذا يحجب الحرم في هذه حتى يصل إلى درجة التعدد بالفتن كأنه حق طبيعي له ، كما هي حالة الحارين وغالب مسيحيين الدين لا ترتج في قلوبهم عاطفة راحة عند قتلهم أفراداً أو أئمة بغايتهم السياسية ، هزناً بأسير أو إرهاباً ، ما قلتم .

وهنا يتول الأمر إلى ما رأى الاستعداد في فساد الأخلاق لأن ألفة لأحوال العامة تنه وتضع الطاع العادة في طله : « ويكفيه مفسدة لكل تحصل الحسنة الطبيعية ونشرعية والاعتيادية تلبسه بالرياء اضطراباً حتى بأنه ويصير مملكة فيه فيغلب بديه ثقة بنفسه .

• • •

ولا يهوتنا ونحن نحتم القول في آراء الكروكي - أننا أمام « برنامج عمى ، يصدق عليه وصف « البرنامج « قبل أن يصدق عليه وصف الفلسفة

أو المذهب أو النظرية فلم يكن يعنيه أن يدرس الأخلاق من وجهة الأصول العامة والمبادئ النظرية كما عناه أن يدرسها من زاوية النظر إلى الاستعداد وأثر الحكومة المستبدة التي يبدأ منها ويعود إليها في كل شرح من شروحه وكل سند من أسنده، ولهذا اخترنا اسم « البرامنج » لعلمته العملية . واختارناه بصداقاً منهجية في التفكير وتبرئته له من صيق المحصر الذي يلزم الفكر المحدود فلا يخرج منه لأنه لا يقدر على تجاوزه لا لأنه مشغول في بحثه بالأمور التي يعيه .

• • •

## وسيلة التنفيذ

عرضنا فيما تقدم برنامج الإصلاح في دعوة الكواكبي من أهم جوانبها السياسية والاجتماعية .

ويبدو من النظرة العارضة - كما يبدو في إطالة النظر في هذه البرامج - أنها خطة ثورية لقلب نظام حكم المطلق في بلاد العرب وإقامة الحكم القومي على أساس الشورى في تلك البلاد .

ف، هي وسيلة الكواكبي إلى تحقيق تلك الخطة الثورية ؟

إنه لم يكتبها وإن أحق هيتها التي لا خطاء بها مع العلم بمقدماتها . .

وسنرى أنه كان واقعياً عملياً ، في وسيلته كما كان واقعياً عملياً ، في دعوته فإن وسيلته التي طمأن إليها كفاية لتحقيق الغاية القصوى كما يريدونها ، وعليها أن نتذكر تلك الغاية القصوى ونحصرها في نطاقها لكي نعلم كفاية الوسيلة لتحقيق الغاية منها .

عليه أن يذكر أنه كان يريد قلب نظام الحكم المطلق في بلاد العرب ، ولم يكن ذلك موقوفاً على قلب هذا النظام في الدولة العثمانية أو قلب نظام الحكم في القسطنطينية عاصمة السultan العثماني ومركز الحكومة التركية . فإن قلب الحكومة المستبدة في الدولة التركية قد يحتاج إلى وسيلة غير وسيلته المختارة لتحرير بلاد العرب واستقلالها بثورتها ، سواء تم هذا الاستقلال دفعة واحدة أو بجاء على درجات تترقى من الحكم الذاتي إلى تمام الاستقلال .

كان « الكواكبي » عربياً يتمكيداً وشعوره في ثقته الكري « بقوة الكسبة » أو بقوة الدعوة المنظمة . وترامى هذه الثقة القوية بعمل الكسبة في إيقاظ الشعوب من عوان كذب « جهات الاستبداد » الذي أودعه على الخلاف بسطر

يقول فيه إنه : كلمات حق وصحيحة في راد ، إن ذهبت اليوم مع نريج لقد  
تذهب غداً بالأوتاد .

ومن ثقتته بفعل الدعوة المنتظمة قوله في مقدمة أم نجرى : أيقنوا أيها  
الإخوان أن الأمر ميسور وأن ظهور الأسياب ودلائل لأقذار مبشرة أن  
الزمان قد استدار وشأ في الإسلام أقطاب أحرار وحكام أبرار ، بعد  
واحدهم بالآلث وجمعهم بالآلث ألف . فقرة جمعية منتظمة من هؤلاء البلاء  
كافية لأن تحرق طس حرب الشيطان وتسرعى سمح الأمة مهما كانت في رقاد  
عميق وتقودها إلى النشاط وبع كانت في فتور مستحكم عتيق . . لأن الجمعيات  
المنتظمة ينسئ لها الشات على مشروعاتها عمر أطويلا ينن بما لا ينن به عمر لوحد  
المرء وتأتى بأعمدها كله عرائم صادقة لا يسدها التردد وهذا هو سر ماورد  
في الأثر من أن يد الله مع الجماعة ، وهذا هو سر كون الجمعيات تقوم  
بالعظم وتأتى بالعجائب ، وهذا هو سر نشأة الأمم الغربية ، وهذا هو سر  
النجاح في كل الأعمال المهمة ، لأن سنة الله في خلقه أن كل أمر - كليا كان  
أو جزئيا - لا يحصل إلا بقوة وزمن متناسبين مع أهمية ، وأن كل أمر يحصل  
بقوة قليلة في زمان طويل يكون أحكم وأرصح وأطول عمرا مما إذا حصل  
بمزيد قوة في زمان قصير . وكلنا يعلم أن مسائلنا أعظم من أن ينن بها عمر إنسان  
لا ينقطع أو مسلك منتظم لا يطرد أو قوة عصبية حصرية حققة تفور سريعا  
وتفور سريعا . . . . .

قال . « ولا يسعى الاسترسال مع الوهم إلى أن الجمعيات معرضة في  
شرق لتيار السياسة فلا تعيش طويلا - ولا سيما إذا كانت فقيرة - ولم تكن  
كعالب الأكاديميات ، أي بجامع العصبية ، تحت حماية رسمية ، بل الأليق  
بالحكمة والحزم الإقدام والشات وتوقع الخير إلى أن يتم المطلوب » .

فهذه الوسيلة وسيلة الكسنة الحية والدعوة المنتظمة - كافية صالحة  
لتحقيق غايتها ، « بمهذلة على الوسائل الأخرى التي قد يستخسرها الدعاة لقلب  
الدول وإقامة نظم رقيادة لشعوب من حال إلى حال .

فلما انتشرت الفكرة بين قادة الرأي في البلاد العربية فقد تحققت نتيجة لا شك فيها ولا حاجة إلى نتيجة أكبر منها ، وهي تصيب كل حكم للعرب يحالف الدعوة وإحراح الدولة الحاكمة في بلادهم سواء عولت في حكمها على الشعبون معهم أو اعتمدت على السطو وحده لإخضاعهم وتطويعهم ، وكلاهما مطلب عسير لا يطول عليه صبر الحكام الأجبي ولا تطول فيه المحكمين .

أكان الكواكبي يرهق في الثورة الدموية أو يحجم عنها خوفاً من أخطارها ؟ كلا . . . وهذه فكر طويلا في هذه الثورة ونبحث كثير في أحوالها كما يظهر من استقصائه لجميع هذه الأحوال في ضخمة كتب طبائع الاستبداد . فوفر في نفسه أن تدبير هذه الثورة قبل إعداد العدة لما بعدها تعطل في الرأي ومصلحة للجهود ومجاعة بالنتيجة المرجوة . ووفر في حله - مع هذا - أن العامة لا يثورون في لأغلب الأعم إلا لأسباب محصورة قلما تجتمع في وقت واحد .

١ فلا يثور غضبهم على المستبد ، لا عقب مشهد دعوى مؤلم يوقه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لأموره ، أو عقب حرب يخرج منها المستبد مظلوماً . . . أو عقب تطاهر المستبد بإهانة الدين . . . أو عقب تضيق شديد عام مقاضاة مال كثير لا يقدر إصطاؤه . . . أو في حالة مجاعة أو مصرية عامة لا يرى فيها الناس موااة ظاهرة من المستبد . أو عقب تعرض المستبد لأمور من العرض أو حرمة الجائر أو تحقير الشرف الموروث . . . أو عقب تضيق يوجب تطاهر عدد كبير من النساء . أو عقب الظهور عوالة شديدة لمن تعتبره الآية عدواً لشرفها . . .

والمستبد - كما قل - لا تخفى عليه هذه المزالق مهما كان غيباً لا يغفل عن إقضاءها .

وقد كاد الكواكبي يستغنى كل سبب يثير العامة ويهيج مسخطهم على الحاكم لاسعتهم على غير هدى منهم بعيتهم أو لعمل ينضمهم ، وبدل استقصاء الكواكبي لهذه الأسباب على طول تفكيره في تدبير الثورة العامة حيث ترسى الفاتنة من تشوها ، وهي - في الواقع - لا ترجى لها عائدة قبل انقضاء الخطة

التي تعقب وتستقر عليها وقبل تعميم الدعوة إلى تلك الخطوة بين القادرين على تحقيقها ، فإن معرفة العدة شرط طبيعي للإقدام على كل عمل ، كما أن معرفة العدة لا تفيد شيئاً إذا جهل الطريق الموصل إليها ، والمعرفة الإجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقاً ، بل لابد من تعيين المخطئ والمخطئة تحريفاً واضحاً موافقاً لرأي الكل أو لرأي الأكثرية . . . . .

ولم يكن هذا التأثير لمتمكن من قواعد الثورة ليجهل فعل القوة العسكرية في تبديل النظم وتقويض الحكومات ، فقد كان يقول لصاحبه ومن مخاطبهم بدعوته : « لو عدت حيثما لقات حكومة عبد الحميد في أربع وعشرين ساعة » . وكان قصاره من البيان في هذا الصدد أن يفتي به إلى ثقائه حيث لا يتأتى إعلانه في الصحافة المنشورة ولا حدود من إعلانه ونشره . ومن صرح هم هذه الرأي « إبراهيم سيم لبحار » الذي قال عنه في مجلة الحديث : « لو لم يكن شيخاً دينياً لكان قائد جيش فتح » .

نعم . هكذا كان ينبغي أن يفكر في تدبير الوسيلة لمبدأ حكومة عبد الحميد في القسطنطينية ، لأن دعوته إلى النهضة العربية لا تعني شيئاً في محاربه السلطان القائم بالأمر في العاصمة التركية ما لم تسعد قوة السلاح . ولكنه في دعوته التي نجردها لا يلتقي بين يديه وسيلة أنفع من وسيلة ولا يصل إلى نتيجة مرموقة أفضل من النتيجة التي يصل إليها بالكلمة الحية والجماعة المستنيرة ، وحسه أن يدعها حد الإقذاع في قومه ليسفك كل حكومة تفسد في عقر دارهم على غير عتدهم واحترامهم وإنما المسألة هي مسألة وقت مهدور لا شئ بعد نقضه في العادة التي تتول إليها .

• • •

وأيضاً كان القول الفصل في كفاية الدعوة وحدها لاستغلال العرب بالحكم الذاتي أو بالانفصال من الدولة غاشية التي لا خلاف عليها أن الدعوة أكرم وسيلة من وسائل العمل النافع حين يكون المقصود إقناع أصحاب الحق بحقوقهم وتعزيز الثقة بأنفسهم وبإمكان النظر بأمتهم . قبل التعليق بوسيلة من الوسائل على عاصم الحق أو المعارض فيه ، فإن زوال القوة العاصمة قبل

اتفاق أصحاب الحق عليه وعلى العدة من إدراكه قد يفتح أبواب الفتنة على مصاريحها ويجهد الطريق لغاصب طارىء بعد غصب معزول

ويقر الخلاف في مسألة الخلافة وكفاية الدعوة لإقامتها على الصورة التي تدولتها آراء الكواكبي بالسنة المتكلمين في أم القرى . وبخاصة حين يكون الخليفة إماماً روحياً محدود السطوة في شئون الدولة . فليس للسلطان العثماني في هذه الحالة وجه من الوجوه لإبطال بيعة الخلافة بالقوة العسكرية لو استطاعها مع جميع الأمم الإسلامية ، المستغنة وغير المستغنة ، وهو لا يستطيعها ولوثباته إله المريعة الشرعية لاستخدام القوة العسكرية .

على أن الراجح في تقديرنا أن الكواكبي إنما أراد شيوع لفكرة بين المسلمين بطلان دعوى الخلافة العثمانية ، لأن يقام هذه الفكرة على شيوعها في العالم يومئذ قد يمثل حركته ويضعف حجته ويمثله للناس كأنه محارب للخلافة الإسلامية مؤيد للعارة عليها من جانب الدول الاستعمارية ، فإذا ارتفعت هذه المشبهة فهم قمين أن يكسب الرأي العام إلى صفته وأن يتقوى دسائس الدول التي لا يحب أن تبطل بين الأمم التابعة لها حياداً لمساعد ، بل لمن هذه الدول ترحب بالخلافة معزلة عن الدولة وتفصلها عن خلافة التي تعترضها في ميادين السياسة الدولية .

• • •

ويحق لمن يترجم الكواكبي أن ينتبه إلى رأيه عن الدعوة في مقدم حرج من مقامات الترجمة له وتفسيره على حسب أعماله ومساعدته .

ونقول إنه مقدم حرج لأنه مقام النظر في النيات الخفية التي يوقوف عليها الشيء الكثير في موارد التفسير والحكم على الأعمال والأخلاق ، وهي على لزومها لاستيفاء بحث المترجم وتصحيح نقده عريضة للمصارعة والمعالجة خفية المسلك على من يحسن إليه وعلى من يسيئها في تقدير العظيم

لم أكن قد لقيت الكواكبي ولا رأيت في زيارة من زيارته للقاهرة ، لأن زيارتي الأولى كانت بعد وفاته بشهور .

وبكنى لقب من عرفوه وصاحبه بعض مجالس العالم الإسلامي  
 « محمود سالم بك » فيما أذكر . وهو ممن أقاموا زمناً في باريس لنشر الدعوة  
 الإسلامية وازد على أقوال الصحف والساسة في المسألة الشرقية . ومن هؤلاء  
 الذين لقوه حيث سكنت زمناً نعي العباسية شيخ متوقد الفعلة متدع لأحوال  
 الزعماء الدينيين خاصة فيما يدور حول العلاقة بين القاهرة والقسطنطينية وبين  
 المهاجرين من بلاد الدولة العثمانية وبين حملة الأقلام وأقطاب الدين من  
 المصريين وكان حي العباسية وما جاوره في ذلك العصر ملتقى الكثيرين من  
 روار قصر الدمرداش وقصور الرؤساء المعزولين وأصحاب الوظائف الكبرى في  
 القصور الخديوية . ومنها قصر القبة بسكن الخديوي « عباس الثاني » يومذاك .  
 وقلما يقيم في صوابه .

قال لي ذلك الشيخ العظمى إن أماماً من أصحاب الكواكبي كانوا يوماً  
 سمعوا عنه أنه يعمل لحساب الخديوي وحيىء الجوف في بلاد العرب لمبايعته  
 بالخلافة تسموا وقالوا . واقعاً ما يعمل الرجل إلا لحساب نفسه ألا ترونه  
 حريصاً على الخلافة العربية القرشية حريصاً على النسبة إلى قريش في بيت  
 من بيوت الإمارة ؟

ولم أحرف يومئذ موقع الصواب في هذه المظنة ولكنني قرأت كتب  
 الكواكبي بعد ذلك عن الدعوة فرأيت أن الرجل يدعو إلى غاية طويلة الأمد  
 يعلم أنها لا تتم في حياة فرد واحد ويوطئ العرائم على ذلك بين قرائه وصحبه  
 وهو أحقرى أن يطعمهم في سرعة الإنجاز وسرعة الحراء لو كان له مأرب  
 يعلق به ويعلق به آمال العاملين معه غير مضطر إلى التصريح بمراذه

وكل ما يفهم من حرص الكواكبي على الخلافة العربية القرشية أنه لم  
 يكن يعمل لمبايعة الخديوي عباس الثاني بالخلافة الإسلامية ، وأنه ربما استعان  
 به لإضمار خلافة عبد الحميد والانتفاع بنفوذه في البلاد المصرية ، ولكنه  
 لا يستطيع أن يوفق بين خلافة عباس الثاني ودعوة إلى الخلافة العربية القرشية  
 « لروحية » . ولا يرى من إشاراته إلى احتلال الأمن حول الأماكن المقدسة  
 أنه كان يرشح أحداً من بيت معلوم ، بل ليس بين الإمارات العربية في



أوسط القرن التاسع عشر من تنمعة دعوة الكواكبي بشروطها المقررة في «أم القرى» ، سواء كانت دعوة إلى الخلافة أو إلى الدولة . ولكن دعوته - نلك - بشروطها من ناحية الدين وباحية السياسة تنهى إلى غايتها إذا تقدم الناس على شروطها وانخضعت بيعة العثمانيين في بلاد العرب ، ثم قامت الجامعة الإسلامية بعد ذلك على أساس غير أساسها المرسوم في خطط عهد الحميد .

يكفى أن يقال إن الأمة العربية تبحث عن إمام عربي تباعه بالخلافة الروحية ليبلغ الكتاب أجله ، وتصبح المسألة بعد ذلك مسألة أسماء ، وأيام .

\* \* \*

## خاتمة المطاف

ونتيجة لأحذر الوقائع ، ورعدة التعليقات والمعلومات ، أننا أمام حياة عظيمة مقدرة لعمل مسمى ، ويوشك أن جزءاً من أجزائها وكل عنصر من عناصرها أن يشير إلى ذلك العمل ويترقب الوجهة التي اتجه إليها

فليس في ترجمة الكرواكي صفحة لا تنظم في كتاب السيرة كما ينظم الفصل المنتظم في السفر المختصر .

نشأته في حلب متقن الفارق بين المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، أو محس التبع بين أعصاب العالم المعجور .

ومعيشته في منتصف القرن التاسع عشر ، عصر النهضة القومية والمطامع السوية ، وفرصة التحضر والصراع في ميدان العلم والخلق والثروة . بين الغرب المستعد بأهسته ولشرق الذي لا أهة له غير الخوف والرجاء

وأسرته التي بنت معها في منتهى الجهد والبراعة ، ووظائفه التي تفرغ فيه كرم من العصب وتدفعه كل يوم مصطدم الكرامة بين إنسان وإنسان ، وبين قوم وقوم ، وبين فكرة وفكرة ، وبين مصير ومصير .

كل جانب يأوي إليه كأنه هاتف يتناديه . كل عرباً للعرب ولا يهولنك بعد ذلك ما يكون ، هل يكون إلا خير ، ولن يكون إلا خيراً مما أنت فيه

وتحت حياة الرجل ولم يتم رسالته في خدمة قومه ، ولكنها كانت كذلك رسالة مسماة ، لو اطلع على عوالمها بعد سنوات معدودات لرضى عنها واطمأن إلى عواقبها ، وعلم أنه قد أُرْدِمَ يريد الزم . أو أنه قد سبق الزمن إلى ما أراد

وحسب المصنع صاحب الدعوة عرفاء بعظمته وإنصافاً لفصله أن يسبق

المر من وأن يحسن السبق إلى مجراه ، وأن يأتي بالغد المجهول من ظلمات الغيب فيعشى فيه على هدى قبل أن تهتدى إليه شمس النهار .

وهكذا نظر الكواكبي إلى الغيب فيما اختاره من وجهة العمل للغد المجهول كأنه اليوم المعلوم .

وضع قضية الإصلاح في موضعها ، وأصاب من حيث أخطأ الدعاة في زمنه ، بين مخلصين منهم ومدحجين .

لم تكن قضية الجامعة العربية عند الكواكبي دعوة تناهض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

كلا . . ولا كانت « الخلافة الإسلامية » أمامه هدفاً يرميه ويعاديه .

وكل ما في الأمر أنه نظر إلى لقب الخلافة في بني عثمان فلم يعلق عليه مستقبل المسلمين ولا مستقبل العرب ولا مستقبل الترك أنفسهم ، وهم شركاء بني عثمان في الدولة والسلالة .

ولم يمحض على وفاته ربع قرن حتى كان ثواب الأمة التركية في أول مجلس لهم يمثلها حتى تمثلها قد عرفوا هذه الحقيقة كما عرفها الكواكبي وسجلها في أول صفحة من صفحاته ، فأعلنوا عزل الخليفة قبل نهاية الربع الأول من القرن العشرين ، ثم اجتمعت وفود العالم الإسلامي من نحو خمس عشرة أمة في القاهرة بعد ذلك ب ستة ، وانصرفوا وهم لا يحسون أن العالم الإسلامي رهين بملك اللقب حينما كان .

وهذه المعجزة . .

هذه هي آية العبقريّة التي تلهم صاحبها ما يحسب اليوم كفرًا ويحسب في الغد حقيقة من حقائق الإيمان والحكمة ، ومصلحة من مصالح الواقع والعيان .

كان الكواكبي في عرف قوم من الجاهلين أو المتجاهلين عذر الجامعة الإسلامية ، عدواً لخليفة الإسلام ، عدواً لنفسه ولقومه ، عدواً لإخوانه في الدين من الترك العثمانيين .

( الكواكبي )

ثم ارتفع حجاب من حجب الغيب فلم يبق أحد يخالف ذلك العدو المبين  
في دعوة دعاها أو في نية خفية انتواها ، لأنه صنع المعجزة بعبقريته الملهمة ،  
ولأنما العبقريّة الملهمة من آيات الله .

ولم يزل سبق الزمن كرامة العبقريّة التي من أجلها استحضت الذكري  
بعد زمانها واستحضت الإعجاب من كل ذي طبع قويم وكل ذي سليقة  
إنسانية تحس أنها ذات نصيب من عظمة الإنسان . ولكن الإعجاب الصادق  
البصير يضيف إلى بحجة العظيم مزيداً من العلم بمعدنه ومعدن العبقريّة فيه ،  
وما كان مبلغ القدرة في العبقريّة الكواكبية أنها مجهر كبير يريه مدى السنين  
حيث يقصر النظر حوله عن مدى الأيام ، ولا كانت قدرته كالمفتاح الذي  
يدير لواء الزمن إلى الأمام عشرين درجة أو أربعين سنة أو خمسين . . .  
هذه قدرة لو صحت على هذه الصفة لكانت إلى قدرة الصناعة أقرب منها إلى  
قدرة الفكر والضمير . ولأنما كانت عبقريّة الكواكبي ملكة نادرة تتلاقى  
فيها فضيلة العقل الثاقب وفضيلة الضمير الأمين .

كان مقتدراً بعقله على التمييز بين الأشكال والعناوين وبين الحقائق والأعمال  
وكان خبيراً بالضرورة بين عوامل البقاء والنهضة في الأمم وبين مراسم السمات  
والزينة في الدول والحكومات ، وكان يدرك موقع الخطر وموقع السلامة  
فلا يهوله ذهاب لقب ولا ييأس من مصير أمة تأخذ بأسباب الحياة .

وكانت هذه فضيلة العقل الثاقب في هذه العبقريّة الملهمة .

أما فضيلة الضمير الأمين فيها فهي التي أثبت عليه أن يكتم ما يعلم وأوحى إليه  
أن يعمل بما اهتدى إليه ولا ينكص على عقبيه .

والدنيا لا تبخل بإعجابها على عبقريّة تنفرد بالفكر السديد ولا عبقريّة  
تنفرد بالخلق الحميد .

ولكن الجدير بالإعجاب والثناء معاً عبقريّة يلتقي فيها سداد الفكر  
وشجاعة الضمير .



الصفحة

١٦٠	...	...	...	...	...	...	...	النظام الاقتصادى
١٦٥	...	...	...	...	...	...	...	التربية القومية
١٧٣	...	...	...	...	...	...	...	التربية المنهجية
١٧٩	...	...	...	...	...	...	...	الأخلاق
١٨٥	...	...	...	...	...	...	...	وسيلة التنفيذ
١٩٢	...	...	...	...	...	...	...	نخاعة المطاف

رقم الإيداع ٥٧٩٩ / ١٩٨٦

مطبوعة نوحته مصر

المنجالة - القاهرة